دكتور عبد المنعم أحمد يونس
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الشاعر الشهيد

عبد الله بن رواحة

رضي الله عنه

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، هدى الامة ، وكشف الله به الغمة وكان رحمة للعالمين ، ورضى الله عن آله وأصحابه الذين استقبلوا الدعوة ، فكانوا جنودها المناضلين ، وأئمتها الراشدين فجزاهم الله عنا خير الجزاء .

وبعـــد

فان سيرة العظماء تســتهوى الدارســين ، وتأخذ بمجامع قلوب الباحثين ، واذا كان ذلك العظيم شهيدا فان الالحاح على تتبع ســيرته يكون أشد وأقوى ، وحب العيش معه والاقتراب منه يسعدان النفوس ويثلجان الصدور ، واذا كان ذلك الشهيد شاعرا فان الدارس لا يستطيع معه مقاومة نفسه أو كبح جماحها . لأنها والأمر كذلك لابد أن تستمر فى مواصلة البحث ، ومتابعة الدرس على الرغم من وعورة الطريق ، وكثرة الصعوبات التى تجعل الوصول الى الهدف جد عسير .

لقد بدأت رحلتى مع الصحابى الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة رضى الله عنه — منذ فترة ليست بالقصيرة ، فقد صدر كتابى « كعب بن مالك الأنصارى » حياته وشعره ، وقمت يومها باهداء نسخة منه الى الأستاذ الكبير الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف ، فتقبلها بقبول حسن ثم قال : ليتك تتبع ذلك العمل بدراسة لحياة عبد الله بن رواحة رضى الله عنه . فكان ذلك ايذانا ببداية رحلة طويلة معه ، غير أنه بين الحين والآخر كانت تراودنى فكرة التوقف عن المتابعة لصعوبة البحث ، وقلة الزاد ، ثم يدفعنى الى العمل مرة أخرى حبى لشخصية عبد الله بن رواحــة ، وأملى أن أقوم بعمل أغطى به بعض الجوانب التى — أراها — مازالت بحاجة الى التغطية فى المكتبة العربية ، وذلك لأن هذا الشاعر لم يحظ بدراسة مستقلة ، فقد توجه الباحثون نحو صاحبيه حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك الأنصارى ، لمـا وجدوه عندهما من كثرة الزاد ، وسهولة الطريق ، بينما اكتفى الباحثون ببعض الكلمات المختصرة ، والاشارات العجلى التى لا تروى ظمأ ، ولا تشفى غلة عن الصحابى الشهيد الشاعر عبد الله بن رواحة — رضى الله عنه ...

ان المصادر التى اهتمت بتدوين شعر العصرين الجاهلى والاسلامى لا يجد الباحث فيها الا اشارات مجملة وأبياتا قليلة لا تمثل المكانة الرائدة لشعر عبد الله بن رواحة ، فابن سلام الجمحى يضعه ثالث ثلاثة عنــد حديثه عن شعراء المدينة المنورة ، لكنه لا يقدم لنا من شعره الا الأبيات القليلة التى لا تتفق والمكانة التى وضعه فيها ، أما أبو زيد القرشى ، فقد وضعه بين أصحاب المذهبات ، أما ابن هشام فانه لم يرو لعبد الله بن رواحة شعرا جاهليا ، وما رواه من شعره الاسلامى لا يعدو الأبيات أو المقطعات التى قيلت فى عمرة القضــاء أو فى مؤتة ، ثم تناقل الرواة اللاحقون ما رواه ابن هشام ، واكتفوا به دون التنقيب عن شــعره ، وأين ذهب .

ان شعر عبد الله بن رواحة الذى بين أيدينا لا يمثل نتاج شاعر عرف بحبه للاسلام ، ودفاعه عن رسول الله ﷺ ، وأرجح أن هذا الشعر قد ضاع أكثره ولم يجد من يجمعه ويحفظه،وقد يكون استشهاد عبد الله المبكر عاملا من عوامل هذا الضياع ، فقد عكف صاحباه على شعرهما بينما لقى عبد الله ربه فى موقعة مؤتة ، لقد كان شعر عبد الله أقوى على المشركين بعد أن اعتنقوا الاسلام من شعر صاحبيه حسان وكعب فقد كان عبد الله يعيرهم باهدار عقلهم ، وعبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ، وهو أمر آلمهم كثيرا بعد أن تفهموا الرسالة ، وتمثلوا تعاليم الاسلام •

روى صاحب الأغانى قال : « فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضهم بمثل قولهم بالوقائع والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر قال : فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة فلما أسلموا ، وتفهموا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة »(١) فلعل ذلك لذاك •

وعلى الرغم من صعوبة البحث ، وقلة الشعر ، ووعورة الطريق فقد استعنت بالله — وهو خير معين — ورأيت أن أقدم للقراء الشاعر الشهيد عبد الله بن رواحة فى كتاب قد يكشف عن جوانب خفية فى حياته تارة ، وعن لمحات أصيلة فى شعره أخرى ، ثم أحاول الموازنة بينه وبين بعض الشعراء المعاصرين له ، والذين قاموا بجانب من جوانب الدفاع

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٤ ص ١٣٨ ط مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية •

عن الدعوة الاسلامية بسيوفهم وألسنتهم ، ولم آل جهدا فى البحث عن أية معلومة أراها تخدم البحث ، أو تنير جانبا من طريق .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الدكتــور
عبد المنعم احمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
والأستاذ المشارك بجامعة الامام محمد بن سعود بالسعودية

الجمعــة

٥ من صفر سنة ١٤٠٩ هـ

١٦ من سبتمبر سنة ١٩٨٨ م

الفصل الأول

سيرة حياة



حياة العظماء لا تقاس بسنى حياتهم التى يحيونها فى الدنيا ، ولا تحسب حسابا فلكيا ، فقد يمد الله فى عمر انسان ، ولكنه ما ان يفارق هذه الحياة حتى يكون نسيا منسيا،وقد يعجل الله عمر آخر،ولكنه يبارك له فيه فيتسامع به الناس ، ويجرى ذكره على ألسنتهم ، فينعم بسيرة عطرة ، وذكر طيب ، وهذا استمرار للحياة ، وكلما حسنت سيرة المرء ، وطابت سريرته كلما كان ذلك داعيا إلى جريان ذكره على ألسنة الخلق، هو غاية ما يصبو اليه العظماء •

وعبد الله بن رواحة واحد من أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقضى نحبه ، ولما يمتع ناظريه برسالة الاسلام تعلو وبمبادئه تسمو ، حقيقة أن الدعوة الاسلامية يومئذ كانت قد بلغت من النضج ما يجعلها تبنى مجتمعا مثاليا ، فقد أخذ القرآن الكريم يرسى دعائم الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة ، ونزلت آياته توضح للناس أسلوب التعامل الذى يجب أن يبنى عليه المجتمع المسلم ، ولكن عبد الله ابن رواحة قد لقى ربه قبل أن ترى عيناه نور الاسلام يعم جنبات المعمورة ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وتكتمل رسالة الاسلام بقوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » الآية ٣ من سورة المائدة •

ولكن هذه السنوات التى عاشها عبد الله والاسلام يأخذ طريقه الى يثرب ، ويتحسس خطاه بين جنباتها ، أو والاسلام يواجه المشركين ويتحدى جبروتهم وكبرياءهم ، أو والاسلام يكون من أتباعه قوة ضاربة تحمى حومته وتدفع المشركين عن النيل من معتنقيه كشفت عن معدن أصيل ، ونفس فطرها الله على أن تكون محبة للخير عاملة من أجل أن يعم نور الاسلام جنبات الدنيا ، وأن يستمر ذلك النور حتى يرث الله الأرض ومن عليها •

وليس عجيبا من عبد الله أن يصنع ذلك فهو سليل المجد والشرف ، وليس غريبا من رجل أوتى عقلا راجحا وفكرا خصيبا أن يتحسس مواطىء أقدامه ، وأن يميز الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، فهو الرجل الذى فتح عينيه على وثنية بغيضة ، وأحقاد قاتلة كادت تقضى على ذلك المجتمع الآمن ، وتلك البيئة التى أنعم الله عليها بالماء والنبات ، وهما مصدر حياة الانسان .

لقد أجمعت كتب التراجم على أن عبد الله بن رواحة أنصارى خزرجى الأب والأم واسمه « عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس الأغر بن كعب بن الخزرج بن الحارث ابن الخزرج الأنصارى الخزرجى »(١) وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو ابن الاطنابة خزرجية أيضا .

لقد ولد عبد الله بن رواحة ، ونشأ فى يثرب لا ليرى هدوء الطبيعة يعم جنبات موطنه ، ولا ليرى خضرة الزرع ونضارة الحياة يمتع بها ناظريه ، ولكنه نشأ ليرى حرب بعاث تكاد تقضى على كل أمل للانسان فى الحياة ، فأبناء العم الأوس والخزرج يتقاتلون ، ويهود يثرب يذكون نار الحرب ، ويحمون أتونها ليصطلى فيها الأوسيون والخزرجيون ، ولينعموا هم بالمال يغنمونه من تجارة الأسلحة ، ويريحوا أنفسهم من

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ج ٦ ص٧٧ تحقيق د. طه محمد الزينى . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة . وله ترجمة فى الأغانى ج ١٢ ص ٢٤١ ط دار الكتب ، وسيرة ابن هشام ج ١ ط الحلبى . وطبقات ابن سعد ج ٣ ، وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ج ٢ ص ٦٤٥ تحقيق د. محمد على الهاشمى مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . الرياض ، وابن سلام الجمحى ـ طبقات فحول الشعراء .

هؤلاء وأولئك ، فستقضى الحرب ــ لا محالة ــ عليهم جميعا ، وسيسعد اليهود بيثرب دون أن ينازعهم فيها منازع ، وهذه هى سياسة اليهود التى نعرفها جميعا ، والتى حذرنا منها القرآن الكريم ، ولكن عـرب يثرب تمكنت منهم فتنة اليهـود فراحوا يخـربون بيوتهم بأيديهم وأيدى اليهـود .

بل ان اليهود تحالفوا مع الأوس ، وكونوا معهم قوة ضاربة تقضى على جبروت الخزرج ، وتحطم كبرياءهم ولولا خـوف الأوس من غدر اليهود وخيانتهم ، وعلمهم أنهم ان قضـوا على قوة الخزرج فسينفرد بهم اليهود ، ولن يستطيع الأوس وحدهم مواجهة اليهود ، لولا خوفهم من ذلك لقضوا على الخزرج واستذلوهم ولكنهم فكروا فى هـذا الأمر فاكتفوا بالقضاء على روح التسلط فى الخزرج دون القضـاء عليهم ، ورأى الأوس أن جوار الخزرج خير من جوار الثعالب .

وتاريخ الصراع بين اليهود والعرب يرجع الى ذلك الزمن الذى قدم فيه الأوس والخزرج يثرب ، ونزلوا بها ، وكان اليهود مستقرين فى ديارهم ، وبيدهم الأموال والآطام والعـدد والقوة ، ، و « كان فى يثرب قرى وأسواق ، وبها قبائل من اليهود من بنى اسرائيل وغيرهم : منهم قريظة والنضير وبنو قينقاع وبنو ماسلة وزعوما وغيرهم ، وقـد بنوا لهم حصونا يجتمعون بها اذا خافوا »(١) .

فكان طبعيا أن يقنع الأوس والخزرج من اليهود بالسـماح لهم

---

(١) عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكريم المعروف بابن الأثير: الكامل فى التاريخ المجلد الأول ص ٦٥٦ ط دار صادر بيروت ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٩ م .

بمجاورتهم والاقامة معهم ، ولعلهم لم يكونوا من كثرة العدد والقوة بحيث يخشى اليهود عاديتهم ، ومن الجائز أنهم أفكروا فى الاستفادة من خبرتهم السابقة فى الزراعة فى موطنهم باليمن ، فاتخذوا منهم عمالا ومساعدين لهم فى دوائرهم الزراعية أو فى أعمالهم التجارية ، وقنع الأوس والخزرج بهذا من اليهود فنزلوا بينهم وحواليهم الا أن الغلبة والحكم كانا لليهود .

ويحدثنا ابن الأثير أن هناك طاغية غلب على اليهود وكان رجل سوء فاجرا ، يفجر ببناتهم ونسائهم ، وعامل الأوس والخزرج نفس المعاملة الا أن الأوس والخزرج ، عندما عزوا ، وقويت شوكتهم قام واحد منهم وهو مالك بن العجلان الخزرجى بقتله ، ولكنه لم يستطع الاقامة فى يثرب فخرج هاربا الى بلاد الشام حيث الغساسنة « فلما دخل الشام دخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة واسمه عبيد بن سالم ابن مالك بن سالم ، وهو أحد بنى غضب بن جشم بن الخزرج ، وكان قد ملكهم وشرف عليهم ، وقيل انه لم يكن مالكا ، وانما كان عظيما عند ملك غسان وهو الصحيح .

فلما دخل عليه مالك شكا اليه ما كان من الفطيون وأخبره بقتله وأنه لا يقدر على الرجوع فعاهد الله أبو جبيلة ألا يمس طيبا ولا يأتى النساء حتى يذل اليهود ويكون الأوس والخزرج أعز أهلها .

ثم سار من الشام فى جمع كثير ، وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ونزل بذى حرض ، وأعلم الأوس والخزرج ما عزم عليه ، ثم أرسل الى وجوه اليهود يستدعيهم اليه ، وأظهر اليهم أنه يريد الاحسان اليهم فأتاه أشرافهم فى حشمهم وخاصتهم ، فلما اجتمعوا ببابه أمر بهم فأدخلوا رجلا رجلا وقتلهم عن آخرهم ، فلما فعل بهم ذلك صارت

الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فشاركوا اليهود فى النخل والدور(١).

أما رواية الاغانى فلم تذكر ما ذكره ابن الاثير من أمر الفطيون اليهودى ، ولكنها تقرر أن مالك بن العجلان رحل الى ابى جبيلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان ، فسأله عن قومه وعن منزلتهم فاخبره بحالهم، وضيق معاشهم ، فقال أبو جبيلة : والله ما نزل قوم منا بلدا الا غلبوا أهله عليه فما بالكم ؟ ! ثم أمره بالمضى الى قومه ، وقال له أعلمهم أنى سائر اليهم ، فرجع مالك بن العجلان فاخبرهم بأمر أبى جبيلة،ثم جيش أبو جبيلة جيشا عظيما،وأقبل كأنه يريد اليمن حتى قدم المدينة،فنزل بذى حرض ، وأرسل الى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا عليهم فوصلهم وأعطاهم ، ثم أرسل الى بنى اسرائيل يعنى اليهود وقال من أراد الحباء من الملك فليخرج اليه ، وانما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا فى الحصون،فلا يقدر عليهم،فخرج اليه أشراف بنى اسرائيل بخواصهم وحشمهم ، فأمر لهم بطعام حتى اجتمعوا فقتلهم عن آخرهم ، وقال للأوس والخزرج : «ان لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلاحرقنكم» ثم رحل الى الشام فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة فتفرقوا فى عالية يثرب وسافلتها يتبوؤون منها حيث شاءوا ، واتخذوا الديار والأموال والآطام »(١) .

أما رواية البلاذرى فانها لا تذكر شيئا من ذلك ، وانما تقول ان أهل سبأ بعد أن تحطم سد مأرب أخذوا يتنقلون فى شبه الجزيرة

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ المجلد الأول ص ٦٥٧ المصدر السابق .

(١) الاغانى جـ ١٩ ص ٥٦ ــ ٥٧ ط دار الكتب المصرية ، وانظر احمد ابراهيم الشريف بمكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول . ط دار الفكر العربى .

العربية يتحسسون مناطق تشـبه ما اعتادوا عليه من رخـاء العيش ، ونعيم الحياة ، فلم يستقر بهم المقام فى أى منطقة من مناطق الجزيرة العربية الا فى يثرب ، فأتى ثعلبة بن عمرو مزيقياء وولده ، ومن تبعه يثرب ، وسكانها اليهود ، فأقاموا بها خارج المدينة ، ثم انهم غـزوا وكثروا وعزوا حتى أخرجوا اليهود منها ، ودخلوها ، فنزلت اليهـود خارجها »(١) •

لكن الأستاذ محمد حسين هيكل يلمس القضية من جانب آخر حيث يقول : « وان التاريخ ليروى أن المسيحيين فى الشام ممن كانوا يتبعون الدولة الرومية الشرقية ، وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت لاعتقادهم أنهم هم الذين صـلبوا المسيح ، ونكلوا به قـد أغاروا على يثرب ، ليقتلوا يهودها ، فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج على استدراجهم ، ثم قتلوا عددا منهم غير قليل ، وأنزل ذلك اليهود من مكان السـيادة الذى كان لهم ، ورفع الأوس والخزرج الى مكانة غير مكانة العمال التى كانوا مقصورين من قبل عليها ، وقد حـاول العرب بعـد ذلك أن يوقعوا باليهود مرة أخرى ليزدادوا فى المدينة العامرة بالزاعة والمـاء سلطانا فنجحـوا فى كيدهم بعض النجاح ، ثم فطن اليهـود لوقيعتهم بهم ، بذلك تمكنت العداوة والبغضاء فى نفـوس يهود يثرب لأوسها وخزرجها ، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود • رأى أتبـاع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم الى الفناء اذا وجد الأوس والخزرج حلفا من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء ، فسلكوا فى سياستهم خطـة غير خطة الغلب فى المعـارك ، لجـأوا الى سياسة الوقيعـة والتفـريق بأن دسـوا بين الأوس والخـزرج ، وأغـروا

---

(١) أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى : فتـوح البلدان ج ١ ص ١٧ ، ١٨ نشرة د• صلاح الدين المنجد • مكتبة النهضة المصرية

بينهم العداوة والبغضاء ، حتى جعلوا كل فريق على أهبة مستمرة للقتل والقتال ، بذلك أمن اليهود عداوتهم ، وجعلوا يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ، ويستعيدون ما فقدوا من سيادة ، ويستردون ما أضاعوا من عقار(١) .

وعلى هذا فان ذلك الصراع الذى دار بين اليهود والعرب فى يثرب — أيا كان مصدره — لم ينته الا بالقضاء على قوة اليهود المادية والعددية فذلوا ، وقل امتناعهم ، وخافوا خوفا شديدا ، واضطرت بطونهم الصغيرة الى الدخول فى حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج ، ولم يبق الا بنو النضير وقريظة فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم » .

ومعنى ذلك — أيضا — أن اليهود لم يستمروا على موقفهم طويلا ، لأنهم وان أعيتهم القوة المادية والغلبة العددية على الأوس والخزرج فلن تعييهم الحيلة الماكرة والتدبير اللئيم ، لذلك أخذوا يكيدون للعرب ، ويدبرون الخطط للقضاء عليهم،لأنهم علموا من تاريخ ذلك الصراع أنهم « لا قبل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين ، فأشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما ، وكانوا يمدونهما بالأسلحة التى يستخدمونها فى حروبهما اذ كانوا يحترفون صنع الأسلحة .

« وهكذا دارت رحى الحرب فى المدينة لأواخر العصر الجاهلى بين الأوس والخزرج ، وأخذت هذه الرحى تعركهم بثفالها عركا عنيفا بحيث

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — ص ١٩٩ مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثالثة عشرة ١٩٦٨ م

يظن الانسان أنه لم يعد من الممكن أن يعم السلم فى المدينة ، فدائمـا حرب ودائما رماح مشرعة وسيوف مسلولة ، ودماء مسفوحة »(١) .

والواقع أن هذه الحروب وان كانت لها جوانب سلبية حيث قضت على قوة هاتين القبيلتين العربيتين اللتين كانتا قوة يخشى اليهود بأسها ويحسبون لها ألف حساب ، فتفرق المجتمعون ، ودبت العداوة والبغضاء بين أبناء العم ، وأحس العقلاء منهم بخطر الانقسام يتهددهم ، وبغول الحرب تتوعدهم ، وبقرب النهاية التى ان حدثت فسيثب اليهود عليهم يستذلونهم مرة أخرى ، وهذا جانب ايجابى جعل العـرب يفكرون فى منقذ يحول بينهم وبين هذا المصير ، وهناك جانب ايجابى آخر تمثل فى تدريب هؤلاء الناس على القتال ، كما قال سعد بن معاذ لرسـول الله ﷺ — يوم بدر : « انا لصبر فى الحرب صـدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك »(٢) يقول البلاذرى فقد كان للأوس والخزرج قبل الاسلام وقائع تدربوا فيها بالحرب ، واعتادوا اللقاء حتى شـهر بأسهم ، وعرفت نجدتهم ، وذكرت شجاعتهم ، وجل فى قلوب العـرب أمرهم ، وهابوا حدهم ، فامتنعت حوزتهم ، وعز جارهم لمـا أراد الله من اعزاز نبيه — ﷺ — وأكرمه بنصرته(٣) .

واذا نحن حاولنـا تتبـع ذلك الصراع الذى دار بـين الأوس والخزرج فان البحث يطول ، وتتشعب بنا السبل ، فقد أوردت المصادر أن ذلك الصراع دام قرابة مائة سنة ، ولقد ذكر ابن الأثير أياما كثيرة

---

(١) د. شوقى ضيف : الشعر والغنـاء فى المدينة ومكة ص١٢ ط دار المعارف .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٦٢٠ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ١٧ — ١٨ المصدر السابق

للأوس والخزرج منها حرب « سـمير » ، وحرب « كعب بن عمـرو المازنى » ، ويوم « السراة » ، وحـرب « الحصـين بن الأسلت » ، وحرب « ربيع الظفرى » ، وحرب « فارع بسبب الغلام القضاعى » ، وحرب « حاطب » ، ويوم « الربيع » ويوم « البقيع » ، ويوم « الفجار الأول » ، ويوم الفجار الثانى » ، ويوم « بعاث »(١) •

والذى يعنينا من هذه الوقائع والأيام دور عبدالله بن رواحة فى هذه المعارك والشعر الذى قيل فيها ، فقد ذكرت المصادر أن عبد الله ابن رواحة كان يقول الشعر يرد به على قيس بن الخطيم،والذى يبدو للباحث المتتبع لهذا الشعر أن أكثره قد ضاع ، أو أن الأنصار عنـدما أسلموا أهملوا رواية ذلك الشعر ، لأنه يثير الأحقاد والضغائن ، ويعيد على مسامعهم أمر ذلك الصراع الدامى الذى جرهم اليه اليهود ، والذى فقدوا بسببه كثيرا من قادتهم ورجالهم •

لقد أوردت بعض المصادر جانبا من هذا الشعر ، فقد أورد ابن الأثير بيتين لعبد الله بن رواحـة يرد بهما على عبيد بن ناقـد الأوسى الذى قال قصـيدة يفتخر بها على الخزرج لانتصار الأوس عليهم يوم البقيع يقول عبيد :

لمـا رأيت بنى عـوف وجمعهم ... جاءوا وجمع بنى النجار قد حفلوا
دعوت قومى وسهلت الطريق لهم ... الى المكان الذى أصـحابه حللوا
جادت بأنفســها من مالك عصب ... يوم اللقاء فما خافوا ولا فشـلوا
وعاوروكم كؤوس الموت اذ برزوا ... شطر النهار وحتى أدبر الأصل

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التـاريخ : المجلد الأول ص ٦٥٦ — ٦٨٠ ط دار صادر — بيروت — لبنان •

حتى استقاموا وقد طال المراس بهم   فكلهم من دماء القوم قد نهلوا
تكشف البيض عن قتلى أولى رحم   لولا المسالم والأرحام ما نقلوا
تقـول كل فتـــاة غاب قيمهــا   أكل من خلفنا من قومنا قتـــلوا
لقــد قتلتم كريما ذا محـــافظة   قد كان حالفــه القينات والحلل
جــزل نوافله حــلو شـــمائله   ريان واغله تشـــقى به الابل

فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثى الخزرجى :

لـــا رأيت بنى عــوف واخــوتهم   كعبا وجمع بنى النجار قد حفلوا
قدما أباحوا حماكم بالسيوف ولم   يفعل بكم أحد مثل الذى فعلوا (١)

ولعبد الله بن رواحة بيت آخر قاله يهجو به قيس بن الخطيم الذى جرح جراحة شديدة يوم الفجار الأول فمكث حينا يتداوى منها ، وأمر أن يحتمى عن الماء ، فقال عبد الله بن رواحة فى ذلك :

رميناك أيام الفجــار فلم تزل   حميا فمن يشرب فلست بشارب (٢)

ولعل هذا البيت كان ضمن قصيدة طويلة ، بل لعل البيتين السابقين كانا كذلك أيضا ، أما شعر عبد الله الذى قاله يوم بعاث والذى ذكرته المصادر فاننا سنفرد له فصلا آخر ، لأن يوم بعاث قد أكثر فيه الشعراء وأدلوا بدلائهم « وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، ثم جاء الاســلام واتفقت الكلمة ، واجتمعــوا على نصر الاسلام وأهله وكفى الله المؤمنين القتال » (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، المجلد الأول ص ٦٧٤ المصدر السـابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، المجلد الأول ص ٦٧٦ المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التـاريخ ، المجلد الأول ص ٦٨٢ المصدر السابق .

وخبر ذلك اليوم — كما يرويه ابن الأثير « أن قريظة والنضير جددوا العهود مع الأوس على المؤازرة والمناصرة ، واستحكم أمرهم ، وجدوا فى حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت ، وأرسلت حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب ، والتقوا ببعاث وهى من أعمال قريظة ، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك والد أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياض ، وتخلف عبد الله بن أبى بن سلول فيمن تبعه من الخزرج،وتخلف بنو حارثة بن الحارث عن الأوس، فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديدا ، وصبروا جميعا » .

« ثم ان الأوس وجدت مس السلاح فولوا منهزمين نحو العريض، فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه ، وصاح واعقراه كعقر الجمل ، والله لا أعود حتى أقتل ، فان شئتم يا معشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا .

فعطفوا عليه ، وقاتل عنه غلامان من بنى عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا ، وأقبل سهم لا يدرى من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياض رئيس الخزرج فقتله ... وانهزمت الخزرج ، ووضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح : يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، يقصد اليهود .. فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم »(١) .

لقد أكثر الشعراء القول فى هذا اليوم من ذلك قصيدة قيس بن الخطيم :

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، المجلد الأول ص ٦٨١ المصدر السابق .

أتعرف رسما كاطراد المذاهب

لعمرة ركبا غير موقف راكب

ديار التى كانت ونحن على منى

تحل بنا لولا رجاء الركائب

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة

بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم رد عليه عبد الله بن رواحة بقوله :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب

نعم،فرشاش الدمع فى الصدر غالب

بكى اثر من شطت نواه ولم يقم

لحاجة مخزون شكا الحب ناصب

لدن غدوة حتى اذا الشمس عارضت

أراحت له من لبه كل عازب (١)

ثم يقول كل من ابن الأثير وابن سلام الحمحى « وليلى التى شبب بها ابن رواحة هى أخت قيس بن الخطيم ، وعمرة التى شبب بها ابن الخطيم هى أخت عبد الله بن رواحة ، وهى أم النعمان بن بشير الأنصارى »(٢) •

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، المجلد الأول ص٦٨٢ ـ ٦٨٤ المصدر السابق وانظر ابن سلام الجمحى طبقات فحول الشعراء المجلد الأول ص ٢٢٨ تحقيق محمود شاكر ـ مطبعة المدنى ـ القاهرة •

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ المجلد الأول ص ٦٨٤ المصدر السابق •

ولعله لا يداخلنا الشك فى نسبة هذا الشعر الى صاحبيه ، فقد أورد ابن سلام قصيدة قيس بن الخطيم بينما أورد ابن الأثير قصيدة ابن رواحة ، فأحداث هذه المعركة وقعت كما يقول المؤرخون قبل الهجرة بخمس سنوات ، « وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين شاركوا فى حوادثها ، وخاضوا غمار الوغى فيها قد أدركوا الاسلام ، وكان لهم أثر ظاهر فى حوادث المدينة فى عهد النبى — ﷺ بل ان الأوس والخزرج تذكروا يوما تلك الأحداث ، وأعادوا ما قيل من شعر فيها ، وكادت الحرب تقع بينهم مرة أخرى لولا تدخل الرسول ﷺ »(١) « فقد مر شاس بن قيس ، وكان شيخا قدعسا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ — من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد : لا والله ما لنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد اليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث ، وما كان قبله ، وأنشدهم ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب : أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : ان شئتم رددناها — الآن جذعة ، فغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة — والظاهرة : الحرة • السلاح السلاح ، فخرجوا اليها فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ١٨٣ المصدر السابق •

المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين : الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام ، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله — ﷺ — سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس فأنزل الله تعالى فى شأن شاس بن قيس وما صنع : « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (الآيتان ٩٨ — ٩٩من سورة آل عمران) .

وأنزل الله فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهماالذين صنعوا ما صنعوا مما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية، « يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » ... الى قوله تعالى « وأولئك لهم عذاب عظيم (الآيات من ١٠٠ — ١٠٥ من سورة آل عمران)(١) .

« وهذه الرواية وان ذكرها ابن اسحاق فى حوادث ما بعد الهجرة الا أنها تعطينا فكرة عن الروح العامة لدى اليهود،وانهم كانوا يرون فى اجتماع كلمة الأوس والخزرج أمرا مهددا لكيانهم فى المدينة فعملوا على تحطيم الاتحاد بين القبيلتين العربيتين ، ونستطيع أن نقول أن هذا الاتجاه هو الذى اتجه اليه اليهود بعد تغلب الأوس والخزرج عليهم فى يثرب ، وان كانت الظروف قد اضطرتهم الى أن تدخل

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص٥٥٧ ط مصطفى البابى الحلبى ت . السقا — الأبيارى وشلبى ١٣٧٥ — ١٩٥٥

بطـونهم فى أحلاف مع الأوس والخـزرج ، كل ذلك بسبب ظروفـه التى وجـد فيها »(١) •

ثم ان هذه الرواية تعطينا تصورا لذلك الشعر الذى قيل فى هذه الفترة الذى عمـد اليهودى الى روايتـه حتى يثير ما كان بين الأوس والخزرج من عداوات قضى عليها الاسلام •

واذا كنا سنترك شعر عبد الله الى حينه فان طبيعة البحث تفرض علينا أن نتبين ملامح تلك البيئة فى شخصية عبد الله بن رواحـة تلك الشخصية التى انطبعت — بعد الاسلام — بطابع الهدوء واعمال الفكر، ومقارعة الحجة بالحجة ، ولعل مفتاح شخصية الرجل ينشـأ من بيئته الأولى التى نشأ فيها ، والتى تطبعـه بكثير من الصـفات ، وتؤثر فى سلوكه العام فى مستقبل أيامه •

لقد نشأ عبد الله بن رواحة فى يثرب تلك المنطقة الزراعية الصناعية التجارية ، ومنطقة هذا شأنها جديرة بأن تجعل قاطنيها يحرصـون على العيش الهـادىء ، والاستقرار الدائم ، وتجنب الأمـور التى تزعزع أمنهم، وطمأنينتهم ، ولكن اليهود اسـتطاعوا — كما قدمنا — اثارة حمية جيرانهم ، حتى يأمنـوا فوقهم وغلبتهم ، فكان ما كان من أمر الصراع الدامى الذى أدرك عـاقبته الوخيمـة المنتصر والمنهـزم على سـواء •

وأصبحت مدينـة يثرب تغلى بالخـلافات ، وتضارب المصـالح والأهواء ، لكن يوم بعاث أصاب الفريقين بأضرار كبيرة ، فقد قتل فيه

---

(١) مكة والمدينـة فى الجاهليـة وعهد الرسـول ص ٣٣٨ أحمد ابراهيم الشريف ط دار الفكر العربى ١٩٦٥م

عدد كبير من سروات القوم جميعا ورؤسـائهم ، وأصيبت الممتلكـات بأضرار فادحة نتيجة التقطيع والتحـريق ، الأمر الذى جعـل الناس يفكرون فى ضرورة وضع حد لهذه المنازعات ، فبدأت الأفكار تتجه الى ايجاد جو من السلام ينصرف النـاس فيه لأعمـالهم ، ويتذوقون لذة الراحة ، وهناء العيش ، وبخاصة البطون الصـغيرة التى لم تكن لها مصالح فى النزاع ، وكان همها أن نعيش فى سلام ، لذلك سعى كثـير من الزعمـاء ، وذوى النفوذ من الطـرفين لكف كل من تحـدثه نفسه بمحاولة اثارة الفتنة ، وايقاد نار العداوة »(١) .

نشأ عبد الله بن رواحة فى هذا الجـو الملىء بالأحقاد ، الحـافل بالحروب ، المفعم بالدماء ، وليس هو بالرجل الغر أو الشاب المخدوع ، اقد عركته الحرب ، ودارت رحاها فى النهاية على قومه من الخـزرج ، وليس الأمر كذلك شان المنتصرين من الأوس كانوا يريدون الخـروج من هذا الجو القاتم « فقلوب أهل يثرب على اختلاف قبائلها ، وكثرة نزعاتها قد سئمت حال الجفاء والعـداوة ، وأحست بالحـاجة الى من يخرجهم منها،ويوجه نشاطهم الى ما هو أجدى عليهم وأكثر نفعا »(٢) « وقد روى البخارى فى صحيحه عن عبدالله بن اسماعيل عن أبى امامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت « كان يوم بعاث يوما قدمـه الله لرسوله — ﷺ — وقد افترق ملؤهم ، وقتل سراتهم »(٣) .

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجـاهلية وعهد الرسول ص ٣٤٣ المرجع السابق .

(٢) مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسـول ص ٣٤٣ المرجع السابق .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ٣ ص ١٦٢ تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، مطبعة الفجالة الظاهر — القاهرة .

كان تفكير الجميع — اذا — متجهاً نحو منقذ يحقنون به دماءهم التى أريقت ، وأرحامهم التى تقطعت ، فالأوس والخزرج أبناء عمومة نشأوا من رحم واحدة ، فما بالهم يقتلون أنفسهم بأيديهم ، ويريقون دماءهم بسيوفهم ويقطعون أرحامهم بعقولهم التى حول اليهود تفكيرها الى القتل وحب الانتقام •

ولكن هل يفكر هؤلاء فى عظيم من عظمائهم يجتمعون عليه،وسيد من ساداتهم ينصبونه ملكا عليهم ؟ ومن يكون ذلك العظيم ؟ هل يكون من الأوس الظافرة فى آخر موقعة ، أم يكون من الخــزرج التى باتت تلعق جراحها بعد هزيمتها يوم بعاث ؟

ان كتب التاريخ تحدثنا أن رســول الله — ﷺ « قدم المدينــة وسيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول العوفى ، ثم أحــد بنى الحبلى لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخــزرج قبله ، ولا بعده على رجل من أحد الفريقين ، فكان قومه قد نظمــوا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله — ﷺ — وهم على ذلك فلما انصرف قومه عنه الى الاسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله — ﷺ — قد استلبه ملكا،فلما رأى قومه قد أبوا الا الاسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن •

ولكن هــل يصلح عبــد الله بن أبى لأمر جــلل يريده العقــلاء والمفكرون ؟ لقد كان العرب بيثرب يجــاورون اليهود وكان لجــوارهم اليهود أثر آخر لا يرقى الى التفكير فيه الا أولو العقل والحجا ، ذلك هو الاثر الروحى ، فقد كان اليهود « وهم أهل كتاب ، ودعــاة الى وحدانية،يعيبون على جيرانهم الوثنيين اتخاذهم الأوثان زلفى الى الله وينذرونهم بعث نبى يقضى عليهم ، ويشايع اليهود »(١) •

---

(١) محمد حسين هيكــل : حياة محمد صلى الله عليه وســلم — ص ١٩٩ — ٢٠٠ المرجع السابق •

ان عبد الله بن رواحة وغيره من العقلاء لا يقبلون عبد الله بن أبى سيدا عليهم ، لأن له مواقف ينكرها عليه الأوس والخزرج على السواء، لكن عامة الناس ، بل سوادهم يرون فى عبد الله بن أبى شخصا يمكن أن تحقن به الدماء،وأن تضع به الحرب أوزارها،وحتى لايجد الثعالبجوا مهيئا للوثوب عليهم ، فليملك عبد الله بن أبى ، وليكن للوجود العربى فى يثرب شأن لا يقف عند رئاسة قبيلة ، أو زعامة القبيلتين جميعـا ، بل يتعداه الى ملك يكون العـرب سادته ، ومملكة عربية فى يثرب يكـون اليهود من رعـاياها ، وبذلك يقضى على كل أمـل يراود اليهـود فى السيطرة على منطقة يثرب .

لكن اليهود فاجأوا العرب بأمر آخر ليس ملكا،وليس تاجا ، وانما هو نبى يظهر حان أوانه يناصرهم على أعدائهم الوثنيين،بل ان الغلبة فى الجـزيرة كلها ، بله فى العالم كله ستكون لهم ، وسيقتلون الوثنيين قتل عاد وارم ، انه لأمر جلل ، وخطب فادح جعل العقلاء من العـرب يفكرون فيه مليا ، أيمكن أن يحدث ذلك ، ويتقوى اليهود مرة أخرى ، ويتخذوا من العرب خدما لهم وعمالا ، كما كانوا يصنعون بهم يوم أن كان الأوس والخزرج ضـعافا ، قبل أن يقـوى وجودهم ، ويشـتد ساعدهم ؟ ان اليهود « ثعالب » ان تملكوا فلن يحسنوا ، وان تغلبـوا فلن يرحموا .

لقد بدأ التفكير فى أمر النبى — ﷺ — يفرض نفسه على ساحة يثرب ، بل ان ذلك الأمر زعزع عند بعضهم عقيدة الوثنيـة ، وجعلهم يتحينون الفرصة للتخلص من عبادة الأصنام والأوثان ، وما أظننا نجاوز الحقيقة ان قلنا ان عبدالله بن رواحة كان على رأس هؤلاء المفكرين ، لأن هناك مرشحات كثيرة ترشحه الى ذلك ، فهو سيد عظيم القدر كما وصفه ابن سلام الجمحى فى قوله « وعبد الله بن رواحة عظيم القدر

فى قومه ، سيد فى الجاهلية ليس فى طبقته التى ذكرنا أسود منه »(١) •

والطبقة التى ذكرها ، ابن سلام هم ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس بن الخطيم ، فكأن عبـد الله بن رواحة تفرد بأمور جعلته يفوق أقرانه ، وتكون له السيادة عليهم ، واذا كانت له السيادة على أقرانه من الشعراء فان سيادته على غيرهم تأتى تبعا ، ولم كانت هذه السيادة ؟ ولم كان عظيم القدر فى قومه ؟

ان المتتبع لسيرة عبد الله بن رواحـة فى الجاهلية يراه قد سـاد قومه وطبقته بامور يمكن استنتاجها من حياة معاصريه ، فحسـان بن ثابت مثلا كان شـاعرا ، ولكنه لم يخض غمـار المعارك كما خاضـها عبدالله بن رواحة ، ولم ينشغل بأحداث قومه كما فعل ابن رواحـة ، بل انه جعل كل وكده وهجيراه مدح الغساسنة والعودة محملا بالهدايا والمنح ، أما عبدالله فلم يصنع مثل ما صنع حسان ، لأن عقله الراجح جعله يفكر فى أمر قومه والخروج من الهوة التى وصل اليها مجتمـع يثرب •

أما كعب بن مالك ، فقد كان مثل عبدالله شاعرية وفروسية ، ولكنه لم ينشغل أيضا بما انشغل به عبدالله،فلم يرو عنه أنه تأثر بما تأثر به عبدالله بن رواحة،بل يبدو أنه كان أقل اهتماما من عبدالله بهذهالحرب الطاحنة ، أو انه كان أصغر سنا من عبدالله بن رواحة ، والدليل على ذلك اختيار عبدالله بن رواحةنقيبا عند بيعة العقبة الأمر الذى لم يحظ به كعب رغم وجوده معهم فى هذه البيعة ، وقد تكون نزعة الايمان لدى عبد الله أقوى منها لدى كعب ، فقد روى أن عبد الله بن رواحة شهد مع رسول الله المشاهد كلها لم يتخلف عن موقعة قط،أما كعب فقد تخلف فى بعض الغزوات كغزوة بدر وتبوك حقيقة أن الأولى ترك أمر الخروج

(١) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص٢٢٣ تحقيق محمود شاكر مطبعة الخانجى القاهرة •

فيها لرغبة من يحب ، وأن الثانية تاب الله عليه ، وأنزل فيه قــرآنا ، لكن يبقى بعد ذلك أمر آخر وهو أن تغلغل الايمان فى قلب المرء يجعله لا يبرح رسول الله — ﷺ — فى جميع أحواله ، وهذا ما حــدث من عبد الله بن رواحة .

أما قيس بن الخطيم فقد كان مستهترا منصرفا الى معاقرة الخمر والنساء ، حقيقة انه انشغل بأمر الحرب بين الأوس والخزرج ، وكان يقول شعرا يهجو فيه الخزرج ، ويتغــزل بأخت عبد الله بن رواحــة نكاية فيه ، واثارة لحميته ، أو طعنا فى عرضه ، ولكنه كان بعــد ذلك منشغلا بلهوه وعبثه ، حتى ان ابن سلام يروى عن قيس بن الخطيم انه كان يشغل امرأته عن الصلاة بعد أن أسلمت ، ويحاول صرفها عن الصلاة ولم يكف عن ذلك حتى كلمه الرسول فى ذلك قبل الهجرة ، ولكنه استمر على كفره حتى هلك .

لقد برىء عبد الله بن رواحة من كل هذه الخصال التى اتصف بها أقرانهوأنداده ، وأصبح رجلا ينعم بكل صفات الرجولة ، وهذا ما جعل ابن سلام يقول عنه : كان عظيم القدر فى قومه سيدا فى الجاهلية ليس فى طبقته أسود منه . وهذا ما جعله قريبا من قلب رسول الله — ﷺ — بعد اسلامه ، فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام اذا فقهوا ، وعبد الله واحد من أولئك الذين فقهوا الاســلام وتمثلوا تعــاليمه ، ومبادئه ، وساروا على نهجه وسلوكياته .

هذا هو حديث المؤرخين عن عبد الله بن رواحة قبل الاسلام ، وهو حديث ينم عن اعجاب المؤرخين بشخصية عبد الله ، لأنه صاحب عقل راجح جعله يتسنم ذرا المجد فى قومه ، وتكون له السيادة بين أبنــاء طبقته ، فان ذهبنا نستوضح ملامح تلك الشخصية بعد الاسلام وجدناها تضرب فى الأصالة ، وتتعمق فى السيادة ، وتنعم بتقدير الجميع ، لقــد أجمع المؤرخــون عــلى أن عبدالله بن رواحة كان أحــد النقباء الذين

اختارهم قومهم ليكونوا مسئولين مسئولية مباشرة عن مجتمع المدينة قبل هجرة الرسول — ﷺ — اليها ، انهم اختيروا ليؤدوا نفس الدور الذى أداه حواريو عيسى بن مريم من قبل ، أو نفس الدور الذى أداه النقباء فى قوله تعالى :

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل،وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وقال الله انى معكـم لئن أقمتـم الصـلاة ، وآتيتم الزكـاة وآمنتم برسلى ، وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » (الآية ١٢ من سورة المائدة) .

وخبر ذلك أن رسول الله — ﷺ — عندما اجتمع بالأنصـار فى الموعد الذى حدده لهم والمكان الذى أشـار به عليهم وهو العقبـة(١) خرج اليهم المسلمون الذين أتوا للحـج وللقاء رسول الله — ﷺ ، وعندما وصلوا الى المكان المحدد جاءهم رسول الله — ﷺ — ومعه عمه العباس بن عبد المطلب « وكان ما يزال على دين قومه لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن فى الأمر حلفا ، وأن الأمر قد يجر الى حـرب ، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى عبـد المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمدا ، فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلى بنو هاشم وبنو عبد المطلب نارها ، ثم لا يجـدون من هؤلاء اليثربيين نصيرا ، لذلك كان العباس أول من تكلم فقال يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه — وهو فى عز من قومه ومنعـة فى بلده ، وقد أبى الا الانحياز اليكم ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهـاية فى التـاريخ ج ٣ ص ١٧٤ ومابعدها ، وابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٤٤٣ ومابعدها ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ المجلد الثانى ص ٩٨ ومابعدها .

واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه .

قال اليثربيون وقد سمعوا كلام العباس : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغب فى الاسلام « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

وكان البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم ، وكان قد أسلم بعد العقبة الاولى ، وقام بكل ما يفرض الاسلام الا انه جعل قبلة صلاته الكعبة ، وكان محمد — ﷺ — والمسلمون جميعا يومئذ مانزال قبلتهم المسجد الاقصى ، ولما اختلف هو وقومه ، واحتكموا الى رسول الله — ﷺ —أول وصولهم الى مكة رد محمد — ﷺ — البراء عن اتخاذ الكعبة قبلة ، فلما طلب النبى — ﷺ — الى مسلمى يثرب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم مد البراء يده يبايعه على ذلك وقال : « بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ، وقبل أن يتم البراء كلامه اعترض أبو الهيثم بن النبهان قائلا : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال — أى اليهود — حبالا نحن قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم — ﷺ — وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم، وهم القوم بالبيعة فاعترضهم العباس بن عبادة قائلا : يا معشر الخزرج أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له مما دعوتموه

اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخــذوه فهو والله خير الدنيــا والآخرة ، فأجاب القوم انا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك ، فرد عليهم محمد — ﷺ — مطمئن النفس قائلا : الجنة ، ومدوا أيديهم فبسط يده فبايعوه »(١) .

فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبى — ﷺ — أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس،فقال النبى — ﷺ — لهؤلاء النقباء أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيــل على قومى » .

ولقد جمع كعب بن مالك الأنصارى أسماء النقباء الاثنى عشر فى قصيدة يقــول فيها :

أبلــــغ أبيا انه قال رأيــــه
وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى الله ما منتك نفســك انه
بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدالنا
بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن فى حشـــد أمر تريده
وألب وجمع كل ما أنت جـامع
ودونك فاعلم أن نقض عهودنا
أباه عليك الرهط حين تتــابعوا

---

(١) محمد حسين هيكل : حيــاة محمد صلى الله عليه وسـلم : ص ٢٠٤ — ٢٠٧ المرجع السابق .

أباه البراء(١) وابن عمرو(٢) كلاهما
وأسعد(٣) يأباه عليك ورافـع(٤)

وسعد(٥) أباه الساعدى(٦) ومنذر
لأنفك ان حاولت ذلك جـادع

وما إبن ربيع(٧) ان تناولت عهده
بمسـامه لا يطمعن ثم طـامع

---

(١) البراء هو البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة بن جشم بن الخزرج • البداية والنهاية ، والسيرة النبوية •

(٢) ابن عمرو هو سعد بن الربيع بن عمرو بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحـارث بن الخزرج •

(٣) وأسعد هو أبو امامة أسـعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار وهو تيم الله بن عمرو بن الخزرج •

(٤) ورافع هو رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج •

انظر ابن كثير : البداية والنهـاية جـ ٣ ص ١٧٧ ومابعـدها • وابن هشام السيرة النبوية : ق ١ ص ٤٤٣ وما بعدها •

(٥) وسعد هو سـعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة ابن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج •

(٦) منذر : هو المنذر بن عمر بن خنيس بن حارثة بن لوزان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج •

(٧) وابن الربيع : هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مالك بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج •

وأيضا فلا تعطيكه ابن رواحة(٨)
واخفـــاره من دونه السم ناقـــع

وفاء به والقـــوقلى (٩) بن صامت
بمندوحة عمـــا تحاول يافـــع

أبو هيثم(١٠) أيضا وفى بمثلها
وفاء بما أعطى من العهـــد خانع

وما ابن حضير(١١)أن أردت بمطمع
فهل أنت عن أحموقة الغى نازع

وسعد أخو عمرو(١٢)بن عوف فانه
ضروح لما حاولت ملأمر مانـــع

---

(٨) وابن رواحة : هـــو عبـــد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس (الأكبـــر) بن مالك (الأغـــر) بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج .

(٩) القوقلى بن صامت : هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم ابن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج

(١٠) أبو هيثم : هو أبو الهيثم بن النبهـــان ، ولكن بعضـــهم يعد فيهم سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب .. وقد سار كعب ابن مالك على رأى من يعد أبا الهيثم بن النبهـــان فيهم وهو ما عبر عنـــه ابن هشام بقوله وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن النبهان ولا يعدون رفاعة هذا .

(١١) وابن حضير : هو أسيد بن حضير بن السماك بن عتيك بن رافع بن امرىء القيس بن زيد عبد الأشهل .

(١٢) وسعد أخو عمرو بن عوف هو رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر ابن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك من الأوس انظر البداية والنهاية فى التاريخ جـ ٣ ص ١٣٧ ومابعدها ، والسيرة النبوية لابن هشام : ق ١ ص ٤٤٣ وما بعدها .

أولاك نجـوم لا يغيــك منهم
عليك بنحس فى دجى الليل طالع(١٣)

ويبدو أن هؤلاء النقباء كانت لهم مهمات خاصة ، فهم يتـولون شأن الدعوة الى الاسلام فى المدينة ، وهم أهل الحل والعقد فيها حتى تتم هجرة الرسول — ﷺ — وهم الذين يتصـدون لكل من تحـدثه نفسه الصد عن سبيل الله أو ايذاء المسلمين الذين يعتنقون الاســلام فلابد — اذن — من اختيار دقيق لهؤلاء ، ولابد من ترشيح العنــاصر الصالحة التى يمكنها القيام بهذه المهمة .

ولعل فراسة رسول الله — ﷺ — قد هدته الى مكامن الايمـان فى قلب عبد الله بن رواحة ، ولعل نــور النبوة قد كشف دخيلــة هذا الرجل الذى كانت له من المواقف فيما بعد ما جعلنا نتأكد من صــدق النبوة ، وصحة الاختيار على الرغــم من انه لم يحضر بيعة العقبــة الأولى ، لكن دلائل الايمان لاحت من خــلال ذلك اللقاء الأول الذى التقى فيه هذا الجمع من أهل يثرب ، فقد كانوا سبعين رجلا وامرأتين — على رواية ابن كثير — ، أو ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين فيما رواه ابن هشام عن ابن اســحاق ، وأيا ما كان شأن العدد فان عبـد الله ابن رواحة كان واحدا منهم ، ثم كان أحد النقباء الذين اختيروا فى تلك الليلة للقيام بما يناط بهم من ملمات .

لكن الأستاذ خالد محمد خالد فى حديثه عن عبدالله بن رواحة يدخله ضمن الذين بايعوا بيعة العقبــة الأولى بل يجعل النقبــاء هم الذين بايعوا البيعةالأولى فيقول «عندما كان الرسول — صلى الله عليه وسلم —

---

(١٣) ابن هشام السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٤٥ ، والبداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧٧ ، ١٧٨ المصدر السابق .

يجلس مستخفيا من كفـار قريش مع الوفد القادم من المدينـة هناك عند مشارف مكة يبايع اثنى عشر نقيبا من الأنصار بيعة العقبة الأولى كان عبدالله بن رواحة واحدا من هؤلاء النقباء — حملة الاسلام الى المدينة ، والذين مهدت بيعتهم هذه للهجرة التى كانت بدورها منطلقـا رائعا لدين الله الاسلام •

ثم يقول الكاتب نفسه « وعندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يبايع فى العام التالى ثلاثة وسبعين من الأنصار أهل المدينة بيعة العقبة الثانية كان « ابن رواحة » العظيم واحدا من النقباء المبايعين »(١) •

لكن المتتبع لكتب السير والتاريخ والتراجم لا يجد فيها اشارة من قريب أو من بعيد تدل على أن — ابن رواحة — قد بايع بيعة العقبـة الأولى التى كانت بيعة على مثال بيعة النساء الواردة فى القرآن الكريم فقد ذكر ابن اسحاق عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى مرثد بن عبدالله اليزنى عن عبد الرحمن بن عسيلة الصناجى عن عبادة بن الصامت قال : «كنت فيمن حضر العقبة الأولى،وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على بيعة النساء،وذلك قبل أن تفرض الحرب على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتـل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف• فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شـيئا فأمركم الى الله عز وجل ان شاء عذب وان شاء غفر »(٢) •

---

(١) خالد محمد خالد : رجال حول الرسـول ص ٢٧٨ ط دار الفكر • بيروت — لبنان

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٤٣٣ المصدر السابق •

ورواية ابن كثير فى البداية والنهاية لا تبعد من ذلك ولكنها تزيد قوله «وقوله على بيعة النساء يعنى على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية ، وكان هـذا مما نزل على وفق ما بايع عليـه أصحابه ليلة العقبة،وليس هذا بعجيب،فان القرآن الكريم نزل بموافقة عمر بن الخطاب فى غير ما موطن كما بيناه فى سيرته وفى التفسير ، وان كانت هذه البيعة عن وحى غير متلو فهو أظهر والله أعلم »(١) .

ثم يذكران أسماء النفر الاثنى عشر ، ولا يذكران بينهم عبد الله ابن رواحه ، ثم ان البيعة الأولى لم يكن فيها نقباء ، فقد كانوا جميعا مبايعين بيعة النساء ، ولم يختر الرسول منهم أحدا ليتحمل مسـئولية خاصة كما حدث فى بيعة العقبة الثانية ، الا اذا اعتبر الأستاذ خـالد محمدخالد أن جميع المبايعين نقباء ، واذا كان الأمر كذلك فالمفروض أن يكون من بايعوا فى العقبة الثانية جميعا نقباء وهذا ما لم يحدث ، لأن النقيب كما أسلفت قد توخى فيه أن تكون له مواصفات خاصة ، وأن يؤدى مهمة قد تلحـقه برئيس الحى أو المسـئول عن عمل معـين من الأعمال ، ثم هو بعد ذلك متضامن مع النقباء الأحد عشر فى تسيير أمور المدينة حتى يلحق بهم رسول الله ــ صلى اللهعليه وسلم ــ وعنـدئذ تنتهى مهمتهم ، أو يكـونون مستشارين له ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهذا ما تفيده رواية كعب بن مالك ــ رضى الله عنه ، فقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخرجـوا لى منكم اثنى عشر نقيبـا ليكونوا عـلى قومهم ، فأخرجـوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسـعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، ثم يذكر ابن اسحاق أن رسول الله ــ

---

(١) ابن كثير : البداية والنهـاية فى التـاريخ جـ ٣ ص ١٦٠ المصدر السابق .

صلى الله عليه وسلم — قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفلة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى »(١) •

واذا كان الأنصار قد اختاروا من بينهم هؤلاء الرجال الذين وثقوا فيهم ، قدموهم ليكونوا مسئولين أمام رسول الله — ﷺ — عن المدينة، فان ذلك الاختيار كان بتوفيق من الله — سبحانه وتعالى — ، وهذا ما تشير اليه رواية ابن كثير فى قوله « وروى يعقوب بن سفيان عن يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب عن مالك قال « كان الأنصار ليلة العقبة « سبعين رجلا » وكان نقباؤهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وحدثنى شيخ من الأنصار أن جبرائيل كان يشير الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى من يجعله نقيبا ليلة العقبة »(٢) •

ان هذا الشرف الذى توج به عبد الله بن رواحة جدير بأن يجعله يحرص أشد الحرص على تمهيد الطريق أمام الدعوة الاسلامية بل يجعله يتفانى فى خدمة الدعوة قبل الهجرة وبعدها ، بل انه يفوت كل فرصة على أعداء الاسلام من المنافقين ، ويتنبه لكل مكيدة يكيدها هؤلاء ، بل انه كان يعلم ما يدور فى خلد عبد الله بن أبى بن سلول من حقد على الاسلام ، وتحين الفرصة لبلوغ مأربه فى أن يكون ملكا متوجا على يثرب، فكان يتتبعه فى جلساته الخاصة ، ويكون له بالمرصاد «فبعد هجرة الرسول —ﷺ— وأصحابه الى المدينة ، واستقرارهم بها كان عبد الله بن رواحة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ٣ ص ١٧٨ المصدر السابق • ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ المصدر السابق •

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ٣ ص ١٧٨ المصدر السابق •

من أكثر الأنصار عملا لنصرة الدين ، ودعم بنائه وكان من أكثرهم يقظة لمكايد عبد الله بن أبى الذى كان أهل المدينة يتهيأون لتتويجه ملكا عليها قبل أن يهاجر الاسلام اليها ، والذى لم تبارح حلقومه مرارة الفرصة الضائعة ، فمضى يستعمل دهاءه فى الكيد للاسلام .

« بينما مضى عبد الله بن رواحة يتعقب هذا الدهاء ببصيرة منيرة أفسدت على ابن أبى أكثر مناوراته وشلت حركة دهائه »(١) .

لقد قدم رسول الله — ﷺ — المدينة كما يقول ابن اسحاق ، وسيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول العوفى ، ثم أحد بنى الحبلى ، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين ، فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله — ﷺ — وهم على ذلك، فلما انصرف عنه قومه الى الاسلام ضغن ورأى أن رسول الله — ﷺ — قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا الا الاسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن »(٢) .

لقد كان عبد الله بن رواحة — كما أسلفت — يتعقب مكايد المنافقين ، ويفوت عليهم الفرصة ، وكأنه تخصص فى ذلك ، فقد قال ابن اسحاق : « حدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن عروة بن الزبير عن أسامة بن زيد بن حارثة حب رسول الله — ﷺ — قال : ركب رسول الله — ﷺ — الى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار عليه

---

(١) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول — صلى الله عليه وسلم — ص٢٧٨ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : المجلد الأول ص ٥٨٤ .

ـــ اكاف ـــ فوقه خطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف ، وأردفني رسول الله ـــ ﷺ ـــ خلفه قال فمر بعبد الله بن أبي ، وهو في ظل مزاحم أطمه، وحوله رجال من قومه ، فلما رآه رسول الله ـــ ﷺ ـــ تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ، ثم جلس قليلا ، فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر قال : وهو زام ـــ أي ابن سلول ـــ لا يتكلم ، حتى اذا فرغ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من مقالته قال : يا هذا انه لا أحسن من حديثك هذا ان حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه اياه ، ومن لم يأتك فلا تغته به ، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه قال : فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين ـــ بلى فاغشنا به ، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له »(١) •

وعندما ذهب رسول الله ـــ ﷺ الى سعد بن معاذ مغضبا ، وعلم منه جلية الأمر قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك واننا لننظم له الخرز لنتوجه فوالله انه ليرى أن قد سلبته ملكه»(٢) •

فعبد الله بن رواحة ـــ اذن ـــ آلى على نفسه أن يكون داعية للاسلام جنديا من جنوده ، بل على رأس أولئك الذين بايعوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليلة العقبة ، وكأني به يريد أن يؤدي حق تلك البيعة ؛ ألم يبايع رسول الله ـــ ﷺ على أن يمنعه مما يمنع منه نساءه وأبناءه ؟ بل ألم يكن أحد أولئك النقباء الذين اختيروا ليلة العقبة ؟ ولماذا لا يصنع ذلك وقد تعمق الايمان في قلبه ، وسيطر على جوارحه وأحاسيسه ؟

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧ المصدر السابق •

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٥٨٨ ـ المصدر السابق •

ان المتتبع لسيرة عبد الله بن رواحة فى هذا الجانب الايمانى يرى أمرا عجبا ، فقد قال ابن كثير فى فضله «وقد ورد الحديث المرفوع فى ذلك عن عبدالله بن رواحة بنحو ذلك — أى بنحو ما رواه معاذ فى صحيح البخارى ، وقال معاذ اجلس بنا نؤمن ساعة — فقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن عمارة عن زياد النحوى عن أنس قال : « كان عبد الله بن رواحة اذا لقى الرجل من أصحابه يقول : تعال نؤمن بربنا ساعة ، فقال ذات يوم لرجل ، فغضب فجاء ، فقال : يا رسول الله • ألا ترى ابن رواحة يرغب عن ايمانك الى ايمان ساعة ؟ فقال النبى — ﷺ — « رحم الله ابن رواحة انه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة • ثم يقول ابن كثير وهذا حديث غريب جدا(١) •

« وقال البيهقى : حدثنا الحاكم حدثنا أبو بكر حدثنا محمد بن أيوب حدثنا أحمد بن يونس حدثنا شيخ أهل المدينة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن رواحة قال لصاحب له : تعال نؤمن ساعة : قال أو لسنا مؤمنين ؟ قال بلى ، ولكننا نذكر الله فنزداد ايمانا•

وروى عن صفوان بن سليم بن حديث أبى اليمان عن شريح بن عبيد أن عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول : قم نؤمن ساعة فنجلس فى مجلس ذكر »(٢) •

والأخبار الواردة فى تمكن الايمان من قلب عبد الله بن رواحة كثيرة جدا لا يخلو منها كتاب من كتب السيرة النبوية وهذا دليل على شهرة هذا الجانب عنده ، واذا تمكن الايمان من قلب امرىء فانه يحس حلاوة التضحية فى سبيل ما يؤمن به ، وهكذا كان عبد الله بن رواحة ففى

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٨٧ المصدر السابق •
(٢) ابن كثير : السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤٨٨ المصدر السابق •

صحيح البخارى عن أبى الدرداء قال : كنا مع رســول الله ــ ﷺ ــ فى سفر فى حر شديد ، وما فينا صائم الا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعبد الله بن رواحة رضى الله عنه .

ولعل هذا الخبر يطلعنا على مدى قوة الايمان لدى هذا الرجل، فبينما يفطر جميع الصحابة فى هذا اليوم وهم فى سفر ، ولهم فى ذلك ــ رخصة ــ اذا بعبد الله بن رواحة يصــوم هذا اليوم ، ويتحمــل مخاطر الحر الشديد اقتداء برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان اقتداءه برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يفرض عليه أن يلتزم بكل أمر يأمر به ، رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــحتى ولو لم يكن ذلك الأمر عاما ، فقد أخرج البيهقى بسند صحيح من طريق ثابت عن ابن أبى ليــلى كان النبى ــ صلى الله عليــه وسلم ــ يخطب فدخل عبد الله بن رواحة فسمعه يقول : اجلسوا ، فجلس مكانه خارجا من المسجد ، فلما فرغ قال له : زادك الله حرصا على طواعيــة الله ، وطواعية رسوله »(١) .

وهذا دليل أيضا على حبه لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فعبد الله تجتمع فيه خصال قل ان توجد فى غيره من الناس . تجتمع فيه قوة الايمــان ، ورسوخ العقيــدة ، وحسن الاستجابة ، وعمــق التضحية ، والروح الفدائية ، والرغبة فى الاستشهاد »(٢) .

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٦ص٧٨ تحقيق د. طه محمد الزينى . مكتبة الكليات الأزهرية مصر .
والسيرة النبوية لأبن كثير جـ ٣ ص٤٨٧ المصدر السابق .
(٢) الشعر فى موكب الدعوة الاسلامية د. صادق عبد الحليم محمد ص٩٨ مطبعة النهضة العربية ــ الفجالة ــ مصر ١٩٧٩م

ولعلنا تبينا قوة الايمان ، ورسوخ العقيدة وحسن الاستجابة فيما تقدم من أخبار رواها المؤرخون له والمهتمون بالسيرة النبوية ، والذى جعل هذه الجوانب تبرز عند عبد الله بن رواحة حبه الشديد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحرصه على نيل رضاه ، وملازمته له ملازمة تامة ، فلم يكن يفارق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قط لزمه فى جميع غزواته وأسفاره ، وقد عرف رسول — صلى الله عليه وسلم — فيه هذا الجانب فكان يبادله حبا بحب ، وثناء بثناء ، فعندما قال عبد الله بن رواحة قصيدته التى يقول فيها :

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

قال له رسول — صلى الله عليه وسلم — « وأنت فثبتك الله » : « قال هشام بن عروة فثبته الله حتى قتل شهيدا ودخل الجنة » .

أما عمق التضحية فيتجلى من تتبع سيرته القتالية مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حيث انه لم يتخلف عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة غزاها ، ماعدا غزوتى الفتح وتبوك لأنه كان قد استشهد — رضى الله عنه فى مؤتة قبل فتح مكة بقليل ، أما سائر الغزوات فقد كان فيها سباقا الى الجهاد ، حتى ان المؤرخين له يقولون عنه كان أول خارج للغزو ، وآخر قافل منه .

حضر مع رسول — صلى الله عليه وسلم — بدرا ، وكان ثانى اثنين أرسلهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مبشرين بالنصر لأهل المدينة : « بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — زيد بن حارثة » بشيرا الى المدينة يخبرهم بسلامة رسول الله — صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وخبر بدر ، وما أظفر الله به رسوله وغنمه

منهم ، وبعث الى أهل العالية عبد الله بن رواحة بمثل ذلك ، والعالية قباء وحطمة ووائل وبنو أمية بن زيد ، وقريظة والنضير »(١) •

وحضر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحدا وكان له شعر قاله فى شهداء أحد سنعرض له فى موضعه من البحث ولم يحضر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بدرا الموعد ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم — كان قد استخلفه على المدينة،وبدر لموعد غير بدر القتال ، وكانت فى هلال ذى القعدة على رأس خمسة وأربعين شهرا من مهاجره — ﷺ — »(٢) •

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : جـ٢ ص١٩ ط دار صادر بيروت

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى : جـ ٢ ص ٦٠ ط دار صادر — بيروت المصدر السابق • « قالوا لما أراد أبو سفيان بن حرب أن ينصرف من أحد نادى : الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول نلتقى فيها فنقتتل ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعمر بن الخطاب: قل نعم ان شاء الله ، فافترق الناس على ذلك ، ثم رجعت قريش فخبروا من قبلهم بالموعد ، وتهيئوا للخروج ، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج : وقدم نعيم بن مسعود الأشجعى مكة ، فقال له أبو سفيان . انى قد واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى ببدر ، وقد جاء ذلك الوقت . وهذا عام جدب ، وانما يصلحنا عام خصب غيداق ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترىء علينا ، فنجعل لك عشرين فريضة يضمنها لك سهيل بن عمرو على أن تقدم المدينة فتخذل أصحاب محمد • قال : نعم• ففعلوا وحملوه على بعير ، فأسرع السير فقدم المدينة ، فأخبرهم بجمع أبى سفيان وما معه من العدة والسلاح ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لأخرجن وان لم يخرج معى أحد ، فنصر الله المسلمين ، وأذهب عنهم الرعب فاستخلف رسول الله —

=

واستخلاف رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن رواحة دليل قوى على حبه له ، ويقينه من أن هذا الرجل جدير بهذا الشرف ، كما يدل على قدرة ابن رواحة على تدبير شئون المدينة فى غيبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

ويتجلى عمق التضحية وقوة الايمان — أيضا — فى موقف عبد الله ابن رواحة يوم أن خرج مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معتمرا عمرة القضاء ، فتلتهب عاطفة الايمان لديه ، ويأخذ الموقف عليه كل أحاسيسه ، فلا يكتفى بالطواف قريبا من رسول الله — ﷺ — ، أو الى جانبه ، وانما يصر على أن يأخذ بزمام ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القصواء ، بل حرارة الايمان جعلته يهدر برجزه المشهور ، وكأنه فى معركة حربية قائلا :

صلى الله عليه وسلم — على المدينة عبد الله بن رواحة ، وحمل لواءه على بن أبى طالب ، وسار فى المسلمين وهم الف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس »

وخرجوا ببضائع لهم وتجارات ، وكانت بدر الصفراء مجتمعا — يجتمع فيه العرب ، وسوقا تقوم لهلال ذى القعدة الى ثمان تخلو منه ، ثم يتفرق الناس الى بلادهم ، فانتهوا الى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقامت السوق صبيحة الهلال ، فأقاموا بها ثمانية أيام وباعوا ماخرجوا به من التجارة فربحوا للدرهم درهما ، وانصرفوا ، وقد سمع الناس بسيرهم » .

وفى هذه الغزوة يقول الله تعالى « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله »

ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٦٠ دار صادر بيروت .

خلوا بنى الكفـار عن سبيله
خلوا فكل الخـير فى رسـوله
يارب انى مؤمن بقيـله
أعرف حـق الله فى قبـوله
نحن قتلنـاكم على تأويلـه
كمـا قتلناكم على تنـزيله
ضربا يزيل الهـام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله(١)

وعندما اعترض عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابن رواحة قائلا: يا ابن رواحة ايها متعجبا من هـذا الموقف وكأنه يقول له « اننـا فى موقف لا يسـمح بهذا الرجـز قال له رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ : « انى أسمع ، فأسكت عمر » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ايها يا بن رواحة : قال : قل : لا اله الا الله وحده نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده قال فقالها ابن رواحة، فقال الناس كما قال :

وعبـد الله بن رواحـة برجزه هذا يبرز قوة المسـلمين : ليعلم المشركون أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى منعة من أصحابه وأنهم مستعدون لقتالهم متى حانت الفرصة ، ومتى ما دعا داعى الجهاد، فقد روى ابن اسحاق قال : حدثنى من لا أتهم عن عبد الله بن عباس

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ص٢٥٤ ومابعدها ٠ المصدر السابق ٠ ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ٠
ابن سعد الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٢١ ، ١٢٢ المصدر السابق ٠
والرجز موجود أيضا فى طبقات فحول الشـعراء جـ ١ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ المصدر السابق ٠

قال : صفوا له عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، فلما دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسجد اضطبع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » .

أفلا يؤثر ذلك القول فى عاطفة عبد الله بن رواحة وقلبه . فتنطلق شاعريته بقوله السابق ، ان الموقف يفرض عليه ذلك . وخاصة مما تردد من أن المشركين قالوا : انه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب ، من أجل ذلك أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الصحابة أن يكشفوا عن أعضادهم اليمنى ، وأن يهرولوا فى الأشواط الثلاثة الأولى، حتى يعلم قريشا أن المسلمين أقوياء بدينهم أصحاء الأبدان أشداء قال أبو عبد الله ورواه أبو سلمة يعنى حماد بن سلمة . عن أيوب بن سعيد عن ابن عباس قال : لما قدم النبى — صلى الله عليه وسلم — لعامهم الذى استأمن قال « أرملوا ليرى المشركون قوتكم »(١) .

وأما روح الفدائية لدى عبد الله بن رواحة ، فحدث عنها ولا حرج ، لأن الفدائية تعنى بذل النفس والنفيس فى نصرة الاسلام، انها تعنى استعذاب الموت فى سبيل الله — سبحانه وتعالى — ؛ على أية صورة كان ذلك الموت .

لقد كان عبد الله بن رواحة جنديا من جنود الاسلام فدائيا يقتحم الأخطار ، يضع نفسه فى حالة استعداد تام . متى طلب منه الاقدام أقدم ، تحدثنا كتب السير والتاريخ أن عبد الله بن رواحة أرسل على رأس سرية من المسلمين لقتل أحد اليهود الخارجين على

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ٤ ص ٢٥٤ المصدر السابق .

الاسلام المحرضين أعداءه للنيل منه وكان هذا اليهودى يسمى بسير ، أو أسير بن رازم اليهودى •

وقد كانت هذه السرية فى شوال سنة ست من مهاجره — ﷺ — وخبر ذلك انه لما قتل أبو رافع سـلام بن أبى الحقيق أقرت يهـود عليهم أسير بن رازم ، فسـار فى غطفان وغيرهم — يجمعهم لحـرب رسول الله — ﷺ — •

وبلغ ذلك رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — فوجه اليـه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر فى شهر رمضان سرا ، فسأل عن خبره وغرته ، فأخبر بذلك ، فقدم على رسول الله — ﷺ — • فأخـبره ، فندب رسول الله — ﷺ — الناس فانتدب له ثلاثون رجـلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة ، فقدموا على أسير فقالوا : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال : نعم ولى منكم مثـل ذلك ؟ قالوا : نعم « فقالوا : أرسـلنا اليك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليستعملك على خيبر ، فلم يزالوا به حتى تبعهم فى ثلاثين رجلا ، مع كل رجل منهم رديف من المسلمين ، فلما بلغوا قرقرة نيار ، وهى من خيبر على ستة أميال ندم يسير أو أسير ، فأهوى بيده الى سيف عبد الله ابن رواحـة ، ففطن له عبد الله بن رواحة فزجر بعـيره ، ثم اقتحم يسوق بالقوم حتى استمكن من بسير فضرب رجـله فقطعها ، واقتحم بسير وفى يده مخراش من شوحط(١) ، فضرب به وجـه عبد الله بن رواحة فشجه شجة مأمومة ، وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم ولم يصب من المسلمين أحد ،

---

(١) المخراش خشبة يخبط بها الجزاز ، والشـوحط شجر تتخذ منه القسى •

وبصق رسول الله — ﷺ — فى شجة عبد الله بن رواحة فلم تقيح ولم تؤذه حتى مات»(١) •

والمحلل لهذا الخبر يدرك أن عبد الله بن رواحة كان فدائيا عندما ذهب يستطلع اخبار ذلك الرجل فى ثلاثه من الصحابة ، وهى مهمة لا يستطيعها كثير من الناس ، والجيوش الحديثة تختار أكفأ رجالها لمهمة الاستطلاع هذه ، فالحنكة القتالية ، وسرعة التصرف ، ورجاحة العقل كل هذه سمات يتحلى بها رجل الاستطلاع ، ولابد أن يكون الرسول قد لمس هذه الجوانب لدى عبد الله بن رواحة ومن أجل ذلك جاء اختياره •

ثم انه اختير ثانية ليترأس السرية التى ستقوم بمهمة القضاء على هذا الرجل المتحصن ، فالوصول اليه فى غاية الصعوبة ، ولابد أن يستعمل القوم الحيلة ، حتى ينزلوه من حصنه المنيع ، وقد صنعوا ذلك ، فأوهموه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يريد توليته على خيبر ، وستكون له عندئذ الشرعية فى استغلال خير هذه البلاد ، فكانت هذه الحيلة كفيلة لاخراج هذا الرجل ، ولكنه ما أن سار معهم حتى بدأ الشك يداخل قلبه فهم بالغدر بهم ، ولكن عقل الفدائى ، وسرعة بديهته جعلاه يتنبه الى ما يدور فى خلد ذلك الرجل ، وعندما أراد الاستيلاء على سيف عبد الله بن رواحة كانت يد عبد الله أقرب الى سيفه من يد عدوه الأمر الذى جعله يتمكن منه ويضربه ضربة يقد بها ساقه ، وهى قدرة قتالية فائقة •

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٤٧ المصدر السابق •
وابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٩٢ المصدر السابق •

أما حبه للاستشهاد فى سبيل الله فله حديث آخر ان شاء الله .

ان المتتبع لأخبار عبد الله بن رواحة يجدها كثيرة لا يخلو منها كتاب من كتب السير والتراجم،وهذا يدل دلالة قوية على تمكن الايمان من قلب هذا الصحابى الجليل ، ويدل على قربه من رسول الله ـ ﷺ ـ وثقة الرسول المطلقة فى ايمانه ، ولهذا فان رسول الله ـ ﷺ ـ أرسله مقدرا ما على يهود خيبر من نصيب صالحوا عليه رسول الله فيخرج منه الجانب الخاص ببيت المال،أو يعطى لأصحاب الحقوق التى رتبهارسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكان اليهود يتألون من خرصه ، أى تقديره ، ذكر ذلك ابن هشام فى قوله « فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما حدثنى عبد الله بن أبى بكر يبعث الى أهل خيبر عبد الله بن رواحة خارصا بين المسلمين ويهود ، فيخرص عليهم فاذا قالوا : تعديت علينا قال : ان شئتم فلكم ، وان شئتم فلنا ، فتقول يهود بهذا قامت السموات والأرض » .

ثم يقول ابن هشام « وانما خرص عبد الله بن رواحة عاما واحدا ، ثم أصيب بمؤتة يرحمه الله »(١) .

وهناك بعض الروايات تذكر أن عبد الله بن رواحة كان « يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ، ثم يضمنهم الشطر ، فشكوا الى رسول الله ـ ﷺ ـ شدة خرصه ، وأرادوا أن يرشوه ، فقال يا أعداء الله أتطعموننى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس الى ، وانكم لأبغض الى من عدتكم من القرود والخنازير ، ولن يحملنى بغضى لكم ، وحبى لرسول الله على أن لا أعدل عليكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض»(٢) .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ ص ٣٥٩ المصدر السابق ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص٥٢٦ المصدر السابق .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

فعبد الله بن رواحة يحب رسول الله — ﷺ — ولكن لا يدفعه حبه له أن لا يقيم العدل ، لأنه تعلم ذلك من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتعلم منه أيضا — أن كل جسد نبتمن سحت فالنار أولى به، فهل يبيع دينه بدنياه ؟ وهل يقبل رشوة من هـؤلاء اليهود نظـير أن يحط عنهم ؟ انها خيانة عظمى ، ولو علم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دخلا فى دين عبد الله لما أرسله لهذه المهمة الشاقة ، لأنهـا تحتاج الى خبرة وأمانة ، وكلتاهما متوفرة لدى عبد الله .

وتحدثنا المصادر — أيضا — أن عبد الله بن رواحة كان غيـورا على دينه ، يبذل كل ما يستطيع فى سـبيله ، لا تأخذه فى ذلك لـومة لائم ، فقد ذكر ابن سعد فى طبقاته عند حديثه عن أبى الدرداء قال : « وكان أبو الدرداء آخر أهل داره اسلاما ، فجاء عبد الله بن رواحة ، وكان أخا له فى الجاهلية والاسلام ، فأخذ قدوما فجعل يضرب صـنم أبى الدرداء وهو يقول :

تبرأ من اسماء الشياطين كلها ألا كل ما يدعى مع الله باطل

وجاء أبو الدرداء فأخبرته امرأته بما صنع عبد الله بن رواحـة ففكر فى نفسه فقال : لو كان عند هذا خير لدفع عن نفسه ، فانطـلق حتى أتى رسول الله — ﷺ — ومعه عبد الله بن رواحة فأسلم »(١).

وهذا الجانب من عبد الله بن رواحة جانب مشرق ، فقـد كان الداعية الذى لا يمل ، فلم يعرف عنه — بعد أن اعتنق الاسـلام أن حدثته نفسه بريبة ، أو توانى فى سبيل الدعوة لحظة .

ويبدو من سيرة عبد الله بن رواحة أنه كان يخشى الآخرة،ويخاف

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٩١ المصدر السابق .

الله — سبحانه وتعالى — ورجل هذا شأنه لابد أن يعمل من أجل لقاء الله — سبحانه وتعالى — حتى اذا ما حدث ذلك لقى الله بقلب عامر بالايمان ملىء بذكره مفعم بحبه لربه ، والذى يظهر لنا عمق هذا الجانب عنده ما روى عنه عندما أغمى عليه يوما يقول ابن سعد « أخبرنا محمد بن الفضيل بن غزوان الضبى عن حصين عن عامر عن النعمان بن بشير قال : أغمى على عبد الله بن رواحة ، فجعلت أخته تبكى عليه وتقول واجبلاه واكذا تعدد عليه ، فقال ابن رواحة حين أفاق : ما قلت شيئا الا وقد قيل لى أنت كذا .

وقد ورد هذا الخبر من طريق آخر أيضا ، فقد أغمى على عبد الله بن رواحة « فأتاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال اللهم ان كان قد حضر أجله فيسر عليه ، وان لم يكن قد حضر أجله فاشفه فوجد خفة فقال : يا رسول أمى تقول : واجبلاه ، واظهراه ،، وملك قد رفع مرزبة من حديد يقول : أنت كذا ؟ فلو قلت نعم لقمعنى بها »(١) .

ولعل ذلك جاء من خوف ابن رواحة من عذاب الآخرة ، حتى قيل انه عندما نزل قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ، حزن عبد الله حزنا شديدا ، وتصور أن هذه الآيات نزلت فيه وفى أمثاله من المؤمنين ، ولم يخرجه من حزنه هذا ، ولم يعد الثقة الى قلبه الا نزول قوله تعالى « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (الآيات من ٢٢٤ الى ٢٢٧ من سورة الشعراء) .

ان شفافية الايمان وحلاوته تجعلان صاحبهما يتحسس طريقه ،

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٥٢٩ المصدر السابق

ويحذر الهفوات التى قد تكون سببا فى بعده عن ربه ، أو الأمور التى من شأنها أن تكدر تلك الشفافية ، أو تعكر ذلك الصفاء .

لقد كان عبد الله بن رواحة مضرب المثل فى ذلك ، وعلى الرغم من انه لم يكن له ولد الا أن أمارات الايمان ودلائل التسليم كانت لائحة عليه ، ولعل هذه الخلال مجتمعة كانت سببا فى حب المسلمين لعبد الله بن رواحة ، فقد روى عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال لى عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — هل تدرى لم سميت ابنى سالما ؟ قال قلت : لا قال : باسم مولى أبى حذيفة . قال فهل تدرى لم سميت ابنى واقدا ؟ قال : قلت : لا قال : باسم واقد بن عبد الله اليربوعى ، قال : هل تدرى لم سميت ابنى عبدالله ؟ قال : قلت : لا قال : باسم عبد الله بن رواحة »(١) .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٤ ص١٥٩ المصدر السابق .

الفصل الثاني

ثالث الأمراء

اذا كنا وقفنا على جانب من تلك الجوانب المشرقة — متمثلا فى حياة عبد الله بن رواحة الايمانية فاننا نقف فى هذا الفصل على ملامح من شخصية عبد الله القتالية ، واذا كنا قد تناولنا موقف عبد الله من الدعوة الاسلامية ، وجهاده الدؤوب من أجل رفعتها ، وتمكين مبادئها فى قلوب العرب فى المدينة وما جاورها فها نحن فى هذا الفصل نرصد جهاد عبد الله خارج يثرب ، بل قل : خارج تلك المناطق التى حفت بالصراع سنين عددا ، فقد كانت مناطق ذلك الصراع حتى ذلك الوقت تتمثل فى مكة والمدينة وما يجاورهما من أحياء ، أو ما يحيط بهما من منازل ، وما يكتنفهما من قبائل •

واذا كان المسلمون قد أخذوا بزمام المبادأة بعد غزوة الخندق مصداقا لقول رسول الله — ﷺ — « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، ونحن نسير اليهم • فانهم نقلوا الحرب — اذن — الى خارج المدينة ، وان بقيت مكة فى أيدى المشركين يكيدون للمسلمين ، ويجمعون جموعهم لحربهم لكن « هذا الصراع المسلح بين النبى — ﷺ — وقريش أدى الى نتائج هامة ، فلقد ضعفت جبهة مكة ضعفا ظاهرا بعد أن استنفدت كل امكاناتها الحربية والسياسية ، وأصبحت تجارتها فى حكم المتوقفة فلحقتها لذلك أضرار مادية جسيمة كما أن القبائل العربية بدأت تراجع موقفها بالنسبة لاستمرار تحالفها مع قريش،أو التقرب للقوة الجديدة التى ظهرت فى يثرب ، والتى استطاعت حتى الآن أن تصمد لخصومها ، وأن توقع بهم الهزائم وتحول الموقف الى جانبها »(١) •

---

(١) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول - صلى الله عليه وسلم • ص ٤٥٨ المرجع السابق •

وإذا كانت مكة لم يحن وقتها الآن فليؤمن المسلمون مدينتهم من الشمال ، حتى يأمنوا — أولا — خطر أولئك اليهود الذين أجلوهم عن المدينة ، فتحولوا الى مدينة قريبة منها لا تبعد الا مســيرة ثلاثة أيام أن مدينة خيبر قد استقطبت طوائف اليهود الذين أجلوا عن المدينة ، وكونت منهم قوة عسكرية يمكن أن تقض مضجع المسلمين فى أى وقت فاذا كان الرسول — ﷺ — قد أمن قريشا بعد صلح الحديبية فانه « لم يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هرقل ، أو أن يستعين كسرى بيهود خيبر ، وأن يحرك فى نفوسهم ثاراتهم القديمة ، وأن يذكرهم اخوانهم فى الدين بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع وقد أجلاهم — محمد — ﷺ — عن ديارهم بعد أن حصرهم بها ، وقاتلهم فيها وقتل منهم وســفك دماءهم ، واليهــود أشد من قريش عــداوة له ، لأنهم أحرص منهم على دينهم ، ولأن فيهم ذكاء وعلما أكثر مما فى قريش، وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن لهم ، وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا فى احداها فما أجدرهم أن ينتصروا اذا هم وجدوا من ناحية هرقــل مددا ، لابد اذن من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا حتى لا تقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمــة أبدا ، ولابد من المســارعة الى ذلك ، حتى لايكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد — ﷺ والموالية لها »(١) .

وعندما عاد رسول الله — ﷺ — من مكة بعد صلح الحــديبية لم يقم بالمدينة طويلا ، فقد أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم(٢) ،

---

(١) محمد حسين هيكل : حيــاة محمد — صلى الله عليه وســلم — ص ٣٨٦ المرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ المجلد الثانى ص٢١٦ المصدر السابق .

وفى رواية ابن كثير .. وقال موسى بن عقبة : لما رجع رسول الله — ﷺ — من الحديبية مكث عشرين يوما ، أو قريبا من ذلك ، ثم خرج الى خيبر . وهى التى وعده الله اياها »(١) .

ولعلرواية ابن الأثير أقوى : « لأن محمد ابن اسحاق يقول — أيضا « ثم أقام رسول الله — ﷺ — بالمدينة ، حين رجع من الحديبية — ذا الحجة وبعض المحرم »(٢) ولأن المسير الى خيبر كان فى السنة السابعة ، وصلح الحديبية كان فى السنة السادسة .

وأيا ما كان الأمر فان رسول — ﷺ — فاجأ اليهود فى خيبر بجيشه وقوته ، حتى لا يفكروا فى الاستعانة بحلفائهم ، أو بقوة خارجية ، فيتمكن من القضاء على هذه القوة المناوئة له ، وبذلك تفتح له الطريق للخروج من المدينة المنورة الى سائر البلاد الأخرى ، بعد أن أمن مشركى مكة ، وعقد معهم صلحا ، فلم يكن خيبر — اذا — مقصودا لذاته ، وانما كان مرحلة من المراحل المخطط لها تخطيطا الهيا ، لأن خيبر — لو أنها بقيت فى أيدى اليهود ، أو كان سلطان اليهود فيها قويا فان أمر الدعوة الى البلاد الأخرى سيتعثر ، فقد يقف اليهود حجر عثرة أمام انطلاقة الرسل الى الملوك والأمراء ، أو يناوئون الاسلام من خلال اقامتهم فى هذه الحصون القريبة من المدينة ، وقد يستعينون على ذلك

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ جـ ٤ ص ٢٠٤ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٣٢٨ المصدر السابق .

ببعض القبائل اليهودية ، وقد يتصلون بتلك القوة الخارجية التى تتربص بالاسلام الدوائر .

وعندما استقر للرسول — ﷺ — أمر خيبر ، وأمن طريق الرسل الى الملوك والأمراء « لم يتردد فى دعوة هؤلاء الملوك جميعا الى دين الحق ، بل خرج يوما على أصحابه فقال : « أيها الناس ان الله قدبعثنى رحمة للناس كافة ، فلا تختلفوا عنى كما اختلفت الحواريون على عيسى ابن مريم ، قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » قال : « دعاهم الى الذى دعوتكم اليه » فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل ، ثم ذكر لهم أنه مرسل الى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغسانى ملك الحيرة والحارث الحميرى ملك اليمن ، والى نجاشى الحبشة يدعوهم الى الاسلام — وأجابه أصحابه الى ما أراد ، فصنع خاتما من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلا أمام القارىء كتابه الى هرقل اذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين : « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» ودفع بكتاب هرقل الى دحية بن خليفة الكلبى ، وبكتاب كسرى الى عبد الله بن حذافة السهمى ، وبكتاب النجاشى الى عمر بن أمية الضمرى ، وبكتاب المقوقس الى حاطب بن أبى بلتعة ، وبكتاب ملكى عمان الى عمرو بن العاص السهمى ، وبكتاب ملكى اليمامة الى سليط ابن عمرو ، وبكتاب ملك البحرين الى العلاء بن الحضرمى ، وبكتاب الحارث الغسانى ملك تخوم الشام الى شجاع بن وهب الأسدى

وبكتاب الحارث الحميرى ملك اليمن الى المهاجر بن أميــة المخزومى وانطلق هؤلاء جميعا كل الى حيث أرسله النبى(١) ﷺ .

وهكذا بدأت الدعوة الاسلامية تأخذ طريقها الى البلاد المتاخمة للجزيرة العربية ، وقد استطاع الرسول — ﷺ — بعد غزوة خيبر ، واخضاع يهود وادى القرى وتيماء أن يمد نفوذه نحو الشمال ، وكان يرى أن هذه الجهة المتاخمة لحدود دولته هى المنفذ الطبيعى لانتشـــار الدعوة الاســـلامية اذا أريد خروجها عن حـــدود الجزيرة العربيــة ، فالارتباط بين هذه الجهة والجزيرة العربية ارتباط طبعى وقديم ، وبها من العرب ما يقتضى ضمهم الى الدولة العربية ، وادخالهم فى نظامها ، والغساسنة أمراء العرب ، وان كانوا قد قاتلوا فى صفوف الروم ، وان كانوا قد خضعوا لهم ، ولقد أظهر الحارث الغسانى من الحماس ما لم يظهره هرقل نفسه حين أرسل النبى كتابه اليه ، وقتل شرحبيل بن عمرو حاكم البلقاء رسول النبى الذى أرسله الى بصرى ، فقد بعث رســـول الله — ﷺ — الحارث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب الى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله ، ولم يقتل لرسول الله — ﷺ — رسول غيره(٢) .

ويختلف الرواة فى سبب هذه الغزوة — كما يقول : محمد حسين هيكل « فيذهب بعضهم الى أن قتل أصحابه فى ذات الطلح كان سبب الغزو لتأديب الغادرين ، ويذهب آخرون الى أن النبى — ﷺ — أرسل رسولا من رسله الى عامل هرقل على بصرى ، وأن اعرابيا من غسان

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد — صلى الله عليه وســـلم — ص ٣٨٣ — ٣٨٤ المرجع السابق .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٨ المصدر السابق .

قتل هذا الرسول باسم هرقل ، فبعث محمد — ﷺ — بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره(١) .

وأيا ما كان الأمر فان رسول الله — ﷺ — أراد أن يؤدب من غدر بدعاته ، وفى الوقت نفسه يشعر العرب فى هـذه البلاد بقوة المسلمين قوة تحفزهم الى الانضمام اليهم بدافع العـروبة ، ألم يؤازر هؤلاء العرب اخوانهم من أهل يثرب قبل الاسلام ، فلم لا يصنعون ذلك الآن؟ ان أهل المدينة مازالوا ينتظرون من بنى عمومتهم الغساسنة أن يمدوا اليهم يد العون ، حتى يمكنوا لأنفسهم ولدينهم فى يثرب ، ولعلنا لا نرى فى ذلك عجبا اذا علمنا أن أهل يثرب تربطهم بالغساسنة روابـط الدم والمصير ، فقد نزحوا جميعا من اليمن بعد انهيار سد مأرب ، لكن الأوس والخزرج يمموا وجوههم صـوب الحجاز واستقر بهم المقام فى يثرب التى وجدوا فيها روح اليمن وطبيعته أما الغساسنة فقد يمموا وجوههم صوب الشام التى وجدوا فيها الخصب والنماء ، لكن التاريخ يحدثنا أن أبناء العم لم تتقطع الصـلة بينهم ، بل كان التزاور قائما بينهم ، والمودة تجمع بين أهل الشام من الغساسنة وأهـل يثرب من الأوس والخزرج .

لقد أفرد حسان بن ثابت جانبا كبيرا من شعره فى مدح الغساسنة أولئك الذين كانوا يحتفون به ويقدرونه ، ويجزاون له العطاء ، فمدحهم حسان بروائع قصائده التى قيلت قبل الاسلام .

أما كعب بن مالك فقد بدأ قصيدته التى قيلت بعد غزوة أحد بطلب العون من بنى عمومتهم الغساسنة ، فهو يقول :

---

(١) محمد حسين هيكل : حيـاة محمد — صلى الله عليه وسلم — ص ٤٠٥ المرجع السابق .

ألا هــل أتى غسان عنا ودونهم	من الأرض خرق سيره متنعنع(١)
صــحار وأعــلام كأن قتــامها	من البعــد نقع هامد متقطع(٢)
تظل به البزل العراميس رزحــا	ويخلو به غيث السنين فيمرع(٣)
به جيف الحسرى يلوح صليبها	كما لاح كتان التجار الموضع(٤)
به العين والآرام يمشين خلفة	وبيض نعــام قيضــه يتقلع(٥)
مجالدنا عن ديننــا كل فخمــة	مذربة فيها القــوانس تلمع(٦)

فكعب بن مالك الأنصارى يبدأ قصيدته فى وصف ما حل بهم فى أحد بالحديث الى الغساسنة يبلغهم نبأ مصابهم فى أحد ، ان بعد الشقة بين أبناء العم يجعلهم لا يخفــون لنصرتهم ، ولا يهرعون لمعونتهم ،

---

(١) غســان بنو عم الأوس والخزرج . الخرق : الفلاة الواســعة التى تنخرق فيها الرماح ـ متنعنع : مضطرب .

(٢) الأعلام : الجبال المرتفعة ـ القتام : ما مال لونه الى السواد ـ النقع : الغبار ـ الهامد : المتلبد .

(٣) البزل : الابل القوية واحدها بازل ـ العراميس : الشديدة ، الرزح : المعيية ، يمرع : يخصب .

(٤) الحسرى : المعيــاة ، الصليب : الورك ، الموضــع بتشديد الضاد : المبسوط المنفرش .

(٥) العين : بقر الوحش ، الآرام : الظباء : البيض البطون السمر الظهور ، خلفة : يمشين جمــاعة عكس جمــاعة أخرى ، القيض : قشر البيض الأعلى ، يتقلع : يتشقق

(٦) مجالدنا : دفاعنا ، كل فخمة : كتيبة عظيمة ، القوانس : جمع قونس ، بيض السلاح أو رؤوس بعض السلاح .

انظر ابن هشام السيرة النبوية ق٢ ص ١٣١ وانظــر للمؤلف : كعب بن مالك الأنصارى حياته وشعره ص ١٠٦ ومابعدها .

فالصحارى والجبـال التى تقطعـها الجمال فى مدد طويلة تجعلهم لا يعرفون أخبارهم ، ولا يتبينون ما هم فيه من أسى وحزن •

ولكن الأمر الذى يدعو الى العجب أن يكون الغساسنة أقسى عليهم من غيرهم فما ان بلغهم أمر انتشار الدعوة الاسلامية ، وانطلاقها من المدينة المنورة ، حتى استشاطوا غضبا ، وحاولوا الوقوف أمام المـد الاسلامى فان لم يستطيعوا ايقافه فى الجهات الأخرى فعليهم أن يمنعوا وصـول الدعوة الاسـلامية الى أسماع الذين يلونهم ، وخاصـة الامبراطورية البيزنطية التى يقفون على أبوابها يحرسونها ، ويدفعون عنها كل تطلع عربى ، أو مد اسلامى ، فهل دفعهم الى ذلك حب التفوق والغلبة على العـرب جميعا ؟ أو ثارت فيهم ثائرة التنافس فـرأوا أن اخوانهم الذين هاجروا معهم من اليمن سيظهرون عليهم بهذا الدين الجـديد ؟ •

فها هم اخوانهم الأوس والخزرج قد ملأ ذكرهم — بالاسلام — الجزيرة العربية كلها ، بل هاهم — الآن تنطلق الرسـل من مدينتهم ، تحذر العالم كله مغبة النكوص عن دين الله ، وعـدم التسـليم لهم بالطاعة والولاء ، انه لأمر خطير ، من أجل ذلك ، أو قريبا من ذلك تصرف الغساسنة تصرفا أحمق ، فقتلوا رسول رسول الله — ﷺ — الذى أرسله الى بصرى — قتله شرحبيل بن عمرو الغسـانى حاكم البلقاء ، وهذا أمر لم يألفه العرب ، فلم يعتد العرب أن يقتلوا رسولا ، ولم يجر العرف بذلك ، بل ان هرقل امبراطور الروم لم يسمح لنفسه القيام بهذا الجرم الذى قام به الغساسنة ، بل ان رسل رسول الله — ﷺ — لم يقتل منهم أحد على الرغم من كثرتهم الا هذا الرسول •

من أجل ذلك أعلن النفير العام فى المدينة « انفروا خفافا وثقالا ،

وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سـبيل الله » (الآية ٤١ من سـورة التوبة) •

ولأن الايمان ملأ قلوب أصحاب رسول الله — ﷺ — ، ولأن حب التضحية فى سبيل الله سيطر على هؤلاء الرجال فانهم لم يتوانوا لحظة فى سبيل اجابة الداعى اذا دعاهم ، فتجمع من المسلمين جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل كلهم يستعذب الموت فى سبيل اعلاء كلمة الله •

نظر رسول الله — ﷺ — فى صفوف الجند فرأى فيهم حبه زيد ابن حارثة ، وابن عمه جعفر بن أبى طالب ونقيبه على المدينة يوم بيعة العقبة عبد الله بن رواحة ، فقال ﷺ : « ان أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس(١)•

قال الواقدى : حدثنى ربيعة بن عثمان عن عمرو بن الحكم عن أبيه قال : جاء النعمان بن فنحص اليهودى ، فوقف على رسول الله — ﷺ — : مع الناس فقال رسول الله — ﷺ — : « زيد بن حارثة أمير الناس فان قتل فجعفر بن أبى طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة ، فان قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون رجلا ، فليجعلوه عليهم ، فقـال النعمان ، أباالقاسم : ان كنت نبيا فلو سميت من سميت قليلا أو كثيرا أصيبوا جميعا ان الأنبياء فى بنى اسرائيل اذا سموا الرجل على القوم فقالوا : ان أصيب فلان ففلان ، فلو سموا مائة أصيبوا جميعا ، ثم جعل يقول لزيد اعهد فانك لا ترجع أبدا ان كان محمـد نبيـا ، فقال زيد : أشهد أنه نبى صادق بار(٢) •

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٣ المصدر السابق •
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٤ص٢٦٨ — ٢٦٩ المصدر السابق

وحانت ساعة الخروج ، وبدأ الزحف الايمانى ينطلق الى هدفه الذى رسمه رسول الله — ﷺ — ، فقد أوصاهم رسول الله — ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعوا من هناك الى الاسلام ، فان أجابوا ، والا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم » ، وسار معهم رسـول الله — ﷺ — حتى خرجوا من المدينة وهو يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، وألا يهـدموا المنازل ، وألا يقطعوا الأشجار ، فلما ساروا من معسكرهم دعا لهم رسـول الله — ﷺ ، ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم الينا سالمين »(١) .

« وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون فى أخذ القوم من أهل الشام على غرة منهم على عادة النبى — ﷺ ، فى سابق غزواته ، فيسرع اليهم النصر ، ويعودوا بالغنيمة ، ولكن أنبـاء مسيرتهم قد سبقتهم فقـام شرحبيل عامل هرقل على الشام فجمع جموع القبائل « فجمع أكثر من مائة ألف ، وقدم الطلائع أمامه ، وقد نزل المسلمون مكان معان من أرض الشام ، وبلغ المسلمين أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجـذام ، فأقاموا ليلتين لينظروا فى أمرهم ، وقالوا نكتب الى رسـول الله — ﷺ ، فنخـبره الخـبر ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضى ، فمضوا الى مؤتة ، ووافاهم المشركون ، فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدو والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب »(٢) .

وجميع كتب السير والتاريخ تقع قريبا من رواية ابن سعد فى عدد

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص١٢٨ المصدر السابق .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص١٢٩ المصدر السابق

الجيش غير أن أحد الباحثين المحدثين(١) يشكك فى رواية هؤلاء المؤرخين قائلا : « وتذهب بعض الروايات الى أنه تقدم ــ أى هرقل بقواته التى يبلغ عددها مائة ألف من الروم حتى نزل مآب من أرض البلقــــاء ، ليكون قريبا من جيوش أمرائه ليمدها بالمعونة اذا لزم الأمر ، وتقــدر المصادر العربية قــوة الجيوش التى اشتبكت مع المسلمين بمائة ألف ، وهذا رقم كبير لا يمكن الموافقةعليه وكل ما يمكن تصوره أن قوة العدو كانت أكبر من قوة المســلمين ، أو أنها كانت أضعافها ، فان الحمــلة الاسلامية كانت مكونة من ثلاثة آلاف ، وأن أنباء مسيرتها كانت معروفة فلا يمكن أن يوجه اليها الروم مثل هذا الحشد الحاشد من الجيوش ، على أن الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة فى قتالها مع الفرس ، وهم أقوى من العرب والصراع معهم كان صراعا كبيرا وخطيرا ، ولم يستخدم الروم هذه الأعداد الا فيما بعــد عندما اشتبكوا مع الدولة الاسلامية اشتباكا حقيقيا خطيرا ، ثم ان قتلى المسلمين كان قليلا مما يظهر عدم كبر قوة العدو •

ثم يقول الباحث « ما من شك فى أن قوة العدو كانت ضــخمة ، وكانت أضخم كثيرا من قوة الجيش الاسلامى ، وان لم تبلغ العدد الذى ذكره الاخباريون ، وكان التكافؤ منعدما بين القوتين من حيث العدد ، ومن حيث عدة الحرب ، ومع ذلك فقد أبدى المسلمون من الشجاعة وقوة الايمان ما أذهل العدو نفســه ، وحــال بينه وبين الالتفاف بالمسلمين وسحقهم ، والا فأين الآلاف الثلاثة من الجند من الخمســين ألفا ، أو الستين ، أو حتى العشرين »(٢) •

---

(١) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجــاهلية وعهــد الرسول ص ٥١٢ المرجع السابق •

(٢) مكة والمدينة فى الجاهلية وبعد الاسلام ص ٥١٣ المرجع السابق

وهذا الكلام يحتاج منا الى وقفة نفند فيها ما جاء من تشكيك في ذلك العدد الذى ذكره المؤرخون المسلمون فقد بنى الباحث شكه على أمر متوهم هو أن الروم كانوا يعلمون مسير الحملة الاسلامية ، ومعنى ذلك فى رأيه أنهم يعلمون عدد جنودها ، وأن الأعداد الضخمة لم تسيرها بيزنطة فى حربها مع الفرس ، وأن عدد القتلى من المسلمين كان قليلا مما يظهر معه عدم كبر قوة العدو •

هذه الافتراضات الثلاثة التى افترضها الكاتب لا تستقيم دليلا على قلة العدو ، فان الأعداء وان كانت ترامت الى مسامعهم أنباء هذه الحملة الا أن عددها بالتحديد لم يصل اليهم مما جعل قادة هذه الحملة يفكرون فى أخذ العدو على حين غرة ، فلو علم المسلمون أن العدو يعرف عنهم كل شىء لما فكروا فى ذلك ، ولوضعوا فى حسبانهم ما يبيته العدو لهم ، كما أن حالة الذعر التى انتابت العرب المتاخمين لحدود الجزيرة من الشمال جعلتهم يبالغون فى تقدير قوة المسلمين ، ألم يلتق المسلمون بأهل مكة مرارا ، ومازالت الحرب سجالا بينهم ؟ ألم يفرض الاسلام على أهل مكة قبول صلح الحديبية ، وهذا وحده كفيل بتسامع القاصى والدانى بقوة المسلمين ؟ ألم يجل المسلمون اليهود من المدينة ، أو يقتلوهم شر قتلة ولم يستطع اليهود أن ينالوا من المسلمين شيئا ؟ ألم يخرج المسلمون الى خيبر ويفتتحوها ويفرضوا شروطهم على أهلها بعد قتل المناوئين منهم ؟ كل ذلك ألا يستقيم دليلا على خوف العرب من قوة المسلمين ، ورصد الأعداد الهائلة لقتالهم ؟ •

ثم ان حرب الروم مع الفرس لم يرصد أحد عدد المشاركين فيها ، حتى نعلم أهى كثيرة أم قليلة ، لأن هذه الحرب تسامع العرب بها ، ولم يكن لهم اشتراك فعلى فيها ، بل ان القرآن الكريم عندما أشار الى تلك المعارك لم يعطنا تفصيلا عنها ، فقد جاء الحديث عنها فى قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم • ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم•وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون • (الآيات من ١ — ٦ من سورة الروم) •

والمؤرخون الذين رصدوا نتائجها لم يرصدوا أعداد الجند المشاركين فيها ، وعندما وقف البحترى على ايوان كسرى يتحدث عن معركة انطاكيه التى كانت بين الروم والفرس ، والتى انتصر فيها الفرس ورسموها على جدران الايوان كان حديثه يوحى بهول المعركة وكثرة المشاركين فيها فهو يقول :

واذا ما رأيت صورة أنطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشروان يزجى الصفوف تحت الدرفس (١)

وأما أن عدد القتلى من المسلمين كان قليلا فلعل الكاتب فهمه من حصر ابن اسحاق لمن استشهد فى هذه الغزوة فالقارىء لابن اسحاق يجد أنه لم يذكر الا عددا قليلا من أسماء من استشهد فى هذه المعركة ، فهل يتصور الكاتب أن ابن اسحاق سيرصد كل من استشهد من هذا العدد الهائل ؟ انه لم يقدم لنا الا نماذج قليلة لمن استشهدوا ، ولعل ذلك راجع الى كثرة الشهداء وعدم امكانية حصرهم ، فاذا كان الشهداء يوم أحد سبعين شهيدا على الرغم من قلة عدد المشركين ، فقدكانوا فيما يروى ثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس(٢) ، أفلا يكون عدد القتلى ضعفا

---

(١) ديوان البحترى •

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ج ٤ ص ١٧ المصدر السابق •

لهذا العدد فى يوم مؤتة ؟ ولذلك فان ابن كثير يستعظم ذلك حين يقول : « ان مجموع القتلى الذين ذكرهم ابن اسحاق اثنا عشر رجلا • » وهذا غظيم جدا أن يتقاتل جيشان متعاديان فى الدين أحدهما وهو الفئة التى تقاتل فى سبيل الله — عدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف ، ومن نصارى العرب مائة ألف يتبارزون ويتصاولون ، ثم مع هذا لا يقتل من المسلمين الا اثنا عشر رجلا ، وقد قتل من المشركين خلق كثير ؟ »(١) •

اننا لا نتعجب — اذن — من كثرة العدد الذى جمعه الروم ، ولا نتعجب — اذن — من صمود قوة المسلمين أمام هذاالحشد الكبير ، لأن الله — سبحانه وتعالى — أخبرنا بقوله تعالى : « يأيها النبى حــرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صــابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفــا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهــون » (الآية ٦٥ من سورة الأنفال)•

لقد عــلم المسلمون بجموع الروم ، وأن عددهم لا قبل لهم به ، ولكن ماذا يصنعون وقد تقدموا للقاء عدوهم ؟ أيعودون الى المدينة مرة أخرى ؟ وماذا سيقول لهم رســول الله والمسلمون ؟ انهم لم يخرجوا مقاتلين فى سبيل مجد أو سلطان وانما خرجوا لاعــلاء راية الايمان ، فليكن الايمان رائدهم ، وحب الشهادة هدفهم ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم • ان قوة الايمان ، وتمكنه من قلب المؤمن يجعله يواجه أعتى الجيوش ، ويقاتل جبابرة الرجال ، واذ اكان عدوهم يدرع بدروعه ويحتمى بســلاحه فانهم يدرعون بدروع أشــد وأنكى ، ويتســلحون

---

(١) ابن كثير : البداية والنهــاية فى التــاريخ جـ ٤ ص ٢٨٩ المصدر السابق •

بأسلحة الهيبة ، ودروع ايمانية ، « بالجلال الايمان ، وروعة قوته ، حمل زيد بن حارثة راية النبى — ﷺ — واندفع بها فى صدور العدو ، وهو موقن أن ليس من موته مفر، لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله ، وليس الاستشهاد دون النصر أو الظفر ، وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو فتناول الراية من يده جعفر بن أبى طالب وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شاب تعدل وسامته شجاعته ، وقاتل جعفر بالراية حتى اذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها ، فعقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سيفه برؤوسهم حيثما وقع ، وكان اللواء بيمين جعفر ، فقطعت فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، يقال ان رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين ، فلما قتل جعفر أخذ الراية ابن رواحة ، ثم تقدم وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ، ثم يقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنه   لتنزلن أو لتكرهنه
ان أجلب الناس وشدوا الرنة   مالى أراك تكرهين الجنة

ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل(١) .

ولعل خير ما ينبغى اثباته هنا هو تلك اللمحة التى لمحها محمد حسين هيكل عند حديثه عن الاستشهاد فى سبيل الله والوطن فهو يقول: « أترى الى هذه العبرة والموعظة الحسنة ! فانما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد ، أو يخاف الموت فى سبيل الله ، بل يجب عليه كلما مضى فى أمر يؤمن بأنه لله والوطن أن يحمل حياته على كفه وأن يلقى

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — ص ٤٠٦ المرجع السابق .

بها فى وجه من يقف فى سـبيله،فاما فاز وظفر فيبالغ ما يؤمن به من حق الله والوطن،واما استشهد فكان المثل الحى لمن بعده،والذكر الباقى لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يضحى بالحياة فى سبيله ، وأن الامساك على الحياة فى مذلة اهدار للحياة ، فما يستحق صاحبها بعـد ذلك فى الحياة ذكرا ، وأن الرجل يلقى بيديه الى التهلكة اذا هو عرض حياته تذهب معه ضحية غرض وضيع ، وأنه كذلك يلقى بيديه الى التهلكة اذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعى الحق — جل شأنه — ليقذف بها وجه الباطل ليسحقه ، فيواريها هو بالحجاب ، ويخاف عليها الموت خوفا هو شر من الموت ، واذا كان التردد القليل من ابن رواحة مع اقـدامه بعد ذلك واستشهاده قد جعله فى غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاما ، وطارا للاستشهاد فرحا فما بالك بالذى ينكص على عقبيه طمعا فى جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة ! انها اذن للحسرة الحقيرة وان عرض عن السواد جاهه،وان بز مال قارون ماله وهل لنفس انسانية أن تغتبط حقا لشىء اغتباطها للتضحية فى جانب ما تؤمن بأنه الحق حتى تنتهى من ذلك الى الاستشهاد فى سبيل الله ، أو الى تمليك لحق الحياة(١) .

ولنترك أحد المشاهدين للموقعة يحدثنا عن أحداثها ،روى صاحب الطبقات الكبرى قال : أخبرنا بكر بن عبدالرحمن قاضى الكوفة أخبرنا عيسى بن المختار عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سالم بن أبى الجعد عن أبى اليسر عن أبى عامر قال : بعثنى رسول الله — ﷺ — الى الشام ، — فلما رجعت مررت على أصحابى وهم يقاتلون المشركين بمؤتة ، قلت والله لا أبرح اليوم ، حتى أنظر الى ما يصير اليه أمرهم ،

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد — صلى الله عليه وسـلم — ص ٤٠٧ — ٤٠٨ المرجع السابق .

فأخذ اللواء جعفر بن أبى طالب ، ولبس السلاح ، وقال غيره أخذ زيد اللواء ، وكان رأس القوم ، ثم حمل جعفر حتى اذا هم أن يخالط العدو رجع فوحش بالسلاح ، ثم حمل على العدو ، وطاعن حتى قتل ، ثم أخذ اللواء زيد بن حارثة وطاعن حتى قتل ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وطاعن حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ، ثم سعى به حتى اذا كان أمام الناس ركزه ، ثم قال : الى أيها الناس ! فاجتمع اليه الناس حتى اذا كثروا مشى باللواء الى خالد بن الوليد قال له خالد : لا آخذه منك أنت أحق به ، فقال الأنصارى : والله ما أخذته الا لك فأخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا ، قال : فأتيت رسول الله — ﷺ — فأخبرته فشق ذلك عليه ، فصلى الظهر ، ثم دخل ، وكان اذا صلى الظهر قام فركع ركعتين ، ثم أقبل بوجهه على القوم — فشق ذلك على الناس ، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك ، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك ، حتى اذا كان صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسم ، وكان تلك الساعة لا يقوم اليه انسان من ناحية المسجد ، حتى يصلى الغداة ، فقال له القوم حين تبسم : يا نبى الله بأنفسنا أنت ما يعلم الا الله ما كان بنا من الوجد مما رأينا منك الذى رأينا ! قال رسول الله — ﷺ — كان الذى رأيتم منى أنه أحزننى قتل أصحابى حتى رأيتهم فى الجنة اخوانا متقابلين ، ورأيت فى بعضهم اعراضا كأنه كره السيف ، ورأيت جعفرا ملكا ذا جناحين مضرجا بالدماء مصبوغ القوادم(١) .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٠ المصدر السابق .

هذه صورة كاملة لموقعة مؤتة قصدت اليها قصــدا ، حتى أعطى القارىء لمحة عن أحداث تلك الغزوة ، وما أحاط بها من أقوال المؤرخين — قدامى ومحدثين — ، ولعلنى أكون قد أبنت وجه الحق فى ذلك ، حتى نتبين — تفصيلا — موقف عبد الله بن رواحة فى هذه الغزوة ، لأنه هو المراد من ذلك الحديث .

ان المتتبع لأخبار عبد الله بن رواحة فى هذه الموقعة تروعه تلك المواقف التى وقفها سواء أكان فى مسيره اليها قبل أن يغادر المدينــة المنورة ؟ أم فى طريقه الى المعركة يوم أن وجد فى القوم بعض التراجع؟ أم فى خوضه المعركة وثباته فيها ؟ .

ان هذه المواقف الايمانية الرائدة التى وقفها عبد الله بن رواحة يتضـــح من خلالها أننا أمام شــخصية متفردة بكثير من ألوان العظمة الايمانية التى تجعل المرء مرهف الحس ، فياض الشعور عميق الادراك ويزداد حس عبد الله وادراكه يوم أن علم أنه سيكون أحد أمراء هذا الجيش ، ومعنى ذلك أن رجوعه — مرة ثانية الى المدينــة — مرهون بارادة الله سبحانه وتعالى — ، ومادام الأمر كذلك فليظهر لرسول الله — ﷺ — مكنون صدره،ومخبوء فؤاده،وليطلعه على حبه له ، ويقينه بأنه رسول الله أرسله ربه رحمة للعالمين ، لكنه قبل أن يصنع ذلك عليه أن يجرد قلبه من كل أمر قد يحدث لديه ريبة أو شكا .

فعندما ودع الناس هؤلاء الأمراء ، وأتوا لتوديع عبــد الله بن رواحه رأوه يبكى « فقالوا : ما يبكيك يابن رواحة ؟ ، فقال :: أما والله ما بى حب الدنيا ، ولا صبابة بكم ، ولكن سمعت رسول الله —ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وان منكم الا واردها كان على

ربك حتما مقضيا »(الآية ٧٢ من سورة مريم) ، فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود »(١) •

فعبد الله بن رواحة يريد الاقبال على المعركة الفاصلة ، أو التى يعتقد أنها المعركة التى قد تكون آخر معـــاركه بقلب عامر بالايمـــان ، وهذه قضية تؤرق مضجعه،فاذا كان الجميع سيردون النار،واذا كان الجميع سيعبرون الى الجنـــة عن طريقها ، فهل يأمنون على أنفســـهم ساعتها ألا يقعوا فيها ؟ وهذا ما عبر عنه عبد الله بقوله • فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ •

ويغير المودعون مجرى الحديث حتى — يخففوا عن عبد الله لأواءه أو يهونوا عليه ذلك الخطب ، أو كأنهم فهموا أن عبد الله قد أعتقـــد أنها الشهادة ، وبعدها سيكون لقاء الله — سبحانه وتعالى — ثم ورود النار ، فقالوا : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم الينا سالمين ، لكن هذه ليست مشكلة عبد الله بن رواحة ، لأن تفكيره كله متجه الى أمـــر أخطر من ذلك • انه لقاء الله — سبحانه وتعالى — لكنه يخشى ألا يكون هذا اللقاء ، أو يكون اللقاء بعد عرك فى النار لا يدرى مداه ، لذا فقد أجابهم بعكس ما قالوا فقال :

لكننى أســأل الرحمن مغفـــرة	وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنـــة بيدى حران مجهـــزة	بحربة تنفذ الأحشـــاء والكبدا
حتى يقال اذا مروا على جدثى	أرشده الله من غاز وقد رشدا (٣)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ ص٢٦٩ المصدر السابق •

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٤ والمصدر السابق • البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٦٩ •

انها الشهادة التى يريدها عبد الله ، والتى يسأل الله قبلها مغفرة حتى يتخفف من عذاب النار ، فأمنيته التى يتمناها ضربة سـيف ، أو طعنة رمح ، تصعد روحه بعدها الى عالم الشهداء فى أعلى عليين ، وبذلك يتذكر كل من يمر على قبره سيرته العطرة داعيا له بقوله « أرشده الله من غاز وقد رشدا » نعم أرشده الله من غاز وقد رشدا .

ويتهيـأ القوم للخـروج ، ويودع رسـول الله — ﷺ — قادة الجيش ، ويقدم لهم وصاياه ، ويتقدم عبد الله بن رواحة لوداع رسول الله — ﷺ — ويعلن حينئذ أنه مؤمن برسالته ، موقن بصـدق دعوته فيقول :

فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ، ونصرا كالذى نصروا
أنى تفرست فيك الخير نافلة   الله يعلم أنى ثـابت بصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى به القدر(١)

يقول ابن هشام أنشدنى بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات :

أنت الرسول فمن يحـرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتـاك من حسـن   فى المرسلين ونصرا كالذى نصروا
انى تفرست فيك الخير نافـلة   فراسـة خالفت فيك الذى نظروا

فيقول ابن هشام يعنى المشركين وهذه الأبيات من قصيدة له(٢) .

ولعل عبد الله بن رواحة أراد أن يعيد على مسامع رسول الله — ﷺ — ما قاله من شعر قبل ذلك ، حتى يعلن له أنه مازال على ذكر مما

---

(١) ابن هشام السيرة النبـوية ق٢ ص ٣٧٤ المصدر السـابق .
ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٦٩ المصدر السابق .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص ٣٧٤ المصدر السابق .

قاله فيه ، وأنه يريد منه أن يكون شاهدا له يوم القيامة على أنه جاهد في سبيل الله بلسانه وسنانه ، وهي لفتة من عبد الله تطلعنا على مدى تعلقه برسول الله — ﷺ — ، ولذلك يقال ان الرسول قال له : « وإياك فثبت الله» •

وما زالت نفس عبد الله متعلقة برسول الله — ﷺ — ومازال مرتبطا ارتباطا وثيقا به ، فهو يتألم لأنه خارج الى الغزو مخلف وراءه رسول الله — ﷺ — لكنه يحدوه السلام ويرجو أن تشمله رعاية الله — سبحانه وتعالى — ، لذلك يقول عبد الله عندما ودع رسول الله الجيش وانصرف عائدا الى المدينة :

خلف السلام على امرئ ودعته ... في النخل خير مشيع وخليل

وهكذا يودع عبد الله رسول الله — ﷺ — الوداع الأخير الذي لم يلتقيا بعده الا هناك في الملأ الأعلى في جنة الخلد التي أعدها الله للأنبياء والمرسلين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا •

وينطلق المسلمون من المدينة موجهين وجههم صوب الشمال حيث تلك المناطق التي غدرت برسول رسول الله، ومضوا يرفعون راية الاسلام عالية خفاقة ، يضعون في اعتبارهم عنصر المفاجأة الذي استعمله رسول الله — ﷺ — كثيرا في غزواته ، ولكنهم ما ان وصلوا الى منطقة « معان » من أرض الشام حتى بلغتهم الأخبار أن هرقل « قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم اليه من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي ، ثم أحد اراشة يقال له : مالك بن زافلة ، وفي رواية ابن اسحاق فبلغهم ان هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا

نكتب الى رسول الله — ﷺ — نخبره بعــدد عدونا ، فاما أن يمــدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا فنمضى له »(١) .

ويضطرب أمر المســلمين ، وتستمر مشــاوراتهم ليلتين كاملتين ، وهم لا يتحركون من منزلهم الذى نزلوه ، وهنا تتجلى شجاعة عبدالله ابن رواحة ، وحرصه على أن يسير المسلمون نحو عدوهم مهما كلفهم ذلك من تضحيات،لأنه يعلم برجاحة عقله أن بقــاء الجيش حتى يذهب أحدهم الى رسول الله — ﷺ — معناه الفت فى عضد الرجال ، ثم هو بعد ذلك يتطلب مؤنــا ونفقات ، وفــوق ذلك كله فان المدينة نفســها ستتأثر بذلك الأمر ، وستطل رأس النفاق من جديد لتحدث البلبلة فى صفوف المسلمين ، وساعتها سيفكر المسلمون طويلا فى الخــروج الى نصرة الجيش المقيم بأرض الشــام ، وفوق ذلك كله فان هذا الأمــر سيتسامع به عدوهم فى مكة ، وقد يفكرون فى نقض ذلك الصلح الذى أبرموه مع رسول الله — ﷺ .

ان الأمر فى حالة الاضطراب هذه يحتاج الى رأى قاطع وحــزم لا يتزعزع ، وعزيمة لا تلين ، وممن يأتى ذلك ؟ لابد أن يأتى من رجل مسئول عن الجيش له رجاحة عقل ، وقوة حجة ، وحسن بيان . ومن لهذا الأمر غير ابن رواحة ؟

قام عبد الله بن رواحة فشجع الناس : « وقال يا قوم والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٠ المصدر السابق .
وانظر ابن هشام السيرة النبوية ق٢ ص ٢٧٥ المصدر السابق

بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة »(١) .

كلمات صادقة ، وحجج قاطعة ، وأدلة قوية لا يستطيع أحد ردها . ألم يخرج المسلمون فى كل غزواتهم لغاية من غايتين : أما نصر يعلى كلمة الله ، ويحيى موات قلـوب كادت الوثنيـة تأتى عليها ، وكادت عبادة غير الله تدمرها ؟ ألم يضع المسلمون فى اعتبارهم على مدى حروبهم التى خاضوها ضد الشرك أنهم ما يقاتلون الناس بكثرة عدد ، أو بقوة عتاد ، وانما يقاتلونهم بهـذا الدين الذى أكرمهم الله به ؟ ، فلماذا يتخاذلون — اذن — وهم يعلمون انما هى احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة ؟

وتسرى تلك الروح القتالية الوثابة فى صفوف الجند مسرى الحياة تدب فى أوصال الرجال ، وتأخذ كلمات ابن رواحة التى خرجت من قلبه طريقها الى قلوب الرجال ، فتنطلق حناجرهم بتأييد رأى عبد الله بن رواحة قائلين : « قد والله صدق ابن رواحة »(٢) .

ومعنى ذلك انه التأييد للمسير ، واليقين من وعد الله الذى وعد ، ان الرجولة موقف ، والكلمة الصادقة تغير مجرى التاريخ ، ويأخـذ الموقف من عبد الله بن رواحـة كل أحاسيسه ووجـداناته ، وتجيش شاعريته بقصيدة سجل بها هذا الموقف والمسـلمون فى محبسهم هـذا فيقـول :

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٠ المصدر السـابق .
ابن هشام السيرة النبوية ق ٢ ص ٢٧٥ المصدر السابق .
(٢) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٠ المصدر السابق .

جلبنـــا الخيل من أجأ وفرع

تغر من الحشيش لها العكـوم(١)

حـذوناها من الصــوان سبتا

أزل كأن صـفحته أديـــم(٢)

أقــامت ليلتين عـلى معـــان

فأعقب بعد فترتهــا جموم(٣)

فرحنــا والجيــاد مســومات

تنفس فى مناخرها السموم(٤)

فلا وأبــى مـــآب لنـــأتينها

وأن كانت بها عــرب وروم (٥)

---

(١) أجأ : أحد جبلى طئ والآخر سلمى ، وفرع بالفتح اسم موضع من وراء الترك ، قال ياقوت « والفرع أطول جبل بأجأ وأوسطه ، وظاهر أن هذا هو المراد ، وتغر بالغين : تطعم شيئا بعد شئ : يقال : غر الفرخ غرا وغرارا : زقه ، والعكوم جمع عكم بالفتح : الجنب .

(٢) قال أبو ذر : حذوناها : جعلنــا لها حذا : وهو النعـــل ، والصوان : حجــارة ملس ، واحدتهـــا صوانة ، والسبت النعــال التى تصنع من الجلود المدبوغة ، وأزل : أى أملس صفحته ظاهرة ، والأديم : الجلد .. وقال السهيلى : « أى حذوناها نعالا من حديد جعله سبتا لها مجازا ، وصوان من الصون : يصون حوافرها ، أو أخفـــافها ، ان أراد الابل فقد كانوا يحذونها السريح وهو جلد يصون أخفـافها ، وأظهر من هذا أن يكون أراد بالصوان : يبيس الأرض ، أى لاسبت لها الا ذلك .

(٣) معان بفتح الميم موضع بالشام ، والفترة : الضعف والسكون والجموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .

(٤) مسومات : مرسلات ، السموم : الريح الحارة .

(٥) مآب : اسم مدينة فى طرف الشام من نواحى البلقـــاء ، قال السهيلى : « يجوز نصبه بفعل مقدر أو مرفوع على الابتداء .

فعبـــأنا أعنتهـــا فجـاءت
عوابس والغبـــار لهـــا بريم (٦)
بذى لجـــب كأن البيض فيـــه
اذا برزت قوانسها النجوم (٧)
فراضـــية المعيشـــة طلقتهـــا
أســـنتها فتنكـــح أو تئيم (٨)

فعبد الله بن واحة فى هذه القصيدة يصف حـــال المسلمين وقـــد أقاموا بمعان يتشاورون فيما بينهم ، حتى تركوا الجياد التى أتـــوا بها لخوض المعركة دون رعاية تامة ، لأنهم جعلوا يطعمونها شيئا بعد شىء على الرغم من أنهم هيـــأوها ، وأعدوها لخوض هذه المعركـــة ، ودربوها تدريبا يتلاءم وخوض المعارك التى تكون على أرض صلبة ، وهذا ماعناه بقوله : « حـــذوناها من الصوان ســـبتا » ، ثم يحدثنـــا عبد الله بن رواحة ــ بعد ذلك ــ عن انطلاقة الخيل بعد فترة الضعف

---

(٦) البريم فى الأصل : خيطان مختلطان أحمر وأبيض تشدهمـــا المرأة على وسطها أو عضدها ، وكل مافيه لونان مختلطان فهو بريم أيضا يريد ماعلاها من الغبار ، فخالط لونه لونها ، والدمـــع المختلط بالاثمـــد وهذا أقرب لمعنى البيت ، أى أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم ٠

(٧) ذى لجب : أى جيش ، واللجب : اختلاط الأصوات وكثرتها والبيض مايوضع على الرأس من الحديد والقوانس : جمـــع قونس وهو أعلى البيضة ٠

(٨) قال أبو ذر : تئيم : تبقى دون زوج ،يقال : آمت المرأة ،اذا لم تتزوج ، هذه الأبيات مرويه فى ابن هشـــام ق٢ ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ وفى البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٠ ، ٣٧١ المصدر السابق ٠

والسكون التى أصابتها من جراء تردد بعض المسلمين ، ولكنها أخـذت طريقها ، واستردت قوتها ، وعـاودها نشاطها ، فغدت الى غايتهـا ، ويممت وجههـا شطر الروم تملأ خياشـيمها تلك الرياح الحـارة التى تنبعث من أرض الشام ، ونقسم اننا لابد أن نأتى مآب تلك المنطقـة التى عسكر فيها الروم والعرب ، ومهما جمعوا من جموع فان ذلك لن يرهبنا ، أو يفت فى عضدنا ، لقد عبأنا خيلنا بتلك الأتربة التى علتهـا والتى اختلطت بدموعها ، وها هى ذى تستعد لخوض المعركة وكلها قوة، وكلها تصميم على النصر ، لقد تجمعت أصـوات الخيل مع أصـوات الرجال الذين تجمعـوا فى جيش لجب يلبسون قوانسـهم ، ويأخذون عدتهم لخوض المعركة وقد طلقوا الدنيا،واقبلوا على الموت ، فلا يعنيهم أن تتزوج نساؤهم من بعـدهم ، أو تبقى دون زواج ، وانمـا الذى يعنيهم هو النصر أو الشـهادة .

وهذه دفعة قوية من ابن رواحة يحمس بها الجند ، ويدفعهم الى لقاء عدوهم بقلوب مؤمنة ، ونفوس راضية بقضاء الله وقدره .

وينطلق الجيش اثر هذه الكلمات المؤمنة ، والعبارات المشـتعلة حماسا ، وينطلق عبد الله بن رواحة راكبا فرسه ، مردفا خلفه زيد بن أرقم — وكان يتيما تربى فى حجره ، فيسمعه زيد وهو ينشد قـوله :

اذا أديتـــنى وحملت رحـلى
مســيرة أربع بعد الحساء(١)

---

(١) الحساء جمـــع حسى ، وهو ماء يفور فى الرمل حتى يجـد مستقرا ، فاذا بحث عنه وجد يريد مكانا فيه الحساء .

فشـأنك أنعم وخـلاك ذم
ولا أرجع الى أهلى ورائى(٢)
وجـاء المسلمون وغادرونى
بأرض الشام مشتهى الثواء(٣)
وردت كل ذى نسب قـريب
الى الرحمن منقطـع الاخاء
هنالك لا أبالى طلـع بعـل
ولا نخل أسـافلها رواء (٤)

يقول زيد : فلما سمعتهن منه بكيت . قال : « فخفقنى بالدرة » وقال : ما عليك يالكع أن يرزقنى الله الشـهادة وترجع بين شـعبتى الرجل »(٥) .

وزيد هذا هو الذى يقول فيه ابن رواحه :

يا زيد اليعملات الذبل   تطاول الليل هديت فانزل(٦)

---

(٢) فشأنك أنعم : يريد أنه لايكلفها سفرا بعد ذلك ، وانما تنعم مطلقة لعزمه على الموت فى سبيل الله ، ولا أرجع قال أبـو ذر : « هـو مجزوم على الدعاء ، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع الى أهله .

(٣) الثواء : الاقامة فى المكان ، وفعله ثوى يثوى من باب ضرب .

(٤) البعل : الذى يشرب بعروقه من الأرض ، ورواء بكسر الهمزة صفة النخل .

(٥) ابن هشـام : السيرة النبـوية ق٢ ص ٣٧٦ _ ٣٧٧ المصدر السابق ، وخفقنى بالدرة ، ضربنى بها ، والدرة السوط واللكع : اللئيم

(٦) اليعملات : النـاقة السريعة جمـع يعملة ، الذبل ، القليلة اللحم لضعفها بالسير ، وهذا البيت من شواهد النحاة فى النداء .

ولعل المحلل لنفسية ابن رواحة فى هذه الأبيات يجد نفسا تواقة الى الشهادة ، متطلعة الى الجنة ، وكأنه توقع بقوة ايمانه أن المعركة القادمة ستكون حامية الوطيس ، وخاصة بعد أن وصلتهم الأخبار أن الروم أجمعوا جموعهم ، وأعدوا عدتهم ، ومعنى ذلك أن الأمل الذى طالما راوده وشيك التحقق فى هذه المعركة ، فخاطب فرسه أو ناقته بقوله لها ان مهمتك تتمثل فى تبايغى ما أريد ، وتقريبى مما آمل،وعندئذ فلن أفعل بك ما فعل غيرى ، وانما ستجدين الشكر الجزيل ، والعفو الكريم،فلقد أديت ما وجب عليك،وقمت بعمل تستحقين به أن يقال لك :

« فشأنك أنعم وخلاك ذم » ...

ثم يقول : اننى عندما أصل هذا المكان الذى تصبو اليه نفسى ، فلن أرجع مرة أخرى الى أهلى ، فاذا جاء المسلمون أى عادوا مرة أخرى الى المدينة ، وغادرونى بأرض الشام شهيدا ، واذا رجع الأهل والخلان من المسلمين الى ديارهم وتركوك يا نفسى مع من تحبين ، أو فى رحاب الله تعالى — فاننى عندئذ لا أبالى بشىء ولا ألوى على عرض الدنيا ، لأننى فى هذا المقام سأكون فى رعاية الله وأمنه .

ان التفكير فى الشهادة جعل عبد الله بن رواحة يتعجل المعركة ، ويحث ركبه الوصول الى مكانها ، ولعل هذه الكلمات قد أحدثت فعلها فى قلوب المسلمين ، فانطلقوا خلفه يحدوهم الأمل فى الفوز بنصر الله الذى وعده المؤمنين .

تحركت جموع المسلمين صوب التجمعات الرومية ، حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ، ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها « مؤتة » ، فالتقى الناس عندها ، فتعبأ لهم المسلمون ، فجعلوا على يمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له « قطبة بن قتادة » ،

وعلى ميسرتهم رجـلا من الأنصار يقال له : عباية بن مالك على رأى ابن اسحاق ، أو عبادة بن مالك على رأى ابن هشام(١) .

ولعل فى تعبير ابن اسحاق بقوله«فتعبأ لهم المسلمون»اشارة الى أن الروح المعنوية لدى المسلمين كانت عالية ، فالتعبئة لا تعنى فقط أخذ العدة المادية . ولكنها تشير الى ما يملأ قلوب الجند من ايمان بالهدف، ويقين بالغاية ،واعتقاد لا يخامره شك فى أن راية الاسلام ستعلو،وأن كلمته ستعم الدنيا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن وعد الله لهم بالنصر، وبتمكينهم فى الأرض لن يتخلف « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم،وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفـر بعد ذلك فأولئك هم الفاسـقون » (الآية ٥٥ من سورة النـور) .

وتبدأ المعركة ، ويلتهب أتونها ، ويصطلى الجميع ــ روما وعربا ــ بنارها ، ويتقـدم زيد بن حـارثة فيبلى البلاء الحسن ويلقى ربه راضيا مرضيا عنه ، ويتلوه جعفر بن أبى طالب فيصول ويجول ، وهو يحمل راية المسلمين بيمينه فتقطـع ، ثم يمسكها بشماله فتقطـع ، ثم يحتضنها بعضديه حتى يقتل ، ان أحد المسلمين المشـاركين فى المعركة يقول : « والله لكأنى أنظر الى جعفر بن أبى طالب حين اقتحـم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ، ثم قاتل حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبـة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسـابها

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص ٣٧٧ المصدر السابق .

على اذ لاقيتها ضرابها(١)

ويتقدم عبد الله بن رواحة ، فيأخذ الراية من جعفر بن أبى طالب، وكان القتال قد بلغ ضراوته ، وكادت القبيلة المسلمة تتـوه فى زحام الكثرة الكافرة ، ويتقدم عبد الله بن رواحة فى هذا الجو الغائم،وتلك الساعات الحاسمة من تاريخ المسلمين ، ويبدو أن عبد الله بن رواحة قد رأى عدم التكافؤ ، وتيقن أن المعركة لن تكون فى صالح المسلمين ، وعليه أن يقوم بعمل ينقـذ به المسلمين ، فعنـدما كان خارج دائرة المسئولية كانت عاطفته قـوية اما وقد تحمـلأمر المسلمين بعـد أن مضى صاحباه الى ربهما فعليه — الآن أن يفكر فى أمر المسلمين لا فى أمره وحده ، فهو يريد الشهادة ، ويا ليته قد استشهد قبل أن يتحمل هذه المهمة الصعبة،هذه النظرة من عبد الله جعلته يتردد بعض التردد، وكان الواجب عليه أن يقدم الى حيث مضى صـاحباه ، ويترك تدبير الأمر الى الله — سبحانه وتعالى — ولهذا التردد رآه رسـول الله — ﷺ — فى وضع أقل من وضع صاحبيه •

وعلى أية حال فقد تقدم عبد الله ، يحمل لواء الجهاد ، وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه كما يقول ابن هشام • ويتردد بعض التردد ثم يقـول :

أقسـمت يـا نفس لتنـزلنه
لتنـزلن ، أو لتكـرهنه
ان أجلب النـاس وشـدوا الرنة
ما لى أراك تكـرهين الجنة ؟(٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٨ المصدر السابق •

(٢) أجلب القوم : صاحوا واجتمعوا ، الرنة : صـوت ترجيع شدة البكاء •

قد طـــال ما قد كنت مطمئنـــــة
هل أنت الا نطفـــــة فى شنة ؟ (١)

وهذا الرجز من ابن رواحة يوحى بأنه يلوم نفسه على ترددها فى لقاء العـــدو ، ولكنه لا يصبر على ذلك طويلا ، فتأتى العزيمة القوية ، والارادة النافذة فتقطع عليها كل سبيل للرجوع عما اعتزمه ، فاما أن تنزل الى ساحة الموت راضية ، واما أن تكره على ذلك اكراهـــا ، ثم يلوم نفسه على طـــريق الاستفهام الانكـــارى « ما لى أراك تكرهين الجنة ؟ » انه لأمر يدعو الى الدهشة ، هل تكره نفس الجنة ؟؟ أيتهـــا النفس امضى الى حيث مضى صاحباك ، وأقبلى على الجنة راضـــية مرضية ، ثم يقول : ماذا حدث الآن ؟ لقد طالما كنت مطمئنة راضـــية بقضاء الله وقدره ، متشوقة الى هذا اليوم ، فلماذا يحـــدث منك ما حدث ؟ عليك أيتها النفس أن تعلمى أنك لا تمثلين شيئا فى هذه الحياة، انما أنت نطفة فى وعاء بال ، فستهراق هذه النطفة لا محالة ، أو ينخرق هذا الوعاء القديم ، بل انه يزيد الأمر وضوحا فيقول :

يا نفس الا تقتلى تمـــوتى   هذا حمـــام الموت قد صليت

---

(١) النطفة : الماء القليل الصافى ٠ الشنة : السقاء البـــالى . أى فيوشك أن تهراق النطفة أو ينخرق السقاء ، ضرب ذلك مثـــلا لنفسه فى جسده ٠

وهذا الرجز فى ابن هشام ق ٢ ص ٣٧٩ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٢ وشعر الدعوة الاسلامية ص ١٦٤
والسيرة النبوية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٦٢

وما تمنيت فقـــد أعطيت   ان تفعلى فعلهما هديت (١)

انه مؤمن بالموت الذى كتبه الله على البشر جميعا ، فاما آن يتبل على المعركة فيقتــل صابرا محتسبا فيفوز بعز الدنيا والآخرة ، واما آن يفر من المعركة فيموت جبانا ذليلا ، ثم يقــول لنفسه : لقد تمنيت هذه الساعة ، وها أنت تجــدينها فرصة ســانحة لتحقيق ما تمنيتــه فأقبلى ــ اذا ــ للحاق بصاحبيك ، زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب، انك ان تفعلى فعلهما فقد تحققت فيك هداية الله ــ سبحانه وتعالى •

وينزل عبد الله بن رواحــة من فرسه ، وينطلق كالجمل الهــائج يعصف بالروم عصفا ، لا يبالى بما أعده أولئك الروم من جيش وسلاح ويراه الجميع وقد أنهكه طو ل القتال ، وأخذ منه انجهد مأخذه فيأتيه ابن عم بعرق من لحم(٢) ، فيقول له : شد بهذا صلبك ، فانك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، ويأخذه عبد الله من يده ، ثم يقطع منه قطعة يأخذها فى فمه ، ولكنــه يسمع تدافع النــاس وحطم بعضهم بعضــا فيقول : وأنت فى الدنيا ؟؟؟ ثم يلقيــه ويأخذ سيفه ، ويتقــدم فيقاتل حتى يقتل(٣) •

ولولا كتاب من الله سبق ــ كما يقول : خالد محمد خالد ــ بأن يكون اليوم موعده مع الجنة لظل يضرب بســيفه حتى يفنى انجمــوع المقاتلة ، لكن ساعة الرحيل دقت معلنة بدء مسيرته الى الله فصــعد شــهيدا »(٤) •

---

(١) ابن هشـــام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٩ ، ابن الأثـير : البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٣ المصدر السابق •

(٢) عرق من لحم : عظم عليه بعض لحم •

(٣) ابن هشــام : السيرة النبوية ق٢ ص٣٧٩ المصدر السابق •

(٤) خالد محمد خالد : رجال حول الرســول ص ٢٨٦ ــ ٢٨٢ المرجع السابق •

وهكذا يستقبل عبد الله بن رواحة الموت فى سبيل الله ، وهكـذا يتحقق له ما كان يامل ويرجو ، وهكذا ينتهى دوره فى تأييد الاسـلام بسيفه ، كما سبق وأيده بلسانه ، بل انه لم يؤيد الاسلام بسيفه ثم يعيش بعيدا عن التضحية والفـداء ، فان حياة هذا المجـاهد التى حفلت بالتضحية والبطولة تتوج بأعظم تضحية فى سبيل الله ، انهـا بذل النفس فى أسمى معارك النضال ، وتقديمها لربها معلنا بذلك قول القـائل :

ولست أبالى حين أقتل مسـلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

رحم الله عبد الله بن رواحة رحمة واسعة ، وجزاه عن الاسلام خير الجزاء .

وعندما وصلت الأخبار الى المدينة المنورة بما حدث فى مؤتة لهؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عـاهدوا الله عليه رثاهم الشـعراء بقصائد كثيرة من ذلك قصيدة حسان بن ثابت التى يقول فيها :

تـأوبنى ليـل بيثـرب أعسر
وهم اذا ما نوم النـاس مسـهر
لذكـرى حبيب هيجت لى عبـرة
سفوحا ، وأسباب البكـاء التذكر
بلى ان فقـدان الحبيب بليـة
وكم من كريم يبتلى ، ثم يصـبر
رأيت خيـار المؤمنـين تواردوا
شـعوب وخلفا بعـدهم يتـأخر
فلا يبعـدن الله قتلى تتـابعوا
بمؤتة منهم ذو الجنـاحين جعفـر

وزيد وعبـــد الله حين تتـــابعوا
جميعـــا وأسباب المنيـــة تخطر

غداة مضوا بالمؤمنين يقـــودهم
الى الموت ميمـــون النقيبة أزهر

أغر كضوء البـــدر من آل هاشم
أبى اذا ســـيم الظلامة مجســـر

فطاعن حتى مـــال غـــير موســـد
لمعترك فيـــه قنـــا متكســـر

فصـــار مع المستشهدين ثـــوابه
جنان وملتف الحـــدائق أخضر (١)

ويستمر حسان — فى الحديث عن جعفر بن أبى طالب ، وعن عترة رسول الله — ﷺ — من آل هاشم فيذكر منهم عـــلى بن أبى طالب وحمزة والعباس وعقيل أولئك الرجال الذين اذا ذكر رسول الله — ﷺ ذكروا ، أما كعب بن مالك الأنصارى فله قصائد فى رثاء شهداء المسلمين فمما قاله فى رثاء شهداء مؤتة :

تنام العيون ودمع عينك يهمـــل
سحاكما وكف الطباب المخضـــل

فى ليـــلة وردت على همومهـــا
طـــورا أحن ، وتارة أتململ

واعتـــادنى حزن فبت كأننى
ببنـــات نعش والسماك مؤكل

---

(١) ديوان حسان بن ثابت : تحقيق د. سيد حنفى حسين ، ط الهيئة المصرية للكتاب ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

وكأنمـا بين الجوانح والحشـا
مما تأوبنى شـهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتـابعوا
يوما بمؤتة أسـندوا لم ينقلوا
صـلى الاله عليهم من فتيـة
وسقى عظامهم الغمام المسـبل
صـبروا بمؤته للاله نفوسـهم
حـذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضـوا أمام المسـلمين كأنهم
فنق عليهـن الحـديد المرفل
اذ يهتـدون بجعفر ولوائه
قدام أولهـم فنعـم الأول (١)

ثم يسـتمر كعب فى وصف جعفر بن أبى طالب متخذا من نسـبه لبنى هاشم منطلقا للحديث عنهم ، وعن عصـمة الله لهم ونزول الكتاب عليهم فيقول :

قوم بهم عصـم الاله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ص ٣٨٥ـ٣٨٦ المصدر السابق

الفصل الثالث

عبد الله بن رواحة

الشـــاعر

ان شعر عبد الله بن رواحة يكتنفه الغموض ، بل ان المرء ليدهش عندما يقرأ عن عبد الله بن رواحة فى كتب التراجم والسير ، وتزداد حيرة القارىء عندما يرى مؤرخى الأدب يضعون عبد الله بن رواحة الى جانب الشعراء الفحول المكثرين ، وما ان يأخذ الباحث فى التفتيش عن نتاج هذا الشاعر الذى وضع بين أصحاب المذهبات أو وضع ثالث ثلاثة من طبقة شعراء المدينة حتى يصدم صدمة هائلة ، انه لا يجد نتاجا يبل الصدى ، أو يشفى الغلة ، وانما يتمثل نتاجه فى بعض المقطوعات المتناثرة هنا وهناك ، أو الأبيات القليلة التى أثبتتها كتب التراجم والسير ، فالواجب يفرض علينا أن نقف وقفة متأنية ازاء هذا الشعر نحاول أن نتعرف من خلالها على جلية الأمر ، ولماذا أهمل الكثير منه؟ ولكننا هنا نحاول أن نحلل شعره الذى وصل الينا ، ثم نقوم بعد ذلك بدور التعليل لضياع الكثير من هذا الشعر •

ان الشعر الذى قاله عبد الله بن رواحة ، والذى أثبتته كتب التراجم والسير يمثل جانبين:جانبا قاله فى حياته الجاهلية قبل أن يعتنق الاسلام، وجانبا قاله بعد أن اعتنق الاسلام وتفهم تعاليمه ومبادئه •

أما الجانب الأول فهو ذلك الشعر الذى قاله يناقض به قيس ابن الخطيم(١) ، ويرد فيه على شاعر الأوس فى تلك الحروب التى دارت

---

(١) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو بن سواد بن ظفر بن حارثة الغطريف ، يكنى قيس أبا زيد كان شاعر الأوس ، وبينه وبين حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة مناقشات ، قيل انه قدم مكة ، فدعاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الاسلام ، وتلا عليه القرآن فقال انى لأسمع قولا عجبا ، فدعنى أنظر أمرى هذه السنة ، ثم أعود اليك . ومات قبل الحول ، انظر الأعلام للزركلى جـ ٥ ص ٢٠٦ وطبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٢٨ ، الأغانى جـ ٣ ص ١ ـ ٢٦ •

رحاها بين القبيلتين ، ويمكن للباحث أن يعثر على هذا الشعر فى جمهرة أشعار العرب(١) ، وفى موسوعة الشعر الغربى(٢) وفى ديوان حسان ابن ثابت(٣) ، فالقصيدة الأولى مروية فى كتاب الكامل لابن الأثير ، وموسوعة الشعر العربى ، وهى قوله :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب　　لعمرة وحشا غير موقف راكب

والقصيدة الثانية وردت فى جمهرة أشعار العرب وضعها أبو زيد القرشى فى المذهبات وهى قوله :

تذكر بعــد ما شطت نجودا　　وكانت تيمت قلبى وليــدا

أما القصيدة الثالثة فقد وردت فى ديوان حســان بن ثابت قالها يرد بها على قيس بن الخطيم كأختيها السابقتين وهى قوله :

يا قيس أنتم شرار قومكم　　قدما وأنتم أغثهم نسبا

وهذه القصائد الثلاث قيلت فى العصر الجاهلى ، ويمكن أن تعطينا تصورا لتلك الحرب التى وقعت بين الأوس والخزرج والتى اســتمرت قرابة مائة العــام كان آخرها يوم « بعاث » الذى وقع قبل الهجــرة بخمس سنين ، وطبيعة البحث تفرض علينا أن نعرض لتلك القصــائد

---

(١) أبو زيد القرشى : جمهرة أشعار العرب حققه وعلق عليه وزاد فى شرحه د. محمد على الهاشمى ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية : الرياض .

(٢) ايليا صاوى ــ مطاوع صفدى : موسوعة الشعر العربى .

(٣) ديوان حســان بن ثابت د. سيد حنفى حسين ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤ ــ ١٩٧٤

بشيء من التحليـــل موازنين بينها وبين ما قاله قيس بن الخطيم يقول عبد الله في قصيدته الأولى :

أشـــاقتك ليلى في الخليط المجانب
نعم فرشاش الدمع في الصدر غالب(١)

بكى اثر من شـــطت نواه ولم يقم
لحاجة محزون شكا الحب ناصب(٢)

لدن غدوة حتى اذا الشمس عارضت
أراحت له من لبـــه كـــل غارب (٣)

تبـــين في الحـــب يعـــلق مدبرا
قديمـــا اذا ما خلة لم تصـــاقب (٤)

كسوت قتودى عرمسا فنصأتها
تخب على مستهلكـــات لواحب (٥)

---

(١) ليلى : هي أخت قيس بن الخطيم ،الخليط السكان المجاورون المجانب : المرتحل • الرشاش : القليل الدمع أو المطر •

(٢) شطت : بعدت • النوى : البعد يعني بعد الدار ـ الناصب : المتعب المحزون •

(٣) عارضت : برزت ، أراحت : أزالت

(٤) تبين : تحقق • الحب : المحب : خلة : خليلة ، تصـــاقب : تقارب ، وتواجه

(٥) القتود : القتد : الرحل ، أو خشبه ، العرمس : الصـــخرة والناقة الصلبة ، نصأتها : دفعتها وزجرتها ، المستهلك : الطـريق الذي يجهد سالكه ، لواحب : واضحة ، أو واسعة •

تبـاري مطـايا تتقي بعيونها
مخافة وقع السوط خوص الحواجب(١)
اذا عيرت أحســاب قوم وجـدتنا
ذوي نائل فيها كرام المضــارب (٢)
نحامي على أحســابنا بتــلادنا
لمفتقــر أو ســائل الحق واجب (٣)
وأعمى هـدته للسـبيل سـيوفنا
وخصم أقمنا ـ بعدما لج ـ ثاعب(٤)
ومعترك ضـنك يرى الموت وسطه
مشـينا له مشي الجمال المصاعب (٥)
برجل ترى الماذي فـوق جلودهم
وبيضـا نقيا مثـل لون الكواكب(٦)

---

(١) الخوص : العيون الغائرة ، والمـراد بالحواجب : العيـون ٠ وهو وصف لناقته التي تتقي بعيونها الغـائرة ضرب السـياط ، فهي سريعة دون أن تضرب ٠

(٢) النائل : العطاء ، فهم أهل شرف في أحسـابهم ، كرام في مضاربهم ، لايعيرهم أحد من هذا الجانب ٠

(٣) التلاد : المـال القديم الموروث ، المفتقر : الذي دهته داهية ونحوها ، فهم يقدمون أموالهم للسائل المحتاج وفي هذا حماية لأحسابهم

(٤) أقمنا : أي قومنا ٠ لج : ألح ، ثاعب متفجر : يقال ثعب الماء أو الدم : أي تفجر وسال ، وفي رواية « شاغب » محرك للشر ٠

(٥) المعترك : مكان المعركة وكذا المعـرك ٠ الضنك : الضـيق ، المصاعب : الجمل الفحل ٠

(٦) برجل : أي برجال مشاة ، الماذي : الدروع ، البيض : الخوذ

فهم حسـر لا فى الدروع تخالهم
أسودا متى تنشا الرماح تضارب (٧)

معـاقلهم فى كل يوم كريهـة
مع الصدق منسوب السيوف القواضب(٨)

فخرتم بجمـع زاركم فى دياركم
تغلغـل حتى دوفعـوا بالرواجب(٩)

أباح حصـونا ثم صـعد يبتغى
مطية حى فى قريظـة هـارب(١٠)

لقد قال عبد الله بن رواحة هذه القصيدة يرد بها على قيس بن الخطيم الذى قال قصيدته يفتخر فيها على بنى قريظة وقصـيدة قيس تقارب الأربعين بيتا بدأها بقوله :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب(١)

والمتتبع للمعـانى التى أثارتها قصـيدة عبد الله بن رواحة يجدها تناقض المعانى التى أتى بها قيس بن الخطيم ، وكأنها نقائض مبكـرة

---

(٧) حسر : جمع حاسر ، مكشوف الرأس : تنشا الرماح : ترفع أصلها تنشأ فحذفت الهمزة لضرورة الشعر .

(٨) معاقلهم : حصونهم ، كريهة : حرب ، الصدق ، والصدق : الصلب المستوى من الرجال .

(٩) زاركم : يعنى هزمكم حتى دخل عليكم بيوتكم . تغلغل : أى دخل الى عمق دوركم ، الرواجب : جمع الراجبة مفاصل أصـابع اليد .

(١٠) صعد : ارتفع ، قريظة هى من اليهود ، أى أنهم اندفعوا وراء الهاربين من بنى قريظة وحلفائهم .

(١) جمهرة أشعار العرب ج ٢ ص ٦٤٠ المصدر السابق .

عرفها شعراء المدينة «يثرب» قبل أن تكثر النقائض فى العصر الاسلامى والأموى ، فقد التزم البحر والروى ، فقيس بن الخطيم يبدأ قصيدته بالاستفهام ، وبوصف الديار والأطلال ، والديار عند قيس بن الخطيم هى تلك المدة التى يقيمها الحجيج على منى ، ثم يرحلون ، أما عبد الله ابن رواحة فالاستفهام عنده تعبير عما أصابه لفراق من أحب ، لكنهما يلتقيان فى أن كليهما قد فارق من يحب ، ورحل عنه ، وتركه يعانى آلام البعد ومرارة الجوى .

يقول قيس بن الخطيم بعد البيت المتقدم

ديار التى كادت ونحن على منى	تحل بنا لولا نجاء الركائب
تبـــدت لنا كالشمس تحت غمامة	بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم أرهـــا الا ثلاثا على مـنى	وعهدى بها عـذراء ذات ذوائب
ومثلك قـد أصـبيت ليست بكنة	ولا جارة ولا حليـلة صـاحب

فقيس يصور محبوبته وقد فارقت منى ، ورحلت بعد قضائها المدة الموقوتة لذلك ، ثم يصـورها فى رحيلها وقـد نظرت اليهم من خبائها تستر جانبا من وجهها كأنها الشمس ظهرت للناظرين يحجب الغيم جانبا منها ، ويبـدو لهم الجزء الآخـر ، ثم انه لم يرها الا ثلاثة أيام ، أو بالأحرى ثلاث ليال ، ولكنها تمنعت عليه ، ولم تستجب لاغرائه ، فافتخر عليها قائلا : انه صاحب تجارب فى هذا الميدان فكثيرا ما أوقع أمثالها فى حبائله ، وكثيرا ما استجبن له وسعد بهن ، انه يصبيهن دون أن يكون بينه وبينهن أية صلة سابقة ، أو أنه يعطينا تصورا لمغامراته التى تكون مع الأجنبيات ، فلن يفكر فى ايذاء جار أو صديق .

أما عبد الله بن رواحة فان « ليلى » قد تركته ورحلت ، وجعلتـه يعانى آلام الحب ، انه يبكى خلف من بعـدت به الأيام ، ولم يستجب

لحاجة محزون يعانى مرارة الفراق ، لقد رحلت فى الصباح الباكر ولم يعلم برحيلها الا عندما بدأت الشمس تشرق ، وتأخذ طريقها الى الدنيا وعندما علم بذلك الرحيل كاد قلبه يطير من جسده ، أو كاد ينسى كل أمواله التى له عند الآخرين ، ثم يقول لمن يلومه على هذاالموقف : ثق تماما بأن الحب يزداد تعلقا بمن يحبه اذا تركه ورحل عنه ، وكأنه لا يعرف له ذلك الا عندما يرحل عنه ، أو يبعد ما بينه وبين من يحب •

ثم نرى قيس بن الخطيم يدخل الى غرضه مباشرة بعد هذه المقدمة فيقول :

دعـوت بنى عــوف لحـقن دمـائهم
فلما أبـوا ، ســامحت فى حرب حاطب

وكنت امرأ لا أبعث الحـرب ظـالما
فلـما أبـوا أشـعلتها كل جـانب

أربت بدفع الحـــرب حتى رأيتهــا
عن الدفــع لا تزداد غـير تقـــارب

فهو يبرر خوض قومه الحروب ، فهم لم يبعثوها ، ولم يصعدوا شررها ، وانما دعوا أعداءهم لحقن الدماء والعيش فى سلام ووئام • ولكنهم أبوا ذلك فكان لابد له من العمل على حماية قومه ، والدفاع عن عرضه ، وهو لم يكن من طبعه اثارة الحرب ، وليس من شمائله ظلم الآخرين ، ولكنهم عندما أبوا الا ظلمهم والاعتداء عليهم كان له عذر فى اشعال نار الحرب ، ولا يظنن أحد أنه غر لا يعرف الوسائل التى يتقى بها الحرب ، لكنه رأى أن الحرب لا تزداد غير تقارب، فرحب بها ، واتخذ عدته لخوضها •

أما عبد الله بن رواحــة فانه يهىء للدخــول فى موضوعه بوصف ناقته التى اختارها من النوق النجيبات ، لقد امتطاها وزجرها فأسرعت

تسابق سائر النوق ، وهى تسير سيرا حثيثا سواء فى الطرق الوعرة أم فى السهلة ، ولأن ناقته مدربة على ذلك أضحت تسابق سائر النوق دون أن تضرب بسوط ، أو تدفع للسير كما يدفع الغير ناقته ، فهل أراد بذلك اللحـاق بحبيبته التى فارقته ؟ أم أراد اللحاق بقـومه الذين خرجوا للحرب ؟ فان أراد اللحاق بقومه السائرين للحرب فقد دخل فى الموضوع دخولا جميلا لا تحس فيه فجوة كما تحسها عند قيس بن الخطيم ، أما اذا أراد بذلك اللحاق بمن يحب فقد دخل فى موضوعه دون أن يقـدم له تقديما طبعيا و هل المعنى الأول أقرب الى منطق عبد الله بن رواحة فقد كان ذا عقل راجح ، وفكر مستنير .

وكما صنع قيس بن الخطيم الذى تحدث عن قومه فعل عبد الله بن رواحة التى تحدث عن شرف قومه ، ونجدتهم وكرمهم فقال :

اذا عيرت أحسـاب قوم وجدتنا ذوى نائل فيها كرام المضارب

نحـامى على أحسـابنا بتلادنا لمفتقر أو سـائل الحق واجب

فعبد الله فى هذين البيتين يرد على قيس بن الخطيم الذى زعـم أنه لم يبعث الحرب ولم يثرها ، وانما قام بذلك دفاعا عن نفسه وقومه فهو يقول له ، كذلك نحن لن نكون البادئين للحرب ،ولكننا ندفع الذين يريدون النيل من أحسـابنا ، فأنت تعلم أننا من ذوى الشرف والمكانة الرفيعة ، ولن نقبل بحال أن ينال منهما أحد ، اننا ندفع عن أحسابنا بكل ما أوتينا من مال ، أو قوة .

ثم نرى قيس بن الخطيم يصف الحرب ، واستعداده لها وذكره جملة من أدوات القتال فيقول :

فلمـا رأيت الحـرب حربا تجـردت

لبسـت مع الـبردين ثـوب المحـارب

مضـــــاعفة يغشى الأنامل ربعهـــا
كأن قتيريهـا عيــون الجنــادب
وســـامح فيهـا الكاهنــان ومـالك
وثعلبــة الأخيــار رهــط القبـاقب
رجــال متى يدعــوا الى الموت يسرعوا
كمشى الجمــال المشــعلات بالمصــاعب
اذا فزعوا مدوا الى الموت فاخــــروا
كمــوج الأتى المزبــد المـــتراكب
ترى قصـــب المران تهوى كأنهــا
تذرع خرصـــان بأيــدى الشــواطب

وكذلك فعل عبد الله بن رواحة فقد تحدث عن قوة قومه وشـدة بأسهم فقال :

وأعمى هـــدته للسبيل ســـــيوفنا
وخصم أقمنا ــ بعــد مالج ثاعب
ومعترك ضـــنك يرى المــوت وسـطه
مشينا له مشى الجمــال المصاعب
برجل ترى المــاذى فوق جـــــلودهم
وبيضـــا نقيـــا مثــل لون الكواكب
فهم حسر لا فى الدروع تخــــالهم
أســودا متى تنشا الرماح تضارب
معــاقلهم فى كل يــوم كريهـــــة
مع الصــــدق منســوب الســيوف القواضب

فكلاهما أراد الفخر بقوته وقــوة قومه فى المعــارك ، فقيس بن الخطيم يقول : عندما رأيت أن الحرب لا محيــص عنها وأن الأعداء

لا يكفون عن عنادهم نحيت ثياب السلم،ولبست ثياب الحرب استعدادا لها وعملا من أجل الغلب ، لقد لبست للحرب دروعا خاصة ، انها مضاعفة النسج تبدو رءوس المسامير المضروبة فيها ، وكأنها أحداق الجنادب . لقد استخدم أسلوب التشبيه حتى يكون دقيقا فى وصفه ، ويبــدو أن عيون الجنادب لها سمة خاصة تخيف الناظر اليها انها دروع سابغات مضاعفة النسج لاتستطيع الأنامل أن تتحسسها لقوتها ومنعتها . لقد انضم الى فى هذ ه المعركة رجال من بنى قريظة ، وجماعات من بنى ثعلبة ابن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، انهم ــ جميعا ــ رجال أشداء يستأثرون بالموت دون غيرهم ، انهم لا يتوانون عندما يدعــو الداعى الى القتال ، فهم يمشون اليه مسرعين ، مشى الجمال السريعة التى ترقل ارقالا سريعا ، ثم يصفهم بقوله : انهم اذا فزعوا للنجدة أقبلوا بجيش كأمواج السيل المزبد الذى يعلو بعضه بعضا ، انك اذا شاهدت موقفهم فى المعركة رأيت هولا وأى هول أقوى من هول الرماح تهوى وتتحطم لشدة الضربة كما تتكسر السعف الطويلة بين أيدى النساء ، وهو بهذا يعطى القارىء صورة لأدوات الحرب التى كانوا يستخدمونها فى القتال فالدروع السابغات التى تقى أجسامهم ، والرماح التى تتكسر كما تتكسر السعف بين أيدى النساء ، ثم يعطينا تصورا لحال قومه وهم يقدمون على القتال اقدام من لا يخشى الموت .

أما عبدالله بن رواحة فان قوة قومه تتمثل فى سيوفهم التى يعالجون بها أعداءهم ، حتى يرجعوهم الى الرشد ، ويعيدوهم الى الصواب ، وقد استخدم الواو التى تدخل على ما يفيد الكثرة ، وكأنهم كثيرا ما يصنعون بأعدائهم ذلك ، وكثيرا ما يعبدون خصومهم الى الجادة .

ولعل المتفهم لهذا اللون من الفخر يرى فيه القوة المبنية على العقل فهم لا يلجأون اليها الا عندما يجدون من أعدائهم عنادا ، ولجاجا يعمى الأبصار والبصائر ، أو يجدون من خصومهم تحريكا للشر .

ويستمر عبد الله بن رواحة فى وصف معاركهم التى خاضوها ، وهم لا يرهبون الموت ، ولا يخشون القتال ، بل يهرعون اليه كما تهرع الابل النحول الى السير ، وهو بذلك يوضح لنا أن الابل كانت تخوض المعارك معهم ، أو أنها كانت معروفة بقوتها وسرعتها ، انهم يسيرون الى المعارك ومعهم رجال من المشاة يلبسون الدروع والخوذ ، فاذا ما رأيتها تخيل اليك أنك ترى الكواكب ، انهم يقاتلون قتال الأسود ، لا يهمهم أن تتكشف رؤوسهم ، أو يخلعوا دروعهم فسيوفهم معاقلهم ، وصدقهم فى القتال حصونهم ، فقد أثبتوا قدرتهم الفائقة على القتال وتدربوا له تدريبا تاما ، فهم يقاتلون فى جميع أحوالهم ، وعبد الله بن رواحة لا يعتمد فى قوته على الرماح التى يعتمد عليها قيس بن الخطيم وانما يعتمد على السيوف ، وقد أشار الى الرماح اشارة عابرة فى قوله « متى تنشا الرماح تضارب ..

ويستمر قيس بن الخطيم يفتخر بتلك المواقع التى خاضوها ، والتى تغلبوا فيها على الخزرج ، وتركوا نساءهم يبكين قتلاهم ، ويقلن ليتنا لم نحارب ، ثم يقول :

أقاتلهم يوم الحديقة حاسرا   كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

ثم يقول : انهم آلوا على أنفسهم أن لا يقربوا الخمر ، فهى حرام عليهم حتى ينتصروا على أعدائهم ، ثم يقول انهم خاضوا المعركة ، وما برحوها حتى أحلت الخمر لهم وهى كناية أراد بها قيس النصر على الخزرج .

ولما هبطنا الحرب قال أميرنا   حرام علينا الخمر ما لم نضارب
فسامحه منا رجال أعزة   فما برحوا حتى أحلت لشارب(١)

---

(١) جمهرة أشعار العرب جـ ٢ ص٦٤٥ ومابعدها المصدر السابق

أما عبد الله بن رواحة فقد أنهى قصيدته التى بلغت خمسة عشر بيتا بقوله :

فخرتم بجمـع زاركم فى دياركم تغلغل حتى دوفعوا بالروا جب

أباح حصونا ، ثم صـعد يبتغى مطية حى فى قريـظة هـارب

يقول لهم لقد افتخرتم علينا بهذه الجموع التى دخلت دياركم ، وتغلغلت بينكم حتى كنتم تدفعونها بأيديكم وهو يقصـد بذلك جموع اليهود الذين تحالفوا معهم على الخزرج بعد أن كانت بينهم حـروب وترات ، ثم يقول لهم لقد أبحنا حصونكم ، واقتحمنا قلاعكم . واندفعنا وراء الهاربين من بنى قريظة وحلفائهم ، ثم ينتهى من شعره أو قل ينهى قصيدته قاصدا تلك النهاية .

ولعل القارىء لهذه النهاية يرى أن هناك فجوات ظاهرة ، أو معانى مازال القـارىء يريد الوقوف عليها ، فقـد أتت النهاية غير مرتقبـة ، وتوقف الشاعر توقفا يدعو الى التساؤل عن سبب هذاالتوقف ، ولعلنا نستطيع ادراك ذلك التوقف بعد دراستنا لحياة عبد الله بن رواحـة ودوره الرائد فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية .

لقد كره عبد الله بن رواحة كل شيء يربطه بالجاهليـة ، ثم انه حاول التوقف عن قول الشعر لكنه رأى أن دفاعه عن الاسلام يفرض عليه الاستمرارية حتى يدفع أذى المشركين .

وأغلب الظن أن عبد الله بن رواحة قد عمد عمدا الى حذف كثير من شعره الذى قاله فى الجاهلية ، ولعله رأى فيه اثارة لمواقف قضى عليها الاسلام ، والحن قد تكون سببا فى التفريق بين الأخ وأخيه ، لقد كره عبد الله ذلك الشعر فحذفه من قصيدته حتى تلتئم الصفوف وتتوحد كلمة المسلمين .

أما القصيدة الثانية التى قيلت فى الجاهلية فهى تلك التى قالها عبد الله بن رواحة يرد بها على قيس بن الخطيم عندما التقوا يوم الفضاء ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى حجز بينهم الليل ، فأفضلت الأوس يومئذ على الخزرج ، وقالوا « ان جوار اخوانكم خير من جوار الثعالب أى اليهود ، فقال قيس بن الخطيم قصيدته التى يقول فيها :

فما أبقت سيوف الأوس منكم   وحد ظباتها الا شريدا

فأجابه عبد الله بن رواحة بقصيدته التى وضعها أبو زيد القرشى ثانية المذهبات(١) بقوله :

تذكر بعد ما شطت نجودا   وكانت تيمت قلبى وليدا(٢)
كذى داء يرى فى الناس يمشى   ويكتم داءه زمنا عميدا(٣)
تصيد عورة الفتيان حتى   تصيدهم وتوشك أن تصيدا(٤)
وقد صادت فؤادك يوم أبدت   أسيلا خده صلتا وجيدا (١)
تزين معاقد اللبات منها   شنوف فى القلائد والفريدا(٢)

---

(١) جمهرة أشعار العرب ج ٢ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ المصدر السابق، ديوان حسان بن ثابت ص ٣١١ المصدر السابق .

(٢) شطت : بعدت ، نجودا : اسم امرأة . تيمت : ذللت ، النجود ، المرأة العاقلة .

(٣) العميد : المريض الذى لا يستطيع الجلوس من مرضه ، أو حطه الحب وهد قواه

(٤) العورة : كل خلل يخشى منه ، يقول : انها تلتمس مكان الضعف فى قلوب الفتيان فتنصب الفخ لتصيدهم بينما تكره أن يصيدها أحد .

(١) الأسيل : المسترسل الطويل،الصلت : الأبيض ،الجيد : العنق

(٢) اللبات : وسط الصدر والمنحر وموضع القلادة ، الشنوف : حلى توضع فى أعلى الأذن ، القلائد : حلى العنق ،الفريد : شذور من الذهب

فان تضـــــنن عليك بمـــا لديها   وتقلب وصـــل باليها جديدا(٣)
لعمـــرك ما يوافقنى خليـــــل   اذا ما كان ذا خلف كنودا(٤)

بدأ عبد الله بن رواحة قصيدته كعادة شعراء عصره الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالغزل واهاجة الذكرى ، فالذكرى تدفع الشعراء الى وصف ما تحدثه ديار الحبيب التى سكن فيها دهرا ، ثم رحلوا — عنها وما ان يعود الشعراء مرة أخرى الى هذه الديار ، حتى تبعث فى قلوبهم تطلعا الى ما كانوا عليه فى الماضى ، ولعل هذه السمة غالبة على كثير من شعراء الجاهلية ، لكن عبد الله بن رواحة ليس شاعرا بدويا يحط رحاله زمنا ، ثم يرحل الى مكان آخر ، ثم يعود فيتذكر ما كان ، انه شـــاعر حضرى ، والتحضر غير البداوة ، فلابد أن تأتى افتتاحيته دالة على ذلك ولو صنع عبد الله غير ذلك لعيب عليه ، فماذا يصنع وهو يريد التعبير عن حب قديمدام طويلا ، ثم بعدت الشقة بينهما وبعد الشقة قد يكون معنويا ، فليســـت القطيعة متمثلة فى الرحيل من مكان الى مكان — كما يصنع أهل البادية — وانما تكون من تلك الجفوة التى حدثت بينهما ، ولن يكون النسيان سهلا ، فقد تذكر « نجودا » تلك المرأة التى تيمت قلبه ، وهام بها حبا أيام صباه ، وتعلق القلب أيام الصبا قـــد يستمر طويلا ، وقد يحدث أحداثا جساما ، وهذا ما وقع له فقد جعله ذلك الحب أو قل ذلك الحب الذى تحول الى ذكرى — جعله يمشى بين الناس كأنه مريض يكتم داءه ، ذلك الداء الذى هد قواه ، وحطمه من زمن بعيد .

---

(٣) تضنن : تبخل ، البـــالى : القديم ، تقلب : تحول ، جديد : مقطوع ، أو مستحدث .

(٤) الخليل : الصاحب ، الخلف : الاخـــلاف بالموعد ، الكنـــود : الجحـــود .

وعبد الله بن رواحة يؤثر أن يجعل لمحبوبته صفات خاصة ، وسمات متفردة ، انها تحب أن تتلمس مواطن الضعف عند الشباب ، وما أحراها أن تصل الى قلوبهم الخالية ، فتتمكن منها أى تمكن ، ولن تكف عن ذلك حتى توقعهم فى حبائلها ، وعندما تصنع ذلك وترى من فريستها غــرة تنقض عليها ، فقد أصبح الصيد ـــ الآن ـــ واقعاتحت تأثيرها وهيمنتها لكنها لا تمكن أحدا منها ، ولن يستطيع أحد أن يصيدها ، لأنها تكره ذلك أو لأنها قد أخذت حيطتها ، ولعل البيئة الحضرية قد سيطرت ـــ هنا ـــ على عبد الله ـــ أيضا ـــ لأن أخــلاق البادية لا تتفق وما وصــف به « نجودا » وكأن نجودا هذه لا تكتفى بصيد واحــد ، أو بالتأثير على شخص واحد ، وانما تفتن كل من يراها ، وتسبى كل من يقترب منها ، أو لعله أراد بذلك التدليل على جمالها القاتل الذى يسبى كل من يراه ، أو يقترب منه ، ولذلك جاء بالفكرة التالية قائلا :

هأنت ذا قد وقعت فى حبها ، وقــد تمكنت من قلبك ، وسيطرت على عواطفك يوم أن رأيت منها ذلك الوجه الأبيض الجميل ، وذلك العنق الطويل ، فوجهها يؤثر فيمن يراه بجماله ونعومته ، وجيدها يؤثر فيهم برقته وحسن تنسيقه •

وعلى الرغم من أنها تزينت بصنوف الزينات ، فقد أضفى جمالها على هذه الزينات جمالا آخر ، وكأنه يقول : ان مصادر الجمال لديهــا كثيرة ، فهى جميلة بذاتها لا بحليها ، ومؤثرة بنفسها لا بما تضفيه على نفســها من ألوان الزينــات ، ويوم أن يكون الجمـــال فطـــريا خاليا من الصنعة والتكلف يوم أن يؤثر فى قلوب الرائين ، ويســتحوذ على ألباب المشاهدين •

لكنه يعود فى آخر مقدمته الغزلية الى لون من ألوان الاعتــداد بالذات ، أو محاولة تخفيف الصــدمة على نفسه ،أو اظهــار التجاد

والتصبر ، حتى لا تسلقه ألسنة الشـانئين الذين يتبعون زلاته ، يعود ليعلن للجميع أن هذه المرأة التى هام بها حبا ان هى ضنت عليه بوصلها — كما تصنع مع كثير من الواقعين فى حبها ، أو ان هى راوغته بحجـة أنها لا علم لها بما فى قلبه فانه سيقطع ما بينه وبينها ، فليس من سماته اخلاف الوعد ، أو نكران العهد .

وهكذا ينهى عبد الله مقدمته الغزلية التى تحـدث فيها عن ذلك الحب الذى هام به زمنا ، ثم قطع حبائله ، لأنه رأى فيه عقما ، وتضييعا للوقت فى غير طائل .

واذا ما انتهى عبد الله من مقدمته فعليه أن يدخل فى موضوعه انه يريد الرد على قيس بن الخطيم الذى افتخر على قومه الخزرج فقال عبد الله مفتخرا :

وقـد علم القبـائل — غير فخـر —
اذا لم تلف ماثـلة ركودا(١)
بأنا نخـرج الشـتوات منا
اذا مـا استحكمت حسبا وجـودا(٢)
قـدورا تغـرق الأوصـال فيهـا
خضـيب لونهـا بيضـا وسـودا(٣)

---

(١) ماثلة : واضحة ظاهرة ، ركود : ثقيلة مملوءة . يصف قومه بالكرم ودلل على ذلك بقدورهم الثقيلة المملوءة بالطعام .

(٢) الشتوات جمع الشتوة : الشتاء القحط ،استحكمت : اشتدت أى أنهم فى أيام الشتاء التى يعم القحط فيها البـلاد يقـومون بالبذل والسـخاء .

(٣) الأوصال : المفـاصل — تغرق الأوصـال — الخ كناية عن عمقها وسعتها .

متى ما تأت بـــشرب أو تزرهـــا
تجدنا نحن أكرمهـــــا جـــدودا(٤)
وأغلظهـــا على الأعـــداء ركنـــا
وألينهـــا لبـــاغى الخـــير عـــودا(٥)
وأخطبهـــا اذا اجتمعـــوا لأمـــر
وأقصـــدها ، وأوفـــاها عهـــودا(٦)
اذا ندعى لثـــأر أو لجـــــار
فنحن الأكثرون بهـــا عـــديدا(٧)

الفخر باب من أبواب الشعر العربى نبغ فيه كثير من الشـــعراء الجاهليين ، غير أن الفخـــر — أحيانا — يأتى تعبيرا عن نفس قسا عليها المجتمع ، أو ظلمت من قوانينه وعاداته ، فعبرت عما أصابها من قسوة وحرمان ، فهى لا تنظر الى مجتمعها ، وانما تضع نفسها مقدمة فى كل شىء ، فهى التى فرضت نفسها على ذلك المجتمع ، بل انها جعلت الأعداء يرهبونها ، ويفكرون مليا ان هم أرادوا النيل منها ، وقد وضع عنترة المنهج المتفرد فى ذلك فهو يقول مخاطبا ابنة عمه :

هلا ســـألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهـــلة بما لم تعلمى

---

(٤) لعله يقصد بالاتيان الاقامة ، وبالورود : المرور ، والا فان العطف لايفيد شيئا جديدا ، وهذا معيب :

(٥) انهم أشداء على الأعداء ، وألين جانبا لطالبى الخير والاحسان

(٦) أقصـــدها : أعدلها ، وفى البيتين تعميق للمعنى المذكـــور فى البيت السابق ، فهم أفضل المتكلمين ، وأبلغ الخطبـــاء وأوفى النـــاس عهودا وأسرعهم لاجابة الملهوف .

يخبرك من شهد الوقيعة أننى   أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ثم يقول :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الأدهم(١)

وهناك لون آخر من شعر الفخر ذلكم هو الفخر الجماعى ، أو القبلى ، ويحدث هذا عندما تكون نفسية الشاعر راضية عن مجتمعها آخذة حظها من حبه وتقديره ، وعمرو بن كلثوم يأتى فى مقدمة هؤلاء الشعراء ، حيث ضرب بسهم وافر فى الفخر بقبيلته ، وما تقوم به من بطولات ، فهو يقول :

وقد علم القبائل من معد   اذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا العاصمون اذا أطعنا   وأنا العازمون اذا عصينا
وأنا المنعمون اذا قدرنا   وأنا المهلكون اذا أتينا(٢)

ولقد نهج عبد الله بن رواحة نهج عمرو بن كلثوم فى فخره بقبيلته فهو يعتز بقومه الخزرج ، ويفتخر بأرومته ، وقد استعار الجزء الأكبر من الشطر الأول من أبيات عمرو بن كلثوم المتقدمة ، وذلك فى قوله : « وقد علم القبائل ، ثم قال « غير فخر » مخالفا عمرو بن كلثوم الذى قال « من معد » لكن القارىء لشعر عبد الله بن رواحة يجد فيه الفكر المرتب الذى لم يحشد معانيه حشدا ، ولم يترك لعاطفته العنان ، وهذا أمر أملته عليه بيئته الحضرية كما أسلفت ، ولذلك فانه حصر المعانى التى جاءت فى فخره .

---

(١) جمهرة أشعار العرب جـ٢ ص٤٨١ – ٥٠٤ المصدر السابق .
(٢) جمهرة أشعار العرب جـ١ ص٣٨٧ – ٣١٥ المصدر السابق .

المعنى الأول : أو الفكرة الأولى التى جاءت فى شعر ابن رواحة تتمثل فى أنهم أكرم القبائل ولا فخر ، والقبائل كلها تعرف عنهم ذلك وعندما تشتد الأزمات ، وتستغلق الأمور ، ويأتى على الناس الشتاء القارس الذى يجعلهم يختبئون فى دورهم ، ولا يتمكنون من الحصول على قوتهم فان قبيلته — عندئذ — تخرج لهم الأطعمة الكثيرة ، حتى يتغلبوا بها على ما لحق بهم من ضرر ، وما أصابهم به الشتاء من أزمات وهناك دليل آخر على كرمهم وهو أنهم يخرجون للناس قدورا يأكلون منها تمتلىء بالطعام ، ويظهر أثر ذلك على أيدى الأكلة دليلا حيا على ما بها من مرق ودسم • ولعلك تتبين ذلك عندما تزور يثرب ، أو تمر بها ، انك ستجدنا أكرم أهل هذه البلاد وأشرفها نسبا وأعلاها شأنا •

ان هــذا اللون من الفخر يتناســب وتلك البيئة التى عاش فيها عبد الله بن رواحة،فهم قوم يسكنون يثرب تلك المنطقة التى كانت محطا لقوافل العرب الغادية الى الشام ، أو الرائحة منه ، وهم قوم يساكنون يهود يثرب أولئك الذين عرفوا بميلهم الى البخل ، بل انهم قوم أشحاء فلابد أن تظهر جوانب الكرم الخزرجى للغادين والرائحين ويبدو أن التقارب الذى حدث قبل الاسلام بين بنى النجار من الخزرج وبين بنى هاشم الذين صاهروهم قد جاء من هذا المنطلق ، ولو لم يكن الخزرجيون كرماء لما صاهرهم بنو هاشم الذين كانت لهم الرفادة فى موسم الحج ، فهناك — اذن — تقارب بين بنى هاشم والخزرج نشأ من هذا الكرم الذى أظهره عبد الله بن رواحة فى قصيدته •

أما المعنى الثانى الذى افتخر به عبد الله بن رواحة فيتمثل فى أنهم أغلظ الناس قلوبا على أعدائهم ، وألينهم قلوبا على طالبى الخير ومحبى الاحسان ، وهى ناحية تضعهم فى مصاف الحكماء أولئك الذين يميزون بين الخير والشر ، ويفرقون بين الفضــيلة والرذيلة ، أنهم يحاربون

الطغاة الظالمين ، ويصادحون الهداة المرشدين ، وهـذا جانب تفرد به عبد الله بن رواحة ، ويبدو أن هـذا الجانب جاءه من ثقافته ورجاحة عقله ، فقد كان عبد الله بن رواحة كاتبا فى الجاهلية ، وهذا جانب يجعله يطلع على كثير من أفكار الشعوب الأخرى •

والمعنى الثالث الذى افتخر به هو طلاقة اللسان وحسن البيـان فهم قوم أوتوا مقدرة خطابية فائقة والخطابة لها أصولها المرعية : لسان جديد ، وفكر سديد ، ورأى رشيد ، وصوت مديد ، ولقد رأينا وفد تميم عندما قدموا على رسول الله — ﷺ ، وقالوا أخرج الينا خطيبك وشاعرك نفاخرك ، فأخرج اليهم الرسول — ﷺ — ثابت بن قيس ، وحسان بن ثابت — وكلاهما من الخزرج ، فلما خطب ثابت بن قيس ردا على خطيب وفد تميم ، وقال حسان قصيدته ردا على شاعرهم أسلم القوم وقالوا : لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا •

ولم يقف الأمر عند هذا الجانب ، بل انهم أعدل الناس وأوفاهم ذمما وعهودا ، فهم الذين يفصلون فى المنازعات بين الناس وهم الذين يوفون بعهودهم ومواثيقهم •

أما المعنى الرابع فهو أنهم ينصرون المعتدى عليه ، فاذا دعاهم من يريد الأخذ بثأره ، أو استجار بهم من اعتـدى عليه فانهم يلبون دعوة الداعى اذا دعاهم ، ولن يتأخر منهم أحد ، فهم الأكثرون عددا ، وهم الأسرعون لمن يستنصرهم ، وهذا الجانب له أهميته ، فهم لا يجيبون نداء أى شخص ، ولا يلبون دعوة الظالم ، وانما يلبون دعوة المظلوم الذى يريد الأخذ بثأره ، أو يستجير بهم من ظلم نزل به •

وكل هـذه الجوانب التى لمسها عبـد الله بن رواحة جوانب لها وجاهتها فى الفخر ، ولها أصالتها فى ذلك المجتمع الذى كان يتفاخر بكرم

الضيافة ، وحسن استقبال الوافدين ، ونصرة الضعيف ، انها جوانب مشرقة يحق لعبد الله أن يتيه بها عجبا وفخرا .

ولم يكتف عبد الله بن رواحة بهذه الجوانب المتقدمة وانما افتخر أيضا بقوتهم وشجاعتهم وخوضهم المعارك ضدأعدائهم الذين زعموا أنهم نالوا من سادتهم وكبرائهم ، فرد عليه ابن رواحة بقوله اذا كنتم قد نلتم من ملوكنا كما زعمتم فاننا لم نجد فيكم ملوكا ننال منهم وانما وجدناكم عبيدا فأصبناكم اصابات قاتلة .

لقد بدأ عبد الله الحديث عن هذا الجانب بحديث عن نفسه وقومه بنى جشم بقوله : انك حين تدعو بنى جشم بن عمرو لنصرتك فاننى سأكون أول الملبين لك ، ولن تجدنى خائفا أتخلى عنك ، وانما :

متى ما تدع فى جشم بن عوف
تجدنى لا أغم ولا وحيدا(١)
وحولى جمع ساعدة بن كعب
وتيم اللات قد لبسوا الحديدا(٢)
زعمتم أنما نلتم ملوكا
ونزعم أنما نلنا عبيدا
وما نبغى من الأحلاف وترا
وقد نلنا المسود والمسودا
وكان نساؤكم فى كل دار
يخدشن المعاصم والخدودا

---

(١) جشم : هو جشم بن مالك بن عمرو بن عوف بن الخزرج . أغم : مكروب .

(٢) تيم اللات : من بطون الخزرج .

تركنـــا جحجبى كنبـــــات فقع
وعـوفا فى مجالســـها قعـودا(٣)
ورهــط بنى أميـــة قـد أبحنـا
وأوس الله أتبعنـــا ثمـــودا(٤)
تركنا مجـدعا وبنى أبيــــه
امــاء يحتلبن الضــأن ســـودا(٥)
وكنتم تدعــون يهـود مــــالا
ألان وجـدتم فيهـــا يهـــودا(٦)
وقد ردوا الغـرائم فى طـــريف
ونحــام ورهــط أبى يزيـــدا(٧)

سأكون أول القوم ، وفى مقدمة الصفوف ، ولن تجدنى وحدى فى هذا الأمر بل أنا واحد من جمع كبير ، فحولى جمع ساعدة بن كعب ، وتيم اللات ، وهما من بطون الخزرج ولم ينطلقوا الى عدوهم مجردين من الأسلحة ، وانما انطلقوا لابسين عدة الحرب ، مستعدين لها ، وهو هنا يفتخر بكثرة عددهم ، وقوة عددهم ، وتتمثل قوتهم المادية فى قوله

---

(٣) جحجبى : هو جحجبى بن كلفة بن عوف بن عمرو وهـو بطن من الأوس ، نبات الفقع : أردأ أنواع الكمأة وهى رخوة بيضاء ٠

(٤) رهط بن أمية ـ وأوس الله ـ بطنان من الأوس ٠

(٥) مجدعا : هو مجدعة بن جحجبى بن كلفة بن عوف بن عمـرو ابن مالك بن الأوس ٠

(٦) تدعون : تزعمون ، المال : ماملكته من جميع الأشياء ، وأراد بالمال هنا القوة والعتاد ، وهو يشير هنا الى محـــالفة اليهـود للأوس وخلفهم لهذا الحلف ٠

(٧) طريف بن طريف من الخزرج ، ومثله نحام ورهط بنى يزيد٠

قد لبسوا الحديد ، وكأن الحــديد أضحى يحيط بهم احاطة الملبوس للابسه ، وهذه الاحاطة تقيهم أسلحة عدوهم ، وتدفعهم الى خوض المعارك بقوة وثبات •

ولعل هذه الثياب الحربية القوية جعلت عدوهم يتصور أن الذين حاربوهم ملوك الخزرج ورؤساؤهم ، وقد نالوا منهم ما نالوا فسعدوا بذلك كثيرا ، فرد عليهم عبد الله بقوله حقيقة نحن جميعا ملوك ، واذا نلتم منا كما تقولون فاننا لن نكون كما زعمتم ، أما نحن فاننا نعتقــد أننا نلنا منكم ، ولكننا لم نجد فيكم ملوكا ننالهم ، وانما وجدناكم العبيد الذين نقضى عليهم ، فلا يدافع عنهم أحد •

لقد تجمعت الأحلاف لقتالنا ، وعملتم كل ما تستطيعون فى سبيل ذلك ظنا منكم أن هؤلاء الأحلاف ستنتصرون بهم علينا ، ولكننا لم نتأثر بذلك ، ولم نمكنكم من غرضكم الذى عملتم من أجله ، ودليلنا على ذلك أننا نلنا منكم السادة والمسودين ، وانتصرنا عليكم على الرغم من كثرة جمعكم ، فجعلنا نساءكم يخدشن معاصمهن ، ويمزقن وجوههن ، لقد حل الحزن بدوركم ، فما من دار الا وفيها مصاب ، اننا عندما صنعنا بكم ذلك جعلنا قبائلكم ذليلة لا تعرف ماذا تفعل ازاء هذا المصاب الأليم ، ويستخدم عبد الله هنا أسلوب التشبيه الذى لم يلجأ اليه قليلا فيقول : ان هاتين القبيلتين أثر فيهما المصاب فجعلهما أشبه ما تكونان بنبات الكمأة الرخو وهو أردأ أنواع الكمأة فى ضعفها ومهانتها،لقد قضينا على بنى أمية وأوس الله قضاء مبرما ، فلم تقم لهما قائمة بعد ذلك فهما أشبه ما يكونان بقوم ثمود الذين قضى عليهم ، وأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ولعل الجانب الثقافى يبدو هنا واضحا ، فقوم ثمود قد وردت الأخبار بذكرهم ولكن بعض الشــعراء اضطرب فى معرفة أمرهم ، أو فى التفرقة بين عاد وثمود كما جاء فى قول زهير مشــبها ما تحدثه الحرب بين عبس وذبيان بما فعله أحمر ثمود بقومه عندما قتل ناقة صالح ، ولكنه لم يقل

أحمر ثمود وانما قال أحمر عاد ، فأخطأه ، أما عبد الله بن رواحة فثقافته التاريخية مكنته من معرفة الأحداث التى وقعت فى الجزيرة العربية .

ويستمر عبد الله مفتخرا بقوله : لقد تركنا مجدعا وبنى أبيه كأنهم الاماء يحتلبن الضأن ، فقد تركوهم أذلاء مستضعفين كأنهم عبيد ، بل اماء لا تقوم بعظائم الأمور ، وانما شأنها شأن حلب الضأن ومزاولة صغائر الأعمال .

ولا يفوت عبد الله الاشارة الى ذلك الحلف الذى انعقد بين الأوس وبعض قبائل اليهود ، وتفاخر الأوسيون عليهم بأن اليهود سيعينونهم بالمال والعتاد ، وستكون الغلبة لهم ، فقال : هاهم اليهود فأين المال الذى وعدوكم به ؟ هل يستطيعون أخذه منكم ؟ ولعلنا نستطيع تصور ذلك ، فان اليهود فطروا على نقض عهودهم ، ومواثيقهم وعدم الوفاء بالتزاماتهم ، واليهود كما قدمنا كانوا يمتلكون مصادر القوة فى يثرب ، وكانت الصناعة فى أيديهم ، ثم انهم كانوا يودون القضاء على عنصرى العرب الأوس والخزرج ، فاذا حالفوا منهم أحدا فانما هو حلف الذئب مع الحمل ، يقول لهم عبد الله : لقد خشى اليهود بأس الخزرج وقوتهم فردوا الغرائم اليهم ، أما أنتم فلضعفكم لم تستطيعوا أخذ حقوقكم منهم .

وهكذا ينهى عبد الله بن رواحة قصيدته على غير ترقب منه كما حدث فى القصيدة السابقة ، ولا يمكن لباحث أن يتصور أنه أعيى أو توقف ، وانما الذى نراه أنه تناول شعره بالحذف فحذف كثيرا مما من شأنه اثارة الاحن والبغضاء ، ويبدو أن الرواة شاركوا عبد الله هذا الاتجاه فحذفوا كثيرا من شعره .

وقبل أن ننهى جولتنا مع شعر عبد الله بن رواحة الجاهلى نكتب

قصيدة أخيرة وردت فى ديوان حسان بن ثابت ، او قل مقطوعة أثبتها محقق ديوان حسان ، وهذه المقطوعة قالها عبد الله بن رواحة يرد فيها على شعر قاله قيس بن الخطيم فى يوم بعاث يذكر فيهــا ترفعهم عن انتهاب بيوت الخزرج بعد أن هزموهم فقال :

رد الخليط الجمال فانقضبا وقطعوا من وصالك السببا(١)

ولــا كان قيس بن الخطيم لـم يحضر هـذه المعركة فقد أجـابه عبد الله بن رواحة بقوله :

يا قيس أنتم شـــرار قـــومكم
قـدما وأنتـم أغثــهم نســبا
حالفتم الفحش والخيـــانة والـ
ـبخـل جميعـا واللؤم والكـــذبا
يا قيس ان الأســـلاب أحرزهـا
من كان يغشى الذوائب القضـــبا
وأنت فى الدار غـــير محتضـر
حربا وتدعـــى قتالنـــا لعبـا
لو كنت فيهم والحـرب لاقحـــة
لكنت فيهـم مغلبـــا ذنبـــا
نحــن اســـتبحنا ما فى ديـاركم
يوم صـبحناكم بهـــا حصـــبا
نحن حماة الآطام فى ســالف الد
ـهـر وقـــدما ا ســتناكم جنبا (٢)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٣١٧ المصدر السابق .
(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٣١٩ المصدر السابق .

هذه هى القصائد الثلاث التى أثبتتها كتب الـتراث والتى تمثـل شعر عبد الله بن رواحة الجاهلى ، والتى عرضنا لها لنتبين من خلالها منهج عبد الله بن رواحة فى الرد عـلى قيس بن الخطيم ، وهى تعطى دلالة قوية على ما كان عليه مجتمع « يثرب » من الصراعات المستمرة، والحروب المتكررة ، ولم تقتصر الحرب على استعمال السلاح فحسب، وانما كانت هناك معارك شعرية صاحبت المعارك العسكرية ، وقـد كان فارسها قيس بن الخطيم الأوسى ، وعبد الله بن رواحة الخزرجى،ومن خلالها أيضا نتبين النشـأة المبكرة لفن النقـائض التى التزم نهجهـا الشعراء فيما بعد فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية عندما دارت المعارك القتالية بين المسلمين والمشركين .

شعره الاسلامى :

أما شعر عبد الله بن رواحة الاسلامى فان المتتبع له يجده قـد قيل فى مناسبات خاصة ، وحوادث معينة ، ثم ان هذا الشـعر منه ما ثبتت نسبته لعبد الله بن رواحة،ومنه ما اضطرب المؤرخون فى نسبته، وهناك قصـائد أخرى وردت فى ابن هشـام دون ذكر قائلها ، ولعـل الرواة عمدوا الى ذلك عندما لم يجدوا دليلا يؤكد نسبة هذه القصـائد الى شاعر من شعراء الدعـوة الاسلامية ، وقد تكون هذه القصـائد لابن رواحة ، لأن شعره هو الذى امتدت اليه يد النسيان ، وخاصـة أن هذه القصائد قيلت فى الفترة الأولى من وجود الاسلام فى يثـرب ، ولابد أن تكون لأحـد أولئك الذين قـاموا بعبء الدفاع عن الدعـوة الاسلامية .

واذا كان حسان بن ثابت وكعب بن مالك قد قالا شعرا فى غزوة بدر فان عبد الله بن رواحة لم أعثر له على شعر قيل فى هذه الغـزوة على الرغم من أن المعركة الشـعرية بين المسلمين والمشركين قامت اثر هذه الغزوة ، وأول مـا يطالعنا من شعر لعبد الله بن رواحة تلك القصيدة

التى قيلت فى غزوة أحد ، والتى قالها يبكى فيها هؤلاء الشهداء الذين جادوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن الدعوة الاسلامية .

ولقد اضطرب الرواة — أيضا — فى نسبة هذه القصيدة فبينما ينسبها ابن اسحاق لعبد الله بن رواحة قائلا : « وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب » اذا بابن هشام ينسبها لكعب بن مالك فهو يقول : « أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك ، أما ابن كثير فقد تابعهما فى ذلك فنقل عبارة ابن اسحاق وابن هشام(١) .

والقصيدة تبدأ ببكاء صريح على أسد الله حمزة بن عبد المطلب فهو يقول :

بكت عينى وحق لها بكاها
وما يغنى البكاء ولا العويل
على أسد الاله غداة قالوا
أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا
هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هدت
وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك فى جنان
مخالطها نعيم لا يزول

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ق ٢ ص ١٦ المصدر السابق . ابن كثير البداية والنهاية جـ ٣ ص ١١٧ المصدر السابق وانظر شعر الدعوة الاسلامية ص ٤٤٤ المرجع السابق ، وموسوعة الشعر العربى جـ ٣ ص ١٦٢ المرجع السابق .

ألا يا هاشم الأخيـــار صـــبرا

فكـل فعـــالكم حسن جميـــل

رســول الله مصـــطبر كـــريم

بأمـــر الله ينـطق اذ يقـــول

ألا من مبلـــغ عنـــى لؤيـــا

فبعـد اليـــوم دائلـــة تدول

وقبل اليـــوم ما عرفوا وذاقـــوا

وقـائعنا بهـــا يشفى الغليـــل

نسـيتم ضربنـــا بقليب بـــدر

غـداة أتاكم المـــوت العجيـــل

غـداة ثوى أبو جهـــل صريعـا

عليـه الطير حـــائمة تجـــول

وعتبـــة وابنه خـــرا جميعـــا

وشيبة عضـه السيف الصـــقيل

ومتركنـــا أميـــة مجلعبـــا

وفى حـــيزومه لـــدن نبيـل

وهـــام بنى ربيعـــة ســـائلوها

ففى أســـيافنا منهـا فلـــول

ألا يا هنـــد فابكـــى لا تملـــى

فأنت الوالـــه العبرى الهبـــول

ألا يا هنـــد لا تبـدى شـــماتا

بحـمزة ان عـــزكم ذليـــل (١)

---

(١) السيرة النبوية ق ٢ ص ١٦٢ ، والبداية والنهاية جـ ... ١٤٧
وموسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص ١٦٣

والقصيدة كما هو واضح من منهجهــا قد تنسب الى عبد الله بن رواحة ، ففيها دلالة على منهج ابن رواحة فى خطابه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقوله :

ألا يا هاشم الأخيار صبرا   فكل فعالكم حسن جميل

شبيه بقوله فى قصيدة أخرى يمدح رسول الله ﷺ :

يا هاشم الخير ان الله فضلكم   على البرية فضلا ما له غير(١)

وقــــوله :

رســـول الله مصـــطبر كريم   بأمر الله ينطق اذ يقــــول

شبيه بقوله أيضا :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم   فينا النبى وفينا تنزل السور(١٢)

أما كعب بن مالك فله قصائد كثيرة فى غزوة أحد أطولها قوله :

ألا هــل أتى غســـــان عنا ودونهم
من الأرض خرق ســـــيره متنعنع
صــحار وأعــــلام كأن قتـــــامها
من البعــد نقــع هامد منقـــــطع

وفيها يقول :

---

(١) ابن سلام الجمحى ، طبقات فحــول الشعراء جـ ١ ص ٢٢٦ ، المصدر السابق .

(٢) ابن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٢٥ المصدر السابق .

ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنـــــا
علام اذا لم نمنع العرض نزرع
وفينـــا رسول الله نتبـــع أمره
اذا قـال فينـا القـول لا نتطلع

ويستمر كعب فى وصف معركة أحد واستعدادهم لها وعددهم وما آلت اليه نتائج المعركة حتى يقول :

ودارت رحانا واستدارت رحاهم وقد جعلوا كل من الشر يشبع

والقصيدة طويلة تقترب من الخمســين بيتا لا تلمس فيهـا تلك الروح التى تلمسها فى القصيدة المتقدمة(١) •

وقد قال كعب بن مالك قصيدة أخرى فى بكاء حمزة بن عبدالمطلب جاءت فى سيرة ابن هشام رواية عن ابن اسحاق وذلك حيث قال : قال ابن اسحاق : وقال كعب بن مالك يبكى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أحد من المسلمين :

نشـــجت وهل لك من منشـــج
وكنـت متى تذكـــر تلجـــج
تذكر قـــوم أتـــانى لهـم
أحـــاديث فى الزمـن الأعـــوج
فقلبـــك من ذكـرهم خـــافق
من الشـــوق والحـزن المنضـج

---

(١) القصيدة كاملة فى ابن هشام السيرة النبوية ق ٢ ص ١٣١ — ١٣٥ وانظر للمؤلف « كعب بن مالك الأنصارى » الناشر دار المعارف ١٩٨٦

وقتــلاهم فى جنـــان النعيـــم
كـــرام الداخـــل والمخـــرج

حتى يقول :

فكلهم مـــات حـــر البـــلاء
عـــلى مـــلة الله لم يحـــرج
كحمـــزة لمـــا وفى صـــادقا
بذى هبـــة صـــارم سـلجج
تلاقـــاه عبـــد بنى نوفـــل
يبـــربر كالجمـــل الأدعـــج
فأوجـــره حـــربة كالشـــهاب
تلـــهب فى اللـــهب الموهـــج
ونعمـــان أوفـــى بميثـــاقه
وحنظـــلة الخـــير لم يحنـــج
عن الحق حتى غـــدت روحـــه
الى منـــزل فاخـــر الـــزبرج
أولئـــك لا من ثـــوى منكـــم
من النـــار فى الدرك المرتـــج (١)

ولكعب قصيدة أخرى لامية ــ أيضا ــ فى غزوة أحد يرد فيها على عمرو بن العاص يقول فيها :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ المصدر السابق .

أبلــــغ قريشا وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوى الألباب مقبــول
أن قد قتلنــا بقتـــلانا سراتكم
أهل اللواء ففيما يكثر القيـــل(١)

والقصيدة طويلة — أيضا — تتاهز العشرين بيتا ، لا نلمس فيها الروح التى لمسناها فى القصيدة المنسوبة لعبدالله بن رواحة،ذلك أن كعب ابن مالك كثيرا ما يصرف الرثاء الى وصف للمعارك ولما حل بالمسلمين ، وما نزل بالمشركين فى المعارك السابقة ، بل ان جانب الفخر بالأنصـــار وما بذلوه فى قتال أعدائهم ظاهر ، الأمر الذى ابتعد عنه عبد الله بن رواحة نفخره كله بالاسلام ، وكيف أنهم عزوا به وسادوا ، وهــذا ما يجعلنا نطمئن الى نسبة القصيدة لعبــد الله بن رواحة موافقين بذلك ابن اسحاق فى نسبتها اليه « خاصة وأن كعب بن مالك له قصيدة أخرى أيضا غير القصائد السابقة وردت أيضا — فى ابن هشام قال فيها :

طرقت همومك فالرقاد مسهد وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد

وفيها يقــول :

ولقــد هـــددت لفقد حمــزة هدة
ظلت بنـــات الجوف منهـــا ترعد
ولــــو انه فجعت حـــراء بمثلــه
لرأيت رأسى صـــخرها يتبـــددا(٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٤٧ — ١٤٩ المصدر السابق .

(٢) ابن هشـــام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨ المصدر السابق .

وله قصيدة يخاطب فيها صفية بنت عبد المطلب بقوله :

صفية قومى ولا تعجــزى   وبكى النساء على حمــزة
ولا تسأمى أن تطيلى البكــا   على أســد الملة فى الهزة

أما القصيدة التى رجحنا نسبتها لعبد الله بن رواحة فتســير فى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول : يبكى فيه حمزة بن عبد المطلب ، ويبدى جزعــه على فقده ، ويعلن للقــارىء أن المسلمين جميعا تألموا لهذا المصــاب الأليــم ، ثم يبــرز ألم رســول الله — ﷺ — لفقده عمه حمزة بن عبد المطلب الذى كان يقوم بدور فعال فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية لقد هدت لفقده الأركان ، وتهدم البنيان ، فهو الماجد البر الوصــول ، ثم يحييه تحية أخيرة مشفوعة بأمان الله له فى جنات النعيم .

والقارىء لهذا الرثاء يجد فيه روح العصر الجاهلى ماثلة ، أو قل ان عبد الله بن رواحة وضع أمام عينيــه تلك الصورة المحفــوظة عن الخنساء ، فقوله : بكت عينى ، وقوله حق لها أن تبكى ، وقوله وماذا يفيد البكاء أو العويل ، كلها صور رددت عند الخنساء ، انه يبكى على أسد الله حمزة بن عبــد المطلب الذى أضــحى فقده محققــا ، ويحق للناس جميعا أن يظهروا ألمهــم لهذا المصاب الجلل ، لكننا نرى أيضــا الروح الاسلامية تبدو فى بعض التعبيرات ، فقوله « أسد الله » لقب لقب به حمزة فى الاسلام وقوله « عليك سلام ربك فى جنان » أمر قرره الاسلام حيث نص القرآن الكريم على ذلك فى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » وقوله تعالى « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمــل عامل منكم من ذكــر أو أنثى بعضكم من بعض،فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا

فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عندالله والله عنده حسن الثواب » •

الاتجاه الثانى : ينطلق فيــه عبد الله من رثاء حمــزة الى مدح بنى هاشم : ذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منهم،وهو صابر على ما أصاب بنى هاشم جميعا بفقد حمزة بن عبد المطلب ، واذا كان الصبر سمة من سمات رسول — ﷺ،فان الله — سبحانه وتعالى قد أنزل عليه قرآنا بلغه للناس قال تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين،واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون • ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (الآيات من ١٢٦ — ١٢٨ من سورة النحل) •

والقارىء لهذا الاتجاه يلمس فيــه روح عبد الله الدينية ، فهــو مؤمن برسول الله — ﷺ — • وبما نزل عليه من قرآن فهو لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ، ثم هو يؤمن بأن بنى هاشم أفضل الناس طرا ، لأن الله فضلهم باختيار الرســول منهم ، وهو تفضــيل ما بعده تفضيل •

أما الاتجاه الثالث فان عبد الله بن رواحة يذكر فيه المشركين بما نزل بهم فى بدر ، وكأنه يقول لهم « لا تفرحوا بمــا أحرزتم من نصر اليوم ، فان الحرب ستدول عليكم ، ورحاها ستطحنكم ، ألم تذوقــوا مرارة لقائنا ؟ ألم تعرفوا وقائعنا ولن تكون الغلبة فيها ؟ اذا كنتم قد نسيتم ذلك فاننى أذكركم بما حدث لكم يوم بدر ، والقليب شاهد على قتلاكم الذين جاءهم الموت العاجل ، فهذا أبو جهل هوى صريعا تحوم

---

(١) الآيات من ١٢١ الى آخر السورة كلها نزلت فى غزوة أحد وفيها تسجيل لكل أحداث الغزوة ، وما أعتد الله لهؤلاء الشهداء •

الطير حوله لتنهشه ، وهذا عتبة وابنه وشيبة كلهم عضه السيف الصقيل، وهذا أمية بن خلف ممددا وفى أسفل صدره رمح عظيم ، ثم اسـألوا بنى ربيعة عن أسيافنا وما فعلت فيهم ، ثم يتجه بالخطاب الى هنـد بنت عتبة قائلا لهـا ، لا تظنى أنك أصبـت ثأرا ، فان قتـلاك مازالوا ماثلين أمامك فابكى عليهم طويلا ، ولا تظهرى الشماتة بموت حمزة ، انكم مهما صنعتم فلن تنالوا به عزا •

ولعل القارىء لهذا الجزء من القصيدة يدرك أن عبد الله نهج فيه نهج كعب بن مالك وحسان بن ثابت فى تعيير قريش بقتلاها فى بدر ، وقد صنعا ذلك تسلية للمسلمين ، وتهدئة لنفسياتهم التى تألمت كثـيرا لما حدث فى أحد ، ولعل عبد الله الذى لم يبد فى شعره كثير من هذه الظواهر قد آلمه ذلك الحدث فأراد التسرية عن نفسه بهذا الحديث ••

وهناك قصيدة أخرى ــ أيضا ــ اضطرب ابن اسحاق وابن هشام فى نسبتها الى عبـد الله بن رواحـة ، وكعب بن مـالك قيلت فى بدر الآخـرة(١) ، أو بدر الموعـده ، وهذه الغـزوة هى التى خرج فيهـا أبو سفيان للقاء رسول الله ــ ﷺ ــ حسب الموعد المضروب بينهمـا يوم أحد ، لكن أبا سفيان رجع قائلا : يا معشر قريش انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب ، وانى راجع فارجعوا ، فرجع الناس ، فسماهم أهل مكةجيش السويق بقولهن : انما خرجتم تشربون السويق »(٢) •

---

(١) كانت غزوة بدر الآخرة فى شعبان سنة أربع للهجرة ، ابن هشام ق ٢ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ المصدر السابق •

(٢) ابن هشـام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٢٠٩ ــ ٢٠١ المصدر السابق •

يقول ابن هشام بعد قوله : وقال أبو اسحاق .. قال ابن هشام: أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك قال :

وعدنا أبا سـفيان بدرا فلم نجـد
لميعـاده صدقا وما كان وافيـا
فأقسـم لو وافيتنـا ، فلقيتنـا
لأبت ذميمـا وافتقـدت المواليـا
تركنـا به أوصـال عتبـة وابنه
وعمرا ، أبا جهـل تركناه ثاويـا
عصـيتم رسول الله أف لدينكـم
وأمركم السيء الذى كان غـاويا
فانى وان عنفتمـونى لقـائل
فدى لرسـول الله أهلى وماليـا
أطعنـاه لم نعـد له فينـا بغـيره
شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا(١)

وهذه القصيدة يتضح فيها — أيضا — منهج ابن رواحة فقوله :

عصيتم رسول الله أف لدينكم

هو من أسلوب ابن رواحة فى تعيير المشركين بعبادتهم الأصـنام والأوثان ، وقوله — أيضا —

أطعناه لم نعد له فينا بغيره   شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا

مما يتضـح فيه اسلوب ابن رواحـة ، ثم فيهـا بعد ذلك روح ابن رواحة التى تضع نفسها فداء لرسول الله — ﷺ — هى وما تملك.

---

(١) ابن هشـام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٢٠٩ — ٢١٠ المصدر السابق .

وهناك قصيدة أخرى وردت فى ابن هشام . واضطرب فى نسبتها الى عبد الله بن رواحة أو كعب بن مالك . فهو يقول تحت عنوان « شعر لكعب أو ابن رواحة فى الرد على ابن مرداس » يقول ابن هشام :

وخبر ذلك أن العباس بن مرداس هاله أمر اجلاء بنى النضير قبل اسلامه فقال قصيدة يمدحهم فيها بدأها بقوله :

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا   رأيت خلال الدار ماهى وملعبا

فرد عليه الشاعر الاسلامى خوات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف فقال :

نبكى على قتلى يهود وقد ترى   من الشجو لو تبكى أحب وأقربا

فأجابه ابن مرداس بقوله :

هجوت صريح الكاهنين وفيكم   لهم نعم كانت من الدهر ترتبا

فأجابه كعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة — فيما قال ابن هشام فقال :

لعمرى لقد حكت رحى الحرب بعدما

أطارت لؤيا قبل شرقا ومغربا

بقية آل الكاهنين وعزها

فعاد ذليلا بعد ما كان أغلبا

فطاح سلام وابن سعية عنوة

وقيد ذليلا للمنايا ابن أخطبا

وأجلب يبغى العز والذل يبتغى

خلاف يديه ما جنى حين أجابا

كتارك سهل الأرض والحزن همــه
وقد كان فى الناس أكدى وأصــعبا
وشاس وعـــزال وقد صــليا بها
وما غيبا عن ذاك فيمن تغيبـــــا
وعوف بن سلمى وابن عوف كلاهما
وكعب رئيس القــوم حان وخيبا
فبعدا وســحقا للنضــير ومثلهــا
ان اعقب فتح أو ان الله أعقـــبا

ولعل الباحث يقع فى حيرة أمام هذه القصيدة ، فقد تكون لكعب ابن مالك وفيها روح شعره الذى يميل الى جانب الفخر ، وقد تكون لعبد الله بن رواحة — أيضا — ولكن لم يرد مثل ذلك اللون فى شعره اللهم الا فى الشعر الذى قيل قبل الاسلام أما بعد الاسلام فلم تتضح هذه الروح فى شعره ، ونحن نميل الى نســبتها لكعب بن مالك ، لكن المصادر التى أتت بعد ابن هشام تنسبها لكليهمــا اقتداء بما صــنع ابن هشــام .

وهناك قصيدة أخرى رواها ابن هشام ونسبها لعبد الله بن رواحة أو أبى خيثمة ، لكنــه رجح نســبتها لأبى خيثمــة فهو يقــول : قال ابن اسحاق ، فقال عبد الله بن رواحة ، أو أبو خيثمة أخو بنى سلمة ابن عوف فى الذى كان من أمر زينب قال ابن هشام : هى لأبى خيثمة :

أتانى الذى لا يقــــدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقـــوق ومــأثم

واخراجهـا لم يخـز فيها محمـد
على ماقط وبيننـا عطر منشـم(١)
وأمسى أبو سفيان م نحلف ضمضم
ومن حربنـا فى رغم أنف ومنـدم
قرنا ابنـه عمرا ومولى يمينـــه
بذى حلق جلد الصلاصل محكم(٢)
فأقسمت لا تنفـك منـا كتائب
سراة خميس فى لهـام مسوم(٤)
نـزوع قريش الكفـر حتى نعلها
بخاطمة فـوق الأنوف بميسم(٤)
ننـزلهم أكنـاف نجـد ونخلـة
وان يتهموا بالخيل والرجل نتهم(٥)
يد الدهر حتى لا يعـوج سربنـا
ونلحقهم آثار عـاد وجرهم(٦)

---

(١) الماقط : معترك الحرب ، وعطر منشم : كناية عن شدة الحرب
(٢) ذى حلق : يعنى الغل : الصلاصل جمع صلصلة : صوت الحديد
(٣) الكتائب : العساكر ، السراة : السادة ، الخميس : الجيش ، اللهام : الكثير ، المسوم : المعلم ·
(٤) نزوع قريش الكفر : تسوقهم كما تساق الابل ، نعلها : نستزيدهم ، ونعيد عليهم الكرة بخاطمة : بما تخطمهم به يقال خطمه بالخطام أى جعله على أنفه : يريد القهر والغلبة · الميسم : الحديدة التى توسم بها الابل ·
(٥) أكناف : نواحى ، نجد : يريد به ما ارتفع من أرض الحجاز ، نخلة : موضع قريب من مكة ، يتهموا : يأتوا تهامة وهو ما انخفض من الأرض ·
(٦) السرب : الطريق ، وبالفتح : المال ، عاد وجرهم : أمتـان قديمتان ·

ويندم قوم لم يطيعوا محمـــدا
على أمـــرهم وأى حين تنـــدم
فأبــلغ أبا ســـفيان اما لقيتــه
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم —
فأبشر بخــزى فى الحياة معجـــل
وسربال(٧) قار خالدا فى جهنم(٨)

وخبر زينب أنها كانت تحت أبى العاص بن الربيع ، تزوجها قبل نزول الوحى على رسول الله — ﷺ — فلما نزل الوحى عليه — ﷺ — آمنت به زينب مــع من آمن به من أهل بيتــه ، لكن أبا العــاص استمر على شركه ، وســعت قريش عنــد أبى العاص كى يطلق زينب فأبى ، فقالوا له نزوجك أى فتاة من قريش ، وكان رسول — ﷺ — يثنى عليــه فى صهره خــيرا ، ولما وقعت غــزوة بدر الكبــرى ، كان أبو العــاص بين الأسرى الذين أسروا من المشركين ، وعنــدما أرسلت قريش فى فــداء أسراها أرسلت زينب مالا وقلادة لها كانت خديجة — رضى الله عنها — أهدتها اياها حين زواجها بأبى العاص ، فرق رسول الله — ﷺ — لذلك ، وطلب من المســلمين رد المال ، واخلاء ســبيل أبى العاص ، لكنه طلب منه أن يرسل زينب الى المدينة ، لأن الاسلام فرق بينهما ، فلما وصل مكة عمــل على تجهيزها للحاق برسول الله — ﷺ — وفاء بوعده له ، وكان — ﷺ — قد أرسل زيد بن حــارثة وأحد الأنصار وأمرهما بالاقامة فى مكان حدده لوما حتى تمر عليهمــا زينب فيصطحباها الى المدينة لكن قريشا تعرضت لزينب عند خروجها،

---

(٧) القار : الزفت .

(٨) ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ٦٥٥ — ٦٥٦ المصدر السابق .

وكادت تحدث مواجهة بين كنانة بن الربيع أخى زوجها وبين رجـال من قريش خرجوا لترويع زينب ، والحيلولة بينها وبين الهجرة الى المدينة، وكانت حاملا فلما ريعت طرحت ذا بطنها ، وجاء أبو سفيان الذى أعمل حنكته فى تفادى المواجهة بين كنانة وقريش لكنه طلب منه أن يعود بها الى مكة مرة أخرى ، وأن يخرج بها عندما تهدأ الأمور ، وتخف حـدة الغضب التى أصابت قريشا لقتلاها وأسراها فى بدر ، فعاد بها كنانة — وبعد مدة خرج بها حتى لحقت برسول الله — ﷺ — بالمدينة •

أهاجت هذه الأحداث مشاعر المسلمين الذين شق عليهم أن تصاب بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأذى وعنـدئذ قام بعض الشـعراء يتوعد أبا سـفيان ، ويخفف الوطء عـلى رسـول الله — صلى الله عليه وسلم(١) •

وهناك بيتان وردا فى ابن هشـام — أيضا — فى شعر الدعـوة الاسلامية . غير أن صاحب شـعر الدعوة يقـول : ان أبا زيد القرشى نسبهما لكعب بن مالك ، ثم يقول : والخلاف نفسه فى الاستيعاب ، وفى الاصابة لكعب ، لكن ابن هشام لم يتشكك فيهما كعادته ، وانما قطـع بنسبهما الى عبد الله بن رواحة حيث قال : « وقال عبد الله بن رواحة يبكى نافع بن بديل بن ورقاء » :

رحـــم الله نافـــع بن بديـــل
رحمـــة المبتغى ثـواب الجهـاد
صـــابر صـــادق وفى اذا مـا
أكثـر القوم قال قـول السـداد

---

(١) انظر ابن هشام ق ١ ص ٦٥٣ المصدر السابق •

وقد كان نافع بن بديل بن ورقاء مع القوم الذين أرسلهم رسول الله — ﷺ — لينشروا الاسلام فى نجد بمشورة من أبى براء عامر بن مالك ابن جعفر ملاعب الأسنة عندما عرض عليه رسول الله — ﷺ — الاسلام ودعاه اليه فلم يسلم ولم يبعد من الاسلام وقال : يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انى أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك .

فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق ليموت فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين، ولكن عدو الله عامر بن الطفيل غدر بهم حين أحاط بهم ومعه قبائل من بنى سليم ، وهو يعلم أنهم فى جوار أبى براء عامر بن مالك فقاتلوا وقتلوا جميعا ، فحزن عليهم المسلمون حزنا شديدا ، وكان ذلك الحدث بعد غزوة أحد بأربعة أشهر »(١) .

هذا جانب من شعر عبد الله الذى اضطربت النسبة فيه ، أما الجانب الثانى . أو الشعر الذى ثبتت صحة نسبته لعبد الله بن رواحة فيتمثل فى ذلك الشعر الذى قاله فى بعض المواقف الايمانية ، أو الذى قاله وهو متوجه الى موقعة مؤتة أما شعره فى مؤتة فلقد قدمته عند حديثى عن دور عبد الله فى مؤتة ، وما قاله من شعر يحفز همم المسلمين ، ويدفعهم للقاء عدوهم — عندما رأى فيهم ترددا ، أو تريثا حتى يرسلوا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فكان من أثر ذلك أن تقدم الجند القاء عدوهم غير هيابين ولا وجلين ، ثم ذلك الشعر الذى قاله يحدث نفسه ، ويتمنى لها الشهادة فى سبيل الله — سبحانه وتعالى — وهذا الجانب من الشعر يدرك قارئه أنه تعبير صادق

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٨٣ وما بعدها .

عن حب عبد الله لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتفانيه فى سبيل الدعوة الاسلامية •

أما شعر عبد الله الذى قاله فى بعض المواقف الايمانية فهو ذلك الشعر الذى قاله فى سبيل الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، فقد احتدم الصراع بين المسلمين والمشركين بعد غزوة بدر ، فقد قتل من المشركين من قتل ، وأسر من أسر ، وعندئذ أخذت قريش تلعق جراحها ، وحاول شعراؤها تخفيف وقع الهزيمة عليها ، وفى سبيل ذلك قاموا بهجاء المسلمين ممن هاجروا مع رسول الله — ﷺ — وهجاء الأنصار الذين احتضنوا الدعوة الاسلامية ، ودافعوا عنها ضد أولئك المغيرين المعتدين ، وبعد الحاح من جانب المسلمين حتى يأذن رسول الله — ﷺ — لبعض الشعراء فى الرد على شعراء المشركين انتدب لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شعراء الأنصار فقال « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسيوفهم أن ينصروه بألسنتهم ، فقام حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة بهذا العبء الكبير، ووجهوا كل طاقتهم فى سبيل نصرة الاسلام والرد على من ينال من أعراض المسلمين •

لكن الأخبار تحدثنا ان حسان بن ثابت كان أكثر الثلاثة شعرا ، بل كان أشدهم مراسا وأقواهم شكيمة ، ولقد روى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له « اهجهم يا حسان وروح القدس معك، أو وجبريل معك ، وكان أبو بكر رضى الله عنه يمده بنقاط الضعف التى يستطيع بها توجيه الطعنات القاتلة لشعراء المشركين ، أما كعب بن مالك فقد عارضهم — أيضا — بمثل قولهم • وتولى ابراز قوة المسلمين العسكرية ، وانتصاراتهم فى معركة بدر ، وصمودهم أمام جموع المشركين فى المعارك الأخرى ، أما عبد الله بن رواحة فقد تولى الدفاع عن الدعوة الاسلامية من منطلق آخر ، حيث توجه الى تسفيه أحلام

المشركين ، وتعييرهم بعبادة الأصنام والأوثان ، وعلى الرغم من أن هذا الجانب كان خفيف الوطأة على المشركين فى أول الأمر الا أنهم عندما اعتنقوا الاسلام كان أشد عليهم من قول حسان وكعب بن مالك .

علم رسول الله — ﷺ — بثاقب رأيه ما يؤديه دور عبد الله بن رواحة فكان — يشجعه دائما على قول الشعر وتوجيه النقدات الصائبة لمشركى مكة ، فقد جاء فى طبقات فحول الشعراء قوله : « وقد روى عمرو بن أبى زائدة قال : سمعت مدرك بن عمارة بن عقبة بن أبى معيط يقول : قال عبد الله بن رواحة : مررت بمسجد رسول الله — ﷺ — ، وهو فى نفر من أصحابه ، فأضب(١) القوم : يا عبد الله ابن رواحة ، يا عبد الله بن رواحة ، فعرفت أن رسول الله — ﷺ — دعانى فانطلقت اليهم مسرعا فسلمت فقال : ههنا ، فجلست بين يديه ، فقال كأنه يتعجب من شعرى : كيف تقول الشعر اذا قلته ؟ قلت أنظر فى ذلك ، ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . قال : فلم أكن أعددت شيئا ، فأنشدته :

فلما قلت :

خبرونى أثمان العباء متى كنتم بطاريق ، أو دانت لكم مضر ؟ (٢)

قال : فكأنى عرفت فى وجه رسول الله — ﷺ — الكراهية اذ جعلت قومه أثمان العباء فقلت

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم
فينا النبى وفينا تنزل السور(٣)

---

(١) أضب القوم : صاحوا وجلبوا ، وتكلموا كلاما متتابعا .

(٢) العباء : كساء جاف غليظ فجعلهم أثمان العباء فى الخسة . البطاريق ، جمع بطريق : القائد الحاذق بالحرب وأمورها .

(٣) جالد بالسيف : ضارب به ، عن عرض : عن شق وناحية ، ولا يبالون من ضربوا .

وقـــد علمت بأنا ليس غالبنـــا
حى من الناس ان عزوا وان كثروا
يا هاشم الخـــير ان الله فضـــلكم
على البرية فضـــلا ماله غـــير (٤)
انى تفرست فيـــك الخـــير أعرفـــه
فراســـة خالفتهم فى الذى نظـــروا
ولو ســـألت أو استنصرت بعضهم
فى جل أمرك ما آووا وما نصـــروا
فثبــت الله مـــا آتاك من حســـن
تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فأقبل على بوجهه مبتسما ، ثم قال : واياك فثبت الله(١) ·

ولقد ذكر بعض الباحثين(٢) أن هذه الأبيات قيلت ساعة أن ودع عبد الله بن رواحة رســـول الله ـ ﷺ ـ وهو متوجـــه الى مؤتة مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وفى عددها ، ولكن رواية ابن سلام تؤكد أنها قيلت ابان الصراع الذى دار بين المشركين ورسول الله ـ ﷺ ـ ونحن نعلم أن حدة الصراع بعد صلح الحـــديبية قد ضـــعفت ، فقد ، اعترف المشركون بقوة المسلمين القتالية ، وانتشار الدعوة الاسلامية ، وما كان لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يدفع الشعراء الى النيل من قريش وهو يعلم أن الصلح معهم قد يكون بادرة خير للدخول فى دين الله ·

---

(٤) الغير : التغير ، وهو اسم بمنزلة عبء وليس له مفرد ·
(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، وشعر الدعوة الاسلامية ص ٣٦٠ ، ٣٦١ المرجع السابق ·
(٢) دكتور عبد الله الحامد : شعر الدعوة الاسلاية ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ المرجع السابق ·

نعود مرة أخرى الى تلك المعانى التى جاءت فى حديث ابن سلام عن تلك الأبيات ، والى المعانى التى حملتها الأبيات ودلالتها على منهج ابن رواحة الشعرى .

أما المعانى التى يمكن أن نستشفها من سياق رواية ابن سلام فاننا نأخذ منها أن المسلمين كانوا يعترفون بشاعرية ابن رواحة ، ويقدرون له ذلك الجهد الذى يؤديه فى سبيل الدعوة الاسلامية ، ومن أجل ذلك فانهم قاموا بتلك الجلبة وذلك الضجيج عندما رأوه ، وكأنهم رأوا فيه مدافعا لهم عما لحق بهم من شعراء المشركين ، ثم ان رسول الله ـ ﷺ ـ آثر الا أن يجلس عبد الله بين يديه ، وذلك تقدير منه لدور عبد الله فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، ورفع لمكانته ، واعلاء لمنزلته ، ثم ان رسول الله ـ ﷺ ـ كان يتعجب من شعر عبد الله بن رواحة ، وذلك التعجب مبنى على أصالة شعره وحسن بيانه ومنطقه .

أما المعانى الواردة فى هذه الأبيات فان عبد الله بذكائه وفطنتـه أيقن أن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يعجبه ذلك الهجاء الذى يتوجه الى قريش ، أو يحط من قدرهم ، لأنه واحـــد منهم ، ولذلك كان بعض الروايات تقول : انه ـ ﷺ ـ قال لحسان بن ثابت ـ كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال له حسان : انى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين وعلى ذلك فان عبدالله قال : فكأنى عرفت الكراهة فى وجه رسول الله ـ ﷺ ـ عندما قال :

فخبرونى أثمـان العبـاء متى ... كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

وعلى ذلك فقد غير من ذلك اللون الذى كرهه رسول الله ـ ﷺ ولم يستطرد فى ذلك الهجاء ، واتجه الى الفخر ولكنه الفخر ببطولتهم ، فهم شجعان اذا قاتلوا ، أبطال اذا لاقوا عدوهم ، انهم يتمكنون من أسر أعدائهم ، ويستطيعون الدفاع عن كل جانب من جوانب مجتمعهم ،

جمع كل ذلك فى قوله « نجالد الناس عن عرض فنأسرهم » أما الشق الثانى من البيت فانه افتخر فيه بوجود رسول الله — ﷺ — بينهم ، وتنزل الوحى عليه ،انهما أمران جديران بالفخر لكل من فى قلبه ايمان أو ألقى السمع وهو شهيد ، وتقديم الخبر فى قوله « فيناالنبى ، وكذلك الجار والمجرور فى قوله ، وفينا تنزل السور،فيهما من دلالة القصر ما فيهما،فهم مختصون بهذين الأمرين،وهما جديران بأن يزيدا من قوتهم، وأن يدفعاهم للقاء عدوهم بايمان ثابت وعقيدة راسخة •

واذا جاوزنا قوله « وقد علمتم ، وما فيه من بيان وتوضيح لقوله السابق ، فاننا نقف أمام بيت يمدح به رسول الله — ﷺ — من خلال مدحه لبنى هاشم جميعا ، وذلك قوله :

يا هاشــم الخير انالله فضــلكم على البرية فضــلا ماله غير

فهل يريد الشاعر بذلك تفضيل الله لبنى هاشم ، لأن رسول الله — ﷺ — منهم ، أو يريد تفضيل الله لهم فى الماضى ،لأنهم سدنة البيت وخــدامه ؟ لعل المعنى الأول أقرب الى الفهم ، وأقوى فى الدلالة على تفضيل الله لبنى هاشم ، فقد اختار منهم أعظم الناس طرا ، ثم يتوجه بعد ذلك بالخطاب لرسول الله — ﷺ — قائلا له : لقد أدركت بفراسة المؤمن أنك النبى المبعوث رحمة للعالمين ، وهذه الفراسة دفعتنى الى الايمان بما جئت به ، واليقين بأنك خير العالمين ، لقد خالفت كل الناس فى ذلك ، أو خالفت قريشا التى لم تر ما رأيته،ولم تتبين طريق الخير فران الجهل على قلوبهم ، وعمتهم غشاوة طمس الله بها على قلوبهم وأبصارهم فلم يؤمنوا بما جئت ، ثم يقول لرسول الله — ﷺ — ولو أنك طلبت من بعضهم مؤازرتك ومناصرتك لما وجدت منهم نصيرا ، وكأنه يقول لرسول الله — ﷺ — لكننى لست من هؤلاء القوم ، فأنا رجل قد وطنت نفسى على نصرة الدعوة والدفاع عنها ، وتلبية كل أمر تريده•

ويختم عبد الله حديثه بالدعاء لرسول الله ـ ﷺ ـ بأن يثبته الله على الدعوة الاسلامية مهما لقى من صنوف الأذى ، وألوان العذاب وهنا ناسب أن يأتى بالتشبيه الذى أراد به لفت الأنظار الى ما لاقى الأنبياء والمرسلون قبل رسول الله ـ ﷺ ـ فكلهم جاهد وصبر وصابر حتى كانت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم ـ

وتمر الأيام ، وتتوالى أحداثها ، ويخرج الاسلام من حيز الدفاع عن المدينة الى نشر الدعوة الاسلامية فى الجزيرة العربية كلها ، وانطلاقا من هذا المبدأ ينطلق رسول الله وصحبه لأداء نسك العمرة ، وتحول قريش بينهم ، ويكون صلح الحديبية ، ويعود الرسول الى المدينة ، ثم تكون عمرة القضاء ، ويدخل الرسول مكة ، ليطوف حول البيت الحرام، وتنطلق عقيرة عبد الله بن رواحة وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون الى هذا الموكب المهيب ، والى رسول الله وأصحابه الذين فرضوا ارادتهم على أهل مكة ، ويشد المنظر ابن رواحة لتجود قريحته بهذا النشيد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله　　خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله　　كما ضربناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله(١)

وقد رواها محقق شعر الدعوة الاسلامية هكذا :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير فى رسوله

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ المصدر السابق .

قد أنزل الرحمن فى تنـــزيله
فى صـــحف تتلى على رســوله
بأن خـير القتـــل فى ســبيله
يارب انى مــؤمن بقيــــــله
أعــرف حــق الله فى قبــوله
نحن قتلنـــاكم على تأويــــله
كمـا قتلنـــاكم على تنـــزيله
ضربا يزيل الهـــام عن مقيله
ويذهـل الخليــل عن خليــله
أو يرجع الحــق الى ســـبيله(١)

ثم يقول : أكثر الرواة يعزون المقطـوعة لابن رواحة ، ولكن ابن هشام وشرح النهج والاستيعاب ينسبون الأبيات من الخـامس وحتى الثانى عشر لعمار بن ياسر ، ثم يقول : « ويبدو أن أصل القصيدة لابن رواحة ، ثم ان عمارا تمثل بهذا الأصل فى صفين وزاد عليه ، ودليل أن الأصل لابن رواحة قوله « خلوا ٠٠ البيتين ، فذلك ظاهر فى النبى ﷺ ومما يدل على زيادة عمار قوله : نحن قتلناكم ٠٠٠ واليوم نقتلكم ، ولم يحصل فى عمرة القضاء قتال ، ثم ان معنى القتل على التنزيل ، والقتل على التأويل يشير الى الفكرة التى نادى بها أنصار على فى الفتنة ، وهى أنهم يقتلون معاوية على تأويل القرآن الخاطىء كما قاتلوا أباه يــوم بدر على تنزيله(٢) ٠

---

(١) د٠ عبد الله الحامد : شعر الدعوة الاسلامية ص ١٥٨ ــ ١٦٠ المرجع السابق ، والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٧٨٢ ــ ٧٨٤

(٢) شعر الدعوة الاسلامية ص ١٥٨ ومابعدها المرجع السابق ٠

ويبدو أن الباحث قد تابع ابن هشـــام فى نسبة الأبيات الأخيرة لعمار بن ياسر،ةابن هشام يقول بعد ذكر الأبيات التى رواها ابن سلام بزيادة قوله

يارب انى مـؤمن بقيـــله أعرف حـق الله فى قبوله

« نحن قتلناكم على تأويله ، الى آخر الأبيات لعمار بن ياسر فى غير هذا اليوم ، والدليل على ذلك أن ابن رواحة انما أراد المشركين ، والمشركون لم يقروا بالتنزيل ، وانمـا يقتل على التـأويل من أقـر بالتنزيل »(١) .

ولعلنا نطمئن الى نسبة الأبيات كاملة لابن رواحـة ، ومن الممكن أن يكون عمار قد تمثل بها فى يوم صفين،وقد جاءنا هذا الاطمئنان من حديث الأستاذ محمود شاكر محقق طبقات فحول الشعراء الذى عرض لرأى ابن هشـــام فى نسبة بعض هذا الرجز لعمار بن ياسر ، وتبعـه المؤلفون اســتنادا لرأيه فقال : « وهذا خطل من القول تهـاوى فيـه المؤلفون على سقطات ابن هشام ، ليس المراد بالتأويل فى البيت تفسير الكلام الذى تختلف معانيه ، بل التأويل هنا هو ما يؤول اليه نبـأ الله لنبيه ، ومصير المؤمنين الى ما وعدهم به كما فى قوله تعالى « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله » ، ويقول عبدة بن الطبيب

وللأحبـة أيام تذكرها وللنوى قبل يوم البين تأويل(٢)

« تأويل : علامات تبين لك أن البين سيقع » وقول عبدالله اشارة الى ما كان فى عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست قبل عمرة القضاء

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٣٧١ ، ٣٧٢ المصدر السابق .

(٢) شرح المفضليات ص ٢٦٩ ، ٢٧٠

بسنة ، من خروج رسول الله الى عمرته ، وساق الهدى لرؤيا رآها — ﷺ — أنه دخل البيت آمنا ، وحلق رأسه ، وأخذ مفتاح الكعبة، وعرف مع المعرفين ، فلما رجع عن دخول مكة بصلح الحديبية فتن المسلمون ، وكرهوا الصلح ، حتى كرهه عمر بن الخطاب ، فأنزل الله على رسوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » (الآية ٢٧ من سورة الفتح) .

فمن عام قابل أمر رسول الله أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فهذا هو التأويل وما صارت اليه موعدة الله لرسوله ، وسقط قول ابن هشام(١) :

ومما يرجح ذلك — أيضا — رواية ابن حجر : « وأخرج أبو يعلى بسند حسن عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : « دخل النبى — ﷺ — مكة فى عمرة القضاء ، وابن رواحة بين يديه وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر : ياابن رواحة ، حرم الله ، وبين يدى رسول الله — ﷺ — تقول هذا الشعر ؟ فقال : خل عنه يا عمر فوالذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل »(٢) .

---

(١) هامش ص ٢٢٤ من ج ١ طبقات فحول الشعراء . المصدر السابق .

(٢) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٦ ص ٨٠ المصدر السابق .

هذا ولعبد الله بن رواحة مقطوعات كثيرة جمعها مؤلف كتاب شعر الدعوة الاسلامية ، ونحن نعرض لها عرضا مجملا ، من ذلك قول ابن رواحة فى الايمان بالغيبيات :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ملائكة الاله مقربينا(١)

فهذه القطعة تدل على عمق ايمان عبد الله بن رواحة ، وتصديقه رسول الله — ﷺ — فى كل ما جاء به ، فهو يؤمن بالجنة ونعيمها ،وبكل ما أخبر به رسول الله — ﷺ — يؤمن بالنار وقد أعدها الله لتكون مثوى للكافرين ، ويؤمن بالعرش وفوقه رب العالمين جل وعلا ، ويؤمن بالملائكة وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وأيا ما كان سبب هذه المقطوعة فانها تدل دلالة قاطعة على تصديقه المطلق ، ويقينه الثابت ، واعتقاده فى كل جزئية من جزئيات القرآن الكريم .

ولعبد الله بن رواحة — أيضا — أناشيد كانت تنطلق من لسانه فيرددها الصحابة خلفه ، وهم يعملون أعمالا اسلامية جليلة من ذلك نشيده الذى ترنم به وهو يشارك فى بناء مسجد قباء الذى بناه رسول الله — ﷺ — ساعة نزوله المدينة المنورة فقد قال والمسلمون يرددون:

أفلح من يعالج المساجدا
ويقرأ القرآن قائما وقاعدا
ولا يبيت الليل عنه راقدا

---

(١) د. عبد الله الحامد : شعر الدعوة الاسلامية ص ١٤٥ ، ١٤٦ المرجع السابق .

وروى أن رسول الله — ﷺ — كان يردد مع الشاعر قافيته ، كلما أنشد بيتا قال : ساجدا ، قاعدا راقدا .

ولعل هذا النشيد واضـح الدلالة على حب ابن رواحة العمل فى سبيل الله — سبحانه وتعالى — وحثه المسلمين على المثابرة ، وحفزه لهم حتى تقوى عزائمهم ، وتشتد سواعدهم .

ومن ذلك قوله والمسلمون يحفرون الخندق

لاهم ان الأجر أجـر الآخرة فارحم الأنصـار والمهاجرة

وقد قيل ان المسلمين كانوا يترنمون بهـذا الرجز بينما تجيبهم طائفة أخرى قائلة :

نحن الذين بايعوا محمـدا على الجهاد ما بقينـا أبدا

هذه الأناشيد الحماسـية تقوى الروح المعنوية لدى العاملين فى المشاريع الاسلامية،ولقد كان رسول الله — ﷺ — على رأس العاملين — يحفز هممهم ويدفعهم الى مزيد من العمل ، بل روى أنه كان يردد المقطع الأخير مع المسلمين ، وهى لفتة كريمة من رسول الله — ﷺ — يعلم بها المسلمين أن الشعر له دور رائد فى نصرة الدعوة الاسلامية ، وأنه سلاح من أسلحتها لا يقل أثرا عن الأسلحة الحربية .

ونختم جولتنا فى شعر عبد الله بن رواحـة بهـذه المقطوعة التى يقول فيها :

وفينـا رسـول الله يتـلو كتـابه
اذا انشـق معـروف من الفجر سـاطع
يبيت مجـافى جنبـه عن فراشـه
اذا اسـتثقلت بالكافـرين المضـاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

وأعلم علما ليس بالظن أننى
الى الله محشور هناك فراجع(١)

هذه جولة جلناها فى شعر عبد الله بن رواحة سواء ماصحت نسبته اليه ، أم ما جاءت نسبته مضطربة بينه وبين شعراء آخرين ، ولعل القارىء لهذا الشعر يتبين منه روح الاسلام واضحة ، ومبادئه لائحة ، ولكن البحث يقتضينا أن نقف وقفة أخرى مع شعراء الفروسية ابان انطلاق مواكب النور تعم الجزيرة العربية ، ثم نعقد مقارنة بين شعره وشعراء الفروسية فى صدر الاسلام •

(١) عبد الله الحامد ، شعر الدعوة الاسلامية ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥

الفصل الرابع

الشعر والفروسية فى صدر الاسلام

شعر الفروسية أو الشعراء الفرسان لهم دور فعال في سير المعارك فهم لا يقولون الشعر من فراغ ، تذهب أشعارهم سدى ، ولا يصفون المعارك وهم بعيدون عنها ، وانما يصفون ما يحسون به ، أو ما يعتمل في صدورهم من عمق التجربة ، وحرارة اللقاء •

وتاريخ الشعر العربى يطالعنا على كثير من شعر الشعراء الفرسان الذين قالوا الشعر وهم يخوضون المعارك في سبيل المجد والشرف ، أو الذود عن الحمى ، أو في سبيل رد عدو مغير •

ولقد أوفت سيرة مهلهل بن ربيعة ، وعنترة بن شداد على الغاية في هذا الجانب ، وضرب الأخير لغيره من الشعراء مثالا لمن يريد قول الشعر في جانب البطولة والفخر ، فعنترة يصف المعارك التى خاضها ، بل يظهر لنا قوة خصومه ، وتغلبه عليهم حيث يقول في معلقته :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	ان كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى	أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله	لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة	بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه	ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه	يقضمن حسن بنانه والمعصم

وغير عنترة كثير من شعراء الجاهلية كانوا على جانب كبير من الفروسية ، بل ان الشعراء الصعاليك كانوا على درجة عالية من الفروسية فكانوا يخوضون المعارك ، ويتحدثون عن صولاتهم وجولاتهم بها ، وغير الشعراء الصعاليك من أمثال عمرو بن كلثوم ، ودريد بن الصمة وعامر بن الطفيل وغيرهم من أولئك الشعراء الذين جمعوا الى شاعريتهم قوة عزيمة ، وفداية سجلها لهم التاريخ •

وإذا كان الشعراء فى العصر الجاهلى قد خاضوا المعارك مغيرين ، أو مغارا عليهم ، وإذا كان الدافع الذى حدا بهم الى ذلك هو حماية العشيرة ، ونصرة أبناء العمومة ظالمين أو مظلومين ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك حتى لا يقال انهم قصروا فى واجب ، أو فرطوا فى عرض ، أو لم يثوروا من أجل الكرامة والشرف ، اذا كان الشعراء فى العصر الجاهلى قد فعلوا ذلك من أجل المعانى المتقدمة فان الشعراء الفرسان فى عصر صدر الاسلام قد فعلوا ذلك من أجل معانى أسمى وأعمق ، بل قاموا بذلك تحـدوهم قوة ايمان ، ورباطة جأش ، وتدفعهم الى بذل النفس والنفيس كلمات القرآن الكريم التى عمرت بها صـدورهم ، وتمثلتها أفئدتهم ، فأنارت لهم الطريق ، وهدتهم الى سواء السبيل،حتى اننا رأينا أولئك الشعراء الذين وقفوا أول الأمر ضد الاسلام وتعـاليمه ، قد تحولوا الى قوة ضاربة تنافح عن الاسلام ، وتؤدى واجبها فى سبيل رفعته وانتشاره : « ان للاسلام فى النفوس بفضل القرآن الكريم ، وما حواه من آيات بينات ، والحديث الشريف ، وما تضمنه من خطط وشروح لمواقف الحياة أمرا ليس بالهين فى النفوس العاقلة ، كما أنه ليس بالبعيد تحويل القلوب القاسية الى لينة هينة تقف مع الحق والخير ، وتطـرد الشيطان والشر ، وذلك ما لاحظناه فى كسر شوكة العديد من شـعراء الكفار ومعاداتهم للاسلام والوقوف ضده ، وتحولهم الى قوة ضاربة فى صدور الكفار ونحورهم ، فهم أعرف الناس بما كانوا فيه من ضلال وهم أقرب اليهم من غيرهم ، فكانوا عدة للاسلام ، وأداة هدم لصرح الكفر والطغيان(١) .

واليك أيها القارىء الكريم بعض الصور المشرقة التى حفلت بهـا

---

(١) د. عبد الرحيم محمود زلط : التأثير النفسى للاسلام فى الشعر ودوره فى عهده النبوة . ص ٢٦٠ ط دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض.

كتب السيرة ، وسجلتها فى سجل البطولة والأبطال هذه الصور نماذج مضيئة يقتدى بها كل من تعمق الايمان فى قلبه ، فقام يدافع عن ايمانه بسيفه ولسانه ويهتدى بها كل من أراد التحلى بأرفع وسام المهى وسام الشهادة فى سبيل الله .

مما ورد فى ذلك قول خبيب بن عدى حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصلبه :

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا
قبائلهم ، واستجمعوا كل مجمع

وكلهم مبدى العداوة جاهد
على لأنى فى وثاق بمضيع

وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
وقربت من جذع طويل ممنع

الى الله أشكو غربتى ، ثم كربتى
وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى

فذا العرش صبرنى على ما يراد بى
فقد بضعوا لحمى ، وقد ياس مطمعى

وذلك فى ذات الاله وان يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد خيرونى الكفر والموت دونه
وقد هملت عيناى من غير مجزع

وما بى حذار الموت انى لميت
ولكن حذارى جحم نار ملفع

فوالله ما أرجو اذا مت مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى

فلست بمبــد للعــدو تخشــعا
ولا جــــزعا انى الى الله مرجــعى(١)

وقصة خبيب والنفر الذين كانوا معه مثل حى لأولئك المجاهدين الذين آلوا على أنفسهم أن يكونوا اللبنات التى تبنى بها الدعوة الاسلامية لأن أولئك المجاهدين ما هم الا نماذج بشرية تعطى للأجيــال اللاحقة الأمثلة المشرفة لما بذله أولئك الفدائيون من نفس ونفيس .

وحير هؤلاء القوم أن نفرا من العضل والقارة من الهون بن خزيمة ابن مدركة قدموا على رسول الله — ﷺ — بعد أحد،وقالوا : يا رسول الله ان فينا اسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله — ﷺ — نفرا ستة من أصــحابه ، وأمر على القوم مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، حتى كانوا على الرجيع — ماء لهذيل بناحية الحجاز — غدروا بهم ، فاستصرخوا عليهم هذيلا ، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أســيافهم ليقاتلوهم ، فقالوا لهم : أنا والله ما نريد قتلكم ، لكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ، فقال مرثد بن أبى مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا،فقال عاصم بن ثابت :

مــا علتى وأنا جــــلد نابل	والقوس فيها وتر عنــابل
تزل عن صــفحتها المعــابل	الموت حق والحيــاة باطل

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، المصدر السابق ، والجحم : الملتهب والمتقد .

وكل مـا حم الالـه نـازل بالمـرء والمرء اليـه آئل
ان لم أقاتلكم فأمى هـابل(١)

ثم قال عاصم أيضا :

أبو سـليمان وريش المقعـد وضالة مثل الجحيم الموقـد
اذا النواجى افترشت لم أرعد ومجنـأ من جـلد ثور أجرد
ومؤمن بما على محمد

وقاتل عاصم القوم ، حتى قتل ، وقتل صاحباه ، وعاصم هذا هو الذى حمت الدبر رأسه لا يأخذها القوم الى مكة ، فلما تركوه الى الليل أتى الوادى واحتمل عاصما فذهب به(٢) ٠

قتل — اذن — هؤلاء الثـلاثة دفاعا عن دينهم وكرامتهم ، فهم يعلمون أنهم مقتولون لا محالة ، لأن هؤلاء الكفار الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ — لا يقبل منهم عهد ولا ذمة بعد ذلك ، وقدم الثلاثة من البطولا ت ما من شأنه أن يجعلهم فى أعلى درجات الجنة ، وهذا مرادهم ٠

أما زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق فلانوا ، ورقوا ،ورغبو فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا الى مكة ليبيعوهم بها حتى اذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طـارق

---

(١) النابل : صاحب النبل ، عنابل : غليظ شديد ، المعابل جمع معبلة وهو نصل عريض طويل ٠ حم الاله : قدره ٠ آئل : صائر ٠

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠ المصدر السـابق ٠

يده من القران ، ثم أخذ سيفه ، واستأخر عنه القوم ،فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره رحمه الله بالظهران(١) .

ذهبوا — اذن — بخبيب وزيد بن الدثنة الى مكة ، فباعوهما بأسيرين كانا لهم فى مكة ، وتقدم المشركون بزيد بن الدثنة الى القتل ، فقال له أبو سفيان — فيما يرويه ابن هشام — أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك ، نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا(٢)،وذهب زيد الى ربه راضيا مرضيا .

أتى دور خبيب فتقدم للقتل ، لكنه رأى أن يؤدى ركعتين لله — سبحانه وتعالى — فهى آخر الأعمال التى ستكون له فى الدنيا ، أو لعله حزن لأنه لم يقاتل القوم حتى القتل كما فعل أصحابه فأراد بذلك الاستغفار لذنبه . فقال لهم : «ان رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما ، وأحسنهما ثم أقبل على القوم ، وكأنه رأى فى عيونهم أنه انما صنع ذلك خوفا من القتل ، أوتأجيلا له فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى انما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة — فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، وعندما رفعوه على خشبة ، وأوقفوه تمهيدا لقتله قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٧١ المصدر السابق .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٧٢ المصدر السابق .

تغادر منهم أحدا ، ثم قتلوه رحمه الله(١) •

وهكذا تكتمل حلقـات تلك الفـدائية باستشهاد ستة من المسلمين كانوا على موعد مع الشهادة ، بل كانوا على موعد مع التاريخ يكتبهم فى صفحاته المشرقة ، ويسجلهم فى سجل الشرف والفخار •

يقول حسان بن ثابت فى رثاء خبيب :

ما بـال عينـك لا ترقا مدامعها
سحا على الصـدر مثل اللؤلؤ القلق
على خبيب فتى الفتيان قـد علموا
لا فشـل حين تلقـاء ولا نزق
فاذهب خبيب جزاك الله طيبـة
وجنـة الخـلد عند الحور فى الرفق
ماذا تقـولون ان قال النبى لـكم
حين الملائكـة الأبرار فى الأفق
فيم قتلتم شـهيد الله فى رجـل
طاغ قـد أوعث فى البلدان والرفق(٢)

ويسجل حسان بن ثابت أسماء الشهداء الستة فيقول :

صـلى الاله على الذين تتابعـوا
يوم الرجيـع فأكرموا وأثيبـوا

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ١٧٣ المصدر السابق •
(٢) البداية والنهاية فى التاريخ ج ٤ ص ٧٧ المصدر السابق •

رأس السرية مرثد وأميرهم
وابن البكير امامهم وخبيب
وابن لطارق وابن دثنة منهم
وافاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجيعهم
كسب المعالى انه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره
حتى يجالد انه لنجيب(١)

والأمثلة على ذلك كثيرة ، لأن المتتبع لبطولات المسلمين فى صدر الدعوة الاسلامية يعييه الحصر ، فهو أمام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا .

ويبدو أن فن الرجز كان له مجال كبير لدى العرب ، وقد أقرهم رسول الله — ﷺ — عليه،بل انه أقرهم على مشيتهم وهم يرتجزون،فقد ورد فى السيرة النبوية أن رسول الله — ﷺ — قال يوم أحد : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام اليه رجال،فأمسكه عنهم ، حتى قام اليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعده فقال:وما حقه يا رسول الله؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه يارسول الله بحقه ،فأعطاه اياه ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب اذا كانت ، وكان اذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله — ﷺ أخرج عصابته فعصب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله — ﷺ — حين رأى أبا دجانة يتبختر : انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن(٢) .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٧٨ المصدر السابق .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٦٦ — ٦٧

ووفى أبو دجانة بوعده لرسول الله — ﷺ — فقاتل بسيفه قتال من لا يرهب الموت وهو يقول :

أنا الذى عاهـدنى خليـــلى	ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقيم الدهر فى الكيـــول	أضرب بسيف الله والرسول(١)

قال ابن هشام .. فجعل أبو دجانة لا يلقى أحدا الا قتله . وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحا الا ذفف عليه أى أجهز عليه فجعل كل منهما يدنو من صـــاحبه ، فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله .

ولقد أبى أبو دجانة أن يقتل بسيف رسول الله — ﷺ — هنـــدا بنت عتبة حين تمكن منها ظنا منه أنها رجل يحمس الناس ، فلما علمت أنه القتل ولولت فعلم أنها امرأة ، فأكرم سيف رسول الله أن يقتل به امرأة(٢) .

وهذه أيضا صورة مشرقة منصور البطولة تسجلها لنا كتب السير حتى نأخـذ منها درســا فى الدفاع عن الدين ، والاستبسال فى سبيل العقيدة .

ومن تلك الصور المشرقة صورة الشاعر « عبادة بن بشر الأشهلى الأنصارى الذى شهد مع رسول الله — ﷺ — المشاهد كلها ، وأستشهد يوم اليمامة ، فقد أرسله رسول الله — ﷺ — مع أربعة من المجاهدين الفدائيين للقضـــاء على اليهودى الحاقد الذى كان يقول شـــعرا فى

---

(١) السفح : جانب الجبل ، الكيول آخر الصفوف فى الحرب .

(٢) البداية والنهاية فى التاريخ جـ ٤ ص ١٩ ، ٢٠

التحريض على المسلمين ، ويجمع الجموع للاغارة عليهم ، لأنه كان قد غاظه انتصار المسلمين فى بدر ، فذهب هذا الفدائى مع أصحابه لينفذ أمر رسول الله — ﷺ — ، ولكنه لابد أن يجد له حيلة يحتال بها على اليهودى ، حتى يخرجه من حصنه فيتمكن من قتله ، فنادى عليه وهو يعرفه من قبل أنه يريد رهن درع له لحاجته الشديدة الى ذلك ، فنزل اليهودى وخرج من حصنه ليقابل عبادة بن بشر ، فسدد اليه الطعنات التى قضت عليه ، ثم صور هذا الموقف فقال :

صرخت له فلم يعرض لصـوتى	ووافى طالعا من رأس جـدر
فعـادت له فقال من المنـادى ؟	فقلت أخوك عبـاد بن بشر
وهـذى درعنـا رهنا فخـذها	لشهران وفت أو نصف شهر
فأقبل نحـونا يسـعى سريعـا	وقال لنا لقـد جئتم لأمر
فشـد بسـيفه صلتا عليـه	فقنطـره أبو وعيسى بن جبر
وكان الله سادسـنا فأبنـا	بأنعم نعمـة وأعـز نصر
وجـاء برأسـه نفـر كرام	هم ناهيـك من صـدق وبر(١)

وصور البطولة فى صدر الاسلام لا تحصى ، وأماراتها لا تخفى ، والمتتبع لها فى بداية الدعوة الاسلامية يجد لها نماذج مضيئة ، ولكننا نريد عرض نماذج من بطولة الشعراء ، حتى ندرك أن هناك مجموعة من الشعراء لم يكن همهم الكلمة فحسب ، أو اعمال اللسان فقط ، حتى اذا جد الجد ، ونادى المنادى حى على الجهاد رأيتهم يأوون الى جحورهم أو يقفون خلف الصفوف .

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١٩٥ الطبعة الأولى — مطبعة السعادة بمصر .

وإذا كانت الصور المتقدمة تمثل شعر بعض المقلين فان البحث يفرض علينا أن نقدم نماذج لبعض الشعراء المكثرين الذين دافعوا عن الاسلام بألسنتهم وأسنتهم ، حتى نتمكن من الموازنة بينهم وبين عبد الله بن رواحة ، أو بالأحرى بين شعرهم وشعره •

يأتى فى مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر المجاهد « كعب بن مالك الأنصارى — رضى الله عنه الذى جرد لسانه وسنانه لنصرة الدعوة الاسلامية ، وقد كان ثالث ثلاثة أسهموا بشعرهم ، وسجل التاريخ روائع لهم ، وقدم المؤرخون سيرتهم مصحوبة بكل ألوان العظمة والتقدير •

لقد قاتل كعب بن مالك يوم أحد قتال الأبطال ، ودافع عن رسول الله — ﷺ — دفاع من لا يرهب الموت وقد كان أقرب الناس الى رسول الله — ﷺ — ، حتى ان الناس عندما سرت بينهم مقولة تقول : « ان رسول الله ﷺ — قد استشهد — كان كعب بن مالك أول من عرف أنه حى قال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى يا معشر المسلمين : أبشروا هذا رسول الله — ﷺ — فأشار الى رسول الله — ﷺ — أن أنصت(١) •

ولقد قيل ان كعب بن مالك لبس لأمة رسول الله — ﷺ — وكانت بيضاء ، ولبس رسول الله — ﷺ — لأمته وكانت صفراء ، فاتجه المشركون بنبلهم الى كعب بن مالك ، ظنا منهم أنه رسول الله — ﷺ

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٨٣ المصدر السابق ، وانظر للمؤلف : كعب بن مالك الأنصارى حياته وشعره ، مطبعة الأمانة ١٩٨٦ • الناشر دار المعارف — مصر •

ولكعب بن مالك قصائد كثيرة يرد بها على شعراء المشركين من أمثال ضرار بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبعرى ، وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الذين أظهروا الشماتة لما نالوه من المسلمين فى أحد ، وله قصائد فى كل غزوة من غزوات رسول الله ﷺ — يسجل فيها بطولات المسلمين ، ويبرز تضحياتهم فى سبيل رفعة كلمة الله ، وترثى شهداءهم ، ولكننا نكتفى هنا بذكر قصيدته اللامية التى يقول فيها :

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم
أهل اللواء ففيما يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم لنا مدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل
ان تقتلونا فدين الله فطرتنا
والقتل فى الحق عند الله تفضيل
وان تروا أمرنا فى رأيكم سفها
فرأى من خالف الاسلام تضليل
فلا تمنوا لقاح الحرب واقتعدوا
ان أخا الحرب أصدى اللون مشغول(١)
ان لكم عندنا ضربا تراح له
عرج الضباع له خذم رعابيل(٢)

---

(١) لقاح الحرب : زيادتها ونموها ، أصدى اللون : لونه بين السواد والحمرة ، مشغول : من الشغل .

(٢) تراح له : تفرح وتهتز ، الخذم : بضم الخاء : قطع اللحم ، الرعابيل : المتقطعة .

انا بنـــو الحرب نمــريها وننتجهـــا

وعـدنا لذوى الأضغان تنكيـــل(١)

أن ينج منها ابن حرب بعدما بلغت

منه التراقى وأمر الله مفعـــول(٢)

فقد أفـــــادت له حلمـــا وموعظة

لمن يكـــــون له لب ومعقـــــول

ولو هبطتم ببطن الســـــيل كافحكم

ضرب بشاكلة البطحاء ترعيـــل(٣)

تلقـــــاكم عصب حـــول النبى لهم

ممـــــا يعـــدون للهيجـــا سرابيـــل

من جذم غســـان مسترخ حمائلهم

لا جبنـــاء ولا ميـــل معـــازيل(٤)

يمشون تحت عمـــايات القتـــال كما

تمشى المصاعبة الأدم المراسيل (٥)

أو مثـــل مشى أســـود الظل ألثقها

يوم رذاذ من الجوزاء مشمو ل(٦)

---

(١) نمريها : نستدرها ، ننتجها من النتاج ، الأضغان : العداوات

(٢) التراقى : عظام الصدر .

(٣) كافحكم : واجهكم ، بشاكلة : بطرف ، البطحاء : الأرض السهلة ، الترعيل : الضرب السريع .

(٤) جذم : أصل ، حمائلهم : حمائل سيوفهم ، الميل : جمع أميل : الذى لاترس له ، المعازيل : من لا رماح لهم .

(٥) عمايات القتال : ظلماته ، المصاعبة : الفحول من الابل ، الأدم الابل البيض ، المراسيل : التى يمشى بعضها أثر بعض .

(٦) ألثقها : بلها ، الرذاذ : المطر الضعيف ، الجوزاء : نجم معروف المشمول : الذى هبت فيه ريح الشمال .

فى كل ســــابغة كالنهى محكمــــة

قيامها فلج كالسيف بهلــــول(١)

ترد حـــد قرام النبل خاســـئة

ويرجع السيف عنها وهو مفلول (٢)

ولو قذفتم بســــلع عن ظهـــوركم

وللحياة ودفع الموت تأجيـــل(٣)

مازال فى القــوم وتر منكم أبدا

تعفــو السلام عليه وهو مطلول(٤)

عبد وحر كـــريم موثق قنصـــا

شطر المدينة مأسور ومقتـــول (٥)

كنا نؤمــــل أخـــراكم فأعجلكم

منا فوارس لا عزل ولا ميــل(٦)

اذا جنى فيهم الجـــانى فقد علموا

حقا بأن الذى قد جر محمـــول

ما نحن لا نحن من اثم مجـــاهرة

ولا ملوم ولا فى الغرم مخذول(٧)

---

(١) السابغة : الدروع ، النهى : الغدير من الماء قيامها : القائم بأمرها ، فلج : نهر ، البهلول : الأبيض .

(٢) خاسئة : ذليلة .

(٣) سلع : جبل .

(٤) يعفو : يدرس ويتغير ، الســلام : الحجارة ، مطلول : لم يؤخذ بثاره .

(٥) القنص : الصيد ، شطر المدينة : نحوها وقصدها .

(٦) الميل : الذى لا تراس له .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية : ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٩ المصدر السابق .

والقارىء لهذه القصيدة يدرك منهج كعب بن مالك الأنصارى — رضى الله عنه — فى الرد على شعراء المشركين ، فهو يذكرهم بما وقع لهم يوم أحد ، فقد قتلوا سراتهم الذين كانوا يحملون اللواء ، وهؤلاء وحدهم لقتلهم شأن كبير ، انهم سادتهم وكبراؤهم الذين أضلوهم السبيل ، ثم يذكهم بيوم بدر الذى هزموا فيه هزيمة منكرة ، ولكنه لم يستطرد هنا فى سرد أحداث بدر ، لأنه ذكر ذلك فى قصائد أخرى له ، ولكنه اكتفى بتذكيرهم بجند الله التى آزرتهم،ان جيش الاسلام يكفيه يومها أن أمده الله بمدد من عنده ، انه جبريل وميكال اللذان كانا على رأس ملائكة الله فى هذا اليوم العظيم •

ثم يذكرهم أيضا بالفرق الكبير بين قتلى المسلمين وقتلى المشركين فقتلانا فى الجنة ، لأنهم يدينون بدين الحق وهذا وحده كفيل يجعل الشهداء فى الجنة ، أما قتلاكم فانهم فى النار ، لأنهم خالفوا ما جاء به دين الاسلام ، ثم يحذرهم من اشعال نار الحرب ، فهى تجعل المرء فى شغل من أمره ، أما اذا حدث وصنعتم ذلك فان لكم عندنا ضربا قويا تفرح له عرج الضباع ، لأنها ستجد لها طعاما من أشلائكم •

ثم يذكرهم بما للأوس من تاريخ حافل بألوان البطولات — وهو لا تخلو منه قصيدة من قصائده — فهم بنو الحرب يحلبونها فتنتج قوة يخشى كل من عرفهم من أولئك الذين يحملون لهم ، عداوات أو يدفعون أنفسهم لملاقاتهم •

ويستمر كعب بن مالك فى تهديد المشركين بقوة المسلمين ممثلة فى ساكنى المدينة الذين يلتفون حول رسول الله — ﷺ،وهم من الغساسنة الذين لا يجبنون عن ملاقاة عدوهم •

وجانب الفخر فى هـذه القصيدة تبـدو عليه النزعة الجـاهلية المتمثلة فى الفخر بالأحساب والأنساب ، وذكر مصادر القـوة المادية ، فالقوة العددية ، والتمكن من الحرب ، والاستعداد لملاقاة عدوهم ، كل ذلك لون من الفخر ينسجم وفخر المشركين الذين كانوا يلحـون على هذه المصادر ، وهذا أمر لم يرد فى شعر عبد الله بن رواحة الاسـلامى الذى افتخر فيه بمبادىء الاسلام ، وتعاليم القرآن ، وانضمامه تحت لواء الرسول — ﷺ — كقوله .

يا رب لـــولا أنت ما اهتـــدينا
ولا تصـــدقنا ولا صـــلينا
فأنزلن ســـكينة علينـــــا
وثبت الأقـــدام ان لاقينــــا

واذا كان عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك — رضى الله عنهما — قد دافعا عن الاسلام بسيفهما ولسانيهما ، فان ثالثهما حسان بن ثابت قد اكتفى بالجانب الأخير ، فكان لسـانه أشد على المشركين من وقـع النبل ، وكان جبريل يناصره فى ذلك ، ولهذا فان شعر حسان كان أكثر ، وأثره أقوى ، لأن كعبا وعبد الله لم يتفرغا لقول الشعر ، وانمـا كانا يؤديان واجب الجهادفى سبيل الله ، غير أن شعرهما كان يمثل الواقعية بكل جوانبها ، فلم يصفا الحرب عن بعد ولم يقولا فيها على السماع — كما صنع حسان — وانما خاضا غمـارها ، واصطليا بنارها ، وذاقـا مرارتها فكان شعرهما أصدق عاطفة من شعر صاحبهما .

واذا كنا قد قدمنا نموذجا من شعر كعب بن مالك وهو معـاصر لعبد الله بن رواحـة ، ومن السـابقين الى الاسلام فان هناك شعراء قد تأخر اسلامهم قليلا ، وكانوا من أرباب السيف واللسان فى الجاهلية ، ثم ساروا على نفس النمط بعد اسلامهم ، فكانت لهم بطولات سجلها

لهم تاريخ الحروب سواء فيما بقى من غزوات ، أو فى حروب الردة ، أو فى تلك الحروب التى خاضها المسلمون لنشر كلمة الاسلام،والدفاع عن حياضه •

والدفاع عن الدعوة الاسلامية الذى ترمى اليه هو الدفاع بالسنان واللسان ، لأن المدافعين بسيوفهم « فقط » كثيرون ، كانوا جنودا مغاوير ، ورجالا وضعوا أرواحهم على أكفهم ، فكان الموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ، والمدافعين بألسنتهم فقط يبذلون جهدهم فى تحميس الجند والذب عن حومة الدعوة الاسلامية ، ولكنهم لم يخوضوا معارك ، ولم يحسوا بحرارتها فهذا ليس من طبعهم ، انهم لم يتمرسوا على استعمال سيف ، أو يتدربوا على رمى برمح ، تروعهم الدماء ، ويفزعهم منظر القتلى ، فتضطرب له نفوسهم ، وترتعد فرائصهم •

فاذا تجاوزنا الفترة الأولى من الحروب الاسلامية التى دارت رحاها فى المدينة وما جاورها ، فاننا نجد شعراء خاضوا غمار المعارك التالية لفتح مكة •

فى مقدمة هؤلاء الشاعر الفارس « العباس بن مرداس بن أبى عامر بن حارثة بن عبد بن عبس بن رفاعة بن الحارث ب يحيى ابن الحارث بن بهيئة بن سليم أبو الهيثم السلمى »(١) •

لم يكن العباس من السابقين الى الاسلام ، وانما كان اسلامه قبيل الفتح ، ويقال انه لقى رسول الله — ﷺ — بالمشلل،وهو متوجه

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر تحقيق د• طه محمد الزينى جـ ٥ ص ٣٣٠ مطبعة الفجالة الجديدة — القاهرة •

الى فتح مكة ، ومعه سبعمائة من قومه فشهد بهم الفتح »(١) .

«قال ابن هشام : وكان اسلام عباس بن مرداس فيما حدثنى بعض أهل العلم بالشعر ، وحديثه انه كان لأبيه مرداس وثن يعبده ، وهو حجر يقال له « ضمار » فلما حضر مرداس قال العباس : أى بنى : اعبد ضمار فانه ينفعك ، ويضرك ، فبينا عباس يوما عند ضمار اذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها
أودى ضمار وعاش أهل المسجد
ان الذى ورث النبوة والهدى
بعد ابن مريم من قريش مهتدى
أودى ضمار وكان يعبد مرة
قبل الكتاب الى النبى محمد

فحرق عباس ضمار ، ولحق بالنبى — ﷺ — فأسلم(٢) .

هذه القصة التى رواها ابن هشام ، وأثبتها أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى يتشكك فيها بعض الباحثين المعاصرين ، وذلك حيث يقول : « وفى قصة اسلامه طرافة لا تخلو من افتعال نرويها هنا لا تثبيتا لصحتها ، بل لما فيها من دلالة على شخصية العباس وعصبيته وأعرابيته »(٣) .

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٥ ص ٣٣٠ المصدر السابق .
(٢) السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٢٧ المصدر السابق .
(٣) د. يحيى الجبورى : شعر المخضرمين ، وأثر الاسلام فيه ص ٢١٤ ط مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

ويتابع الكاتب حديثه بعد ذكر الأبيات الثلاثة المتقدمة فيقول :
« قال : أى العباس : « فكتمت الناس ذلك ، فلم أحدث به أحدا ،حتى انقضت غزوة الأحزاب ، فخرج يوما الى ابله فأخذته سنة من النوم ، فنز آى رجل وقور يخبره بالبشير ، فوثب مذعورا ، وأيقن أن محمدا رسول الله ، وقد أوصى راعى ابله قال : « من سألك عنى فحدثه انى لحقت بيثرب ، ولا أحسبنى ان شاء الله تعالى الا آتيا محمدا ، وكائنا معه،فانى أرجو أن هذا أمر نقوله،ونحن ازاء هذه القصة التى ذكرها العباس بن مرداس فى سبب اسلامه ، ولعلها تشير أيضا الى هداية الله لخلقه ، فاذا أراد الله بانسان خيرا سخر له مخلوقاته تدفعه دفعا الى تنفيذ ارادته ، ولعل ذلك الأمر ييسر علينا فهم كثير مما استغلق علينا فهمه « وما يعلم جنود ربك الا هو ، وما هى الا ذكرى للبشر » (الآية ٣١ من سورة المدثر) •

وعلى أية حال فان العباس بن مرداس أسلم وحسن اسلامه،وكان جنديا من جنود الاسلام الأشاوس وفرسانه المغاوير ، فقد اشترك مع رسول الله — ﷺ — فى فتح مكة وله فى ذلك شعر يقول فيه :

منا بمكة يوم فتح محمد
ألف تسيل به البطاح مسوم
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه
وشعارهم يوم اللقاء مقدم(١)

وعندما تم لرسول الله فتح مكة خرج يريد هوازن « معه ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفا »(٢) فقال العباس بن مرداس فى ذلك

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٢٦ المصدر السابق •
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٤٠ المصدر السابق

يهدد هوازن ويطلب منها التسليم لرسول الله - ﷺ :

أبلــغ هــوازن أعلاها وأســفلها
منى رســـالة نصــح فيه تبيــان
أنى أظن رســـول الله صابحكم
جيشا له فى فضــاء الأرض أركان
فيهم أخوكم ســليم غــير تارككم
والمسلمون عبـــاد الله غســـان
وفى عضـــادته اليمنى بنو أســد
والأجريان بنـــو عبس وذبيـــان
تكــاد ترجف منه الأرض رهبتــه
وفى مقـــدمة أوس وعثمـــان(١)

فهذا تهديد شبيه بتهديد كعب بن مالك الأنصارى الذى قاله حين فرغ رسول الله - ﷺ - من حنين وأجمع المسير الى الطائف فقـال كعب بن مالك :

قضـــينا من تهـــامة كـــل ريب
وخيبـــر ثم أجمعنـــا الســـيوفا
نخـــيرها ولو نطقـــت لقـالت
قواطعهن دوســـا أو ثقيفـــا (٢)

ولقد أثبت ابن هشام للعباس بن مرداس قصائد كثـــيرة فى كل المعارك التى خاضها فى سبيل نصرة الاسلام من ذلك قوله يوم حنين :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٤١ المصدر السابق وسمو الأجربين تشبيها لهما بالأجرب الذى يفر الناس منه .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٧٩ ، المرجع السابق .

يا خـاتم النبـآء انك مرسـل
بالحق كل هـدى السبيل هداكا(١)
ان الالـه بنى عليك محبـة
فى خلقـه ومحمـدا سماكا
ثم . الذين وفـوا بما عـاهدتهم
جنـد بعثت عليهم الضحاكا (٢)
رجلا به ذرب السـلاح كـأنه
لما تكنفـه العدو يراكـا (٣)
يغشى ذوى النسب القريب وانمـا
يبغى رضـا الرحمن ثم رضـاكا
أنبيك أنى قـد رأيـت مكـره
تحت العجاجة يدمـغ الاشراكا(٤)
طـورا يعـانق باليدين وتـارة
يفـرى الجمـاجم صارما بتاكا(٥)
يغشى به هـام الكمـاة ولو ترى
منـه الذى عاينت كان شـفاكا(٦)

---

(١) النبآء : جمع نبىء .

(٢) الضحاك : هو الضحاك بن سفيان الكلابى كان قائد بنى سليم وأبلى فى المعركة بلاء حسنا .

(٣) ذرب السلاح : حدته ومضاؤه ، تكنفه : أحاطه .

(٤) العجاجة : الغبار المنتشر ، يدمغ : يقهر ويذل وهو من الضرب على الدماغ .

(٥) يفرى : يقطع . بتاكا : قاطعا .

(٦) الهام : الرؤوس ، الكماة جمع كمى : الشجاع .

وبنو ســـليم معنقــون أمــامه
ضربا وطعنا فى العــدو دراكا(١)

يمشـــون تحت لوائه وكأنهم
أسـد العــرين أردن ثم عراكـا

ما يرتجـــون من القــريب قرابة
الا لطـــاعة ربهم وهـــواكا

هذى مشـــاهدنا التى كانت لنـا
معروفـــة وولينـــا مولاكــا(٢)

لقد أثبت هذه القصيدة كاملة حتى يتبين من خلالها منهج العباس ابن مرداس فى الدفاع عن الدعوة الاســلامية ، فهو يفتتح قصــيدته بمدح الرسول — ﷺ — ، فهو خـاتم الأنبياء ، — مرسل بالحق — يهدى للتى هى أقوم — ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصــالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وهى صــفات وصفه الله بهـا فى كثير من آى الذكر الحكيم ، والله — سبحانه وتعالى — قد وضع محبته فى قلوب المؤمنين به ، فألف بين القلوب المتنافرة ، وجعلها تخفق بحب رسول الله — ﷺ — ثم ان الله — سبحانه وتعالى — سمى رســوله محمدا — وفى هذه التسمية دلالة قاطعة على رفعة ذكره — ﷺ — ٠

ثم يخلص من ذلك الى الحديث عن أولئك الجند الذين صــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فســاروا للقاء العدو لا يبغــون من وراء ذلك الا اعلاء كلمة التوحيد ، ونشر دين الله ، والقضاء على عبادة الأصنام والأوثان هؤلاء الجند ساروا للقاء عدو الله وعدوهم يتقدمهم الضحاك

---

(١) معنقون : مسرعون ، دراكا : متتابعا ٠
(٢) السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٦١ المصدر السابق ٠

ابن سفيان الكلابى الذى قاد بنى سليم فى هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا ، وقد كان قويا شجاعا ذرب السلاح ، وذرابة السلاح تعنى قوته وحسن استخدامه كذرابة اللسان التى تعنى فصاحته وحسن بيانه،وهو فى استخدامه السلاح ، وقتاله العدو يقـاتل بشراسة كأنه ينظر اليك فيزيده النظر قوة ، ويدفعه الى التقـدم ، لا يرهب العـدو ولايخشى قوته ، انه يصنع ذلك كله ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى،ثم رضا رسوله — ﷺ •

ثم تأتى الأبيات التالية يعطى بها لمحة خاطفة ، حيث يعلم الرسول — ﷺ — أنه خاض المعركة مع الضحاك ، فقد رأى مكره وقـد تكاثف غبار المعركة ، وحمى وطيسها ، والضحاك يتقدم ليقهر العـدو ويلحق به الهزيمة ، ثم يقول لرسول الله — ﷺ — لقد رأيت تحركاته،فتارة يعانق خصمه بيديه فيخنقه ويقضى عليه ، وطورا يقطع رأس خصـمه بسيفه الصارم ، لقد أعمل سيفه فى رؤوس أعدائه ولو أنك — يا رسول الله — عاينت ما عاينت منـه لأثلج صدرك ، وشفى غليله من هـؤلاء الأعداء •

ثم يتجه بالحديث الى أولئك الجند من بنى سليم — الذين كانوا فى كتيبة الضحاك ، فهم ينطلقون أمامه يطيعون أمره ، وينفذون تعاليمه، ويكرون كما يكر طعنا وضربا فى عدوهم،ويتابعون ذلك،حتى يستأصلوا شأفته ، ولن تقوم له بعد ذلك قائمة ، ولقد استطرد كثيرا فى الحـديث عن بنى سليم انهم يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين تخرج لتبحث عن عراك تندفع نحوه ، أو تدفع كل من يريد الحوم حول هذا العرين ، انهم لا يرتجون من قريب لهم قرابة ، وانما ينشدون ذلك طاعة لربهم، واثلاجا لصدر رسولهم ، ثم يقول : اننى يا رسول الله أقدم لك صورة حية من جهادنا فى سبيل الله ، ونحن فى ذلك لا نبغى الا مرضـاة الله

ـ سبحانه وتعالى ـ ، فهو ولينا ومولانا ، انه نعم المولى ونعم النصير •

لقد اتضح للقارىء من خلال تحليلنا لهذه القصيدة منهج العباس ابن مرداس فى قصائده التى قالها بعد أن اعتنق الاسلام ، فهو يبدؤها بمدح رسول الله ـ ﷺ ـ ، ثم يذكر قوتهم المتمثلة فى قائدهم الذى تقدمهم للمعركة ، ثم هؤلاء الرجال الذين تقدموا لملاقاة عدوهم ، لا يخشون فى الحق لومة لائم ، وهم فى ذلك لا يرجون الا مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى •

لقد ظهر تأثره بأسلوب القرآن الكريم فى صفات رسول الله ـ ﷺ ـ التى وصفه بها فى أول القصيدة ، فهو خاتم الأنبياء ، وهو مرسل بالحق ، وهو يهدى الى سواء السبيل ، وكلها صفات ورد ذكرها فى القرآن الكريم قال تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء) ، وقال تعالى « يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » (الآيات من ٤٥ـ٤٨ من سورة الأحزاب) •

وقوله ـ عند حديثه عن الضحاك ـ انه لا يبغى بذلك الا رضا الرحمن متأثر فيه بما جاء فى القرآن الكريم ، لأن كلمة «الرحمن الرحيم» لم يكن العرب يستعملونها قبل الاسلام •

وهكذا ينطبع شعر العباس بن مرداس بطابع القرآن الكريم ، وتظهر فيه أساليبه واضحة على الرغم من أنه ليس من السابقين الى الاسلام •

ويبدو أن ابن هشام قد جمع كثيرا من شعر العباس بن مرداس فى غزوة حنين سواء ما قيل قبل الغزوة أو بعدها ، فله فى مدح

الرسول — ﷺ — وموقف قومه منه يوم فتح مكة قوله :

يأيهـا الرجـل الذى تهـوى به
وجنـاء مجمرة المناسم عرمس(١)

امـا أتيت عـلى النبى فقـل له
حقـا عليك اذا اطمـأن المجلس

يا خـير من ركب المطى ومن مشى
فـوق التراب اذا تعـد الأنفس

انا وفينـا بالـذى عـاهدتنا
والخيل تقدع بالكماة وتضرس(٢)

اذ سـال من أفنـاء بهشـة كلها
جمـع تظل به المخارم ترجس (٣)

حتى صـبحنا أهـل مكـة فيلقا
شهباء يقـدمها الهمام الأشوس(٤)

من كل أغـلب من سـليم فوقه
بيضـاء محكمة الدخال وقونس(٥)

---

(١) تهوى : تسرع ، الوجناء : الناقة الضخمة ، أو الغليظة الوجنات البارزتها ، وذلك يدل على غئور عينيها ، وهم يصفون الابل بغئور العينين عند طول السفار ، والمجمرة المجتمعة المنضـمة ، وذلك أقوى لها ، والمناسم : جمع منسـم ، مقدم خف البعـير ، والعرمس : الشـديدة ، وأصلها الصخرة الصامدة .

(٢) تقدع : تكف ، تضرس : تجرح .

(٣) سال : ارتفع ، بهشة : هى من سليم ، المخازم : الطرق فى الجبال ، ترجس تهتز وتتحرك .

(٤) صبحناهم : أتيناهم بفيلق عند الصبح ، شهباء : لها بريق من كثرة السلاح ، الهمام : السيد : الأشوس : الذى ينظر نظر المتكبر .

(٥) الأغلب : الشديد ، محكمة الدخال : قوية نسـج الدروع ، القونس : أعلى بيضة الحديد .

ويستمر فى القصيدة كعادته يصف قومه بالقوة والشجاعة والاقدام، ويذكر فى القصيدة نفسها موقفهم يوم حنين ، وما فعلوا بهوازن الذين تفرقوا أيدى سبا بعد هزيمتهم فيقول :

وعـــلى حنين قـــد وفى من جمعنا
ألف أمد به الرســول عرندس(١)

كانوا أمـــام المؤمنـــين دريئـــة
والشمس يومئـــذ عليهم أشمس(٢)

نمضى ويحرســـنا الاله بحفظـــه
والله ليس بضـــائع من يحـــرس

ولقـــد حبســـنا بالمناقب محبسا
رضى الاله به فنعـــم المحبس(٣)

وغـــداة أوطاس شـــددنا شدة
كفت العـــدو وقيل منها يا احبسوا

تدعو هـــوازن بالاخاوة بيننـــا
ثـــدى تمـــد به هـــوازن أيبس

حتى تركنـــا جمعهـــم وكـــأنه
عير تعـــاقبه السباع مفرس (٤)

---

(١) عرندس : شديد ·

(٢) دريئة : مدافعة واقية ، أشمس : جمع شمس يريد لمعان الشمس فى كل درع وسيف وبيضة وسنان فكأنها شموس ·

(٣) المناقب : اسم طريق الطائف من مكة ·

(٤) العير : الحمار الوحشى ، مفرس معقور : افترسته السباع · انظر ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، والروض الأنف جـ ٧ ص ١٩٠ ، ١٩١ ط دار الكتب الحديثة ، القاهرة ·

ونختتم جولتنا مع العباس بن مرداس بذكر قصيدته التى قالها فى غزوة حنين أيضا وهى :

من مبلــــغ الأقــوام أن محمــدا
رســول الالــه راشد حيث تممــا
دعا ربه واســتنصر الله وحـــده
فأصبح قد وفى اليـــه وأنعمــا
سرينا وواعدنا قـــديدا محمــدا
يؤم بنا أمــرا من الله محكمــا
تماروا بنــا فى الفجر حتى تبينــوا
مع الفجر فتيــانا وغابا مقـــوما
على الخيــل مشدودا علينا دروعنــا
ورجــــلا كدفــاع الأتى عرمرما
فان سراة الحى ان كنت ســـائلا
ســليم وفيهم منهم من تســـلما
وجند من الأنصــار لا يخــذلونه
أطاعوا فما يعصونه ما تكلمــا (١)

ويستمر فى القصيدة على نفس النهج الذى ســلكه فى قصــائده السابقة فى تبيان قوة قومه وبسالتهم واقدامهم ، وهو دائما يلح على ذكر عددهم « ألف » مقاتل يتقدمون الصفوف ، لأنهم خبيرون بحرب الصحراء وهم مدربون على معرفة طرق البادية .

ومنهج العباس بن مرداس الشعرى منهج الشعراء الجاهليين قوة ألفاظ وجزالة عبارات ، واحكام نسج غير أنه تأثر كثير بما جاء فى القرآن

---

(١) السيرة النبوية ق٢ ص ٤٦٩ والروض الأنف جـ٧ ص١٩٣، ١٩٤

الكريم من حديث عن المؤمنين الذين نصروا رســول الله — ﷺ — والذين أطاعوا أمره ، وأنصتوا لقوله ٠

ويبدو أن العباس بن مرداس سكت عن قول الشـــعر بعد ذلك فلم يرو له ابن اسحاق شعرا آخر غير ذلك الشعر الذى قاله فى غزوة حنين والطائف ، على الرغم من أنه توفى فى خلافة عمر بن الخـــطاب ســـنة ١٨ هجرية ٠

واذا صحت رواية الأغانى التى تفيد أن أمه الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد(١) فان العباس بن مرداس يكون قد اكتسب شاعريته من أمه ، ونقول : اذا صحت رواية الأغانى لأن ابن حجر يقول : «وزعم أبو عبيدة أن الخنساء الشاعرة المشهورة أمـــه ٠ وقد استشهد علمـــاء اللغة بشعره ، بل ان النقاد كانوا يولونه عنايتهم فقد سأل عبد الملك ابن مروان جلساءه عن أشجع الناس فى شعره ، فتكلموا فى ذلك فقال : أشجع الناس العباس بن مرداس فى قوله :

أكر على الكتيبـــــة لا أبالى   أحتفى كان فيها أم سواها؟ !(١)

وهناك شخصية أدت دورها البطولى والشعرى فى خدمة الدعوة الاسلامية ، وهى شخصية النابغة الجعدى وهو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة(٣)، وقيل

---

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ٥١٧١ الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ط. دار الشعب ٠

(٢) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٥ ص ٣٣٠ المصدر السابق ، وانظر البغدادى : خزانة الأدب جـ ٣ ص ١٦٧ تحقيق عبدالسلام هارون الخانجى وله أخبار كثيرة فى الأغانى جـ ٤ ص ٥١٧١ ومابعدها ٠

(٣) طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ١٢٣ ، والأغانى جـ ٥ ص ٤٠ المصدر السابق ، وقد أورد ابن حجر فى الاصابة خلافا كثيرا حول اسمه

اسمه قيس بن عبد الله ، وقيل اسمه عبد الله ، وقيل حبان بن قيس ، وقيل حبان بن عبد الله •

ولقب بالنابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر ، ثم نبغ فقاله • وقيل قال الجعدى الشعر فى الجاهلية ثم أجبل دهرا ، ثم نبغ بعد فى الشعر فى الاسلام •

والنابغة من المعمرين ، فكان قديما شـاعرا مفلقا طويل العمر فى الجاهلية ، وفى الاسلام ، وكان أسن من النابغة الذبيانى ، ومن شعره الدال على طول عمره قوله

ألا زعمت بنـــو أســـد بأنى	أبو ولد كثير السـن فان
فمن يك ســـــائلا عنى فانى	من الفتيان أيام الخنـان
أتت مائة لعـــام ولدت فيـه	وعشر بعـد ذاك وحجتـان
وقـد أبقت صروف الدهـر منى	كما أبقت من السيف اليمانى

قال : « وعمر بعد ذلك طويلا ، سـئل محمـد بن حبيب عن أيام الخنان ماهى ؟ فقال : وقعة لهم فقال قائل منهم وقد لقوا عدوهم خنوهم بالرماح (اقطعوهم) فسمى ذلك العام الخنان ، ويدل على أنه أقـدم من النابغة الذبيانى أنه عمر مع المنذر بن المحرق قبل النعمان بن المنذر •

وجميع المؤرخين للنابغة الجعدى يجمعون على أنه من النساك قبل الاسلام فقد هجر الأصنام والأوثان ، وكان يتعبد على دين ابراهيم ويصوم ، ويستغفر ، وحرم على نفسه الخمر ، وكل ما يذهب العقل ، يروى الأغانى عن أبى عبيدة قوله : « كان النابغة الجعـدى ممن أنكر الخمر والسكر ، وما يفعل بالعقل ، وهى الأزلام ، والأوثان ، وقال فى الجاهلية كلمته التى أولها :

الحمـــد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفســـه ظلما

وكان يذكر دين ابراهيم والحنيفية ، ويصوم ويستغفر ، ويتوقى أشياء لعواقبها(١) .

أما ابن حجر فيقول بعد ذكر حديث الأغانى ، والبيت الســابق « قال أبو عمر فى القصيدة ضروب من التوحيد والاقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار على نحو شعر أمية بن أبى الصلت ، وقيل انها لأميــة ، لكن صححها حماد الراوية ، ويونس بن حبيب ومحمد بن سلام الجمحى وعلى بن سليمان الأخفش للنابغة »(٢) .

وفد النابغة الجعدى على رسول الله — ﷺ — على رأس وفد من قومه فى العام التاسع للهجرة فأسلم ، وأنشد قصيدته الرائية(٣) .

وقد روى ابن حجر عن النابغة الجعدى قوله : أنشدت النبى — ﷺ :

بلغنا السماء مجــدنا وجدودنا   وانا لنرجو فوق ذلك مظهــرا

فقال : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قلت الجنة ، قال : أجل ان شــاء الله تعالى ، ثم قال :

ولا خــير فى حلم اذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خــير فى جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له رسول الله — ﷺ — « لا يفضض الله فاك » مرتين(٤) .

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ٩ المصدر السابق .
(٢) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ١٠ ص ١١٧ ، ١١٨ المصدر السابق .
(٣) موسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص٢١٧ ومابعدها المرجع السابق
(٤) الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ١٠ ص ١١٨ المصدر السابق

ولعل القارىء بحاجة الى أن نعرض عليه جانبا من هذه القصيدة التى اختلف الرواة فى عدد أبياتها ، حتى يتبين منهـا منهج النابغـة الجعدى فى شعره الاسلامى ، وأثر القرآن الكريم فيه ٠

بدأ النابغة حديثه بحث سامعيه على أن يأخذوا عدتهم من هـذه الحياة الى الحياة الآخرة ، وذلك بالاسراع الى الجهاد فى سبيل الله ، والرضا بقضاء الله وقدره ، فان قصر أحد فى ذلك فلا يلومن الا نفسه يقول :

خليلى غضـا سـاعة وتهجـرا
ولوما على ما أحـدث الدهر أو ذرا
ألم تعلـما أن انصرافا فسرعـة
لسـير أحـق اليـوم من أن تقصرا
ولا تسـألا ان الحياة قصـيرة
فطيرا لروعـات الحوادث أو قـرا
وان جـاء أمر لا تطيقان دفعـه
فلا تجزعا مما قضى الله واصـبرا
ألم تعلمـا أن المـلامة نفعهـا
قليـل اذا ما الشىء ولى فأدبرا(١)

ثم يذكر النابغة بعد ذلك رحلته مع الحياة ، وتجربته الطويلة فيها فقد كان من المعمرين ، ولاشك أنه عاصر كثيرا من الأحداث ، والتقى بكثير من الشخصيات ، وهو بهذا يعلل لقوله :

---

(١) موسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص ٣١٩

تبعت رسول الله اذ جاء بالهدى ويتـلو كتـابا كالمجـرة نيرا

فقد جاهد نفســه حتى يصل الى المعــرفة ، وذلك باتباعه دين الرهبان عله يجد فيه راحة نفسه ، وطمأنينة قلبه ولكنه لم يجـد ذلك عندهم ، ثم سار الى الأحبار فقطع معهم شوطا طويلا ، ولم لا يصنع ذلك أليس هو من المعمرين الذين عاصروا ملوكا أصـبحوا اليوم تحت الأرض كما يقول :

ندامای عند المنــذر بن محرق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا

لقد رحلوا جميعا وخلفوه ، وهاهو باق يقص على الناس ما حدث له فى رحلته الطويلة مع الحياة .

وبعد أن يذكر هذه التجارب يعود ليفتخر بقومه على عادة العرب فى الجاهلية ويختم جانب الفخر بقوله :

بلغنا السماء مجـدنا وجدودنا وانا لنرجو فـوق ذلك مظهرا

ثم يسرد كثيرا من الحكم التى رأى فيها رســول الله — ﷺ — روح الاسلام ظاهرة ، وتعاليمه لائحة فيقول :

ولا خـير فى حلم اذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خـير فى جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا
ففى الحلم خـير من أمور كثيرة وفى الجهل أحيانا اذا ما تعذرا

ويتابع النابغة انشاده بعد أن استوقفه رســول الله — ﷺ — بقوله « لا يفضض الله فاك » مرتين فيقول :

كذا لعمرى الدهر يومان فاعرفوا شرور وخير ، لا بل الشر أكثرا
وما طالب الحاجات فى كل وجهه من الناس الا من أجـد وشمرا

ولا ترض فى عيش بدون ولا تنم وكيف ينام الليل من بات معسرا
اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر أولام الصديق فأكثرا
فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
أقيم على التقوى ، وأرضى بفعله وكنت من النار المخوفة أو جرا(١)

وقد شهد النابغة مع المسلمين فتوحات كثيرة ، ومنها فتح فارس وقد كان النابغة مقــدرا لدى الخلفاء الراشــدين ، فقد كانوا يجلونه ويقدرونه نظرا لدعاء الرسول له « دخل النابغة الجعدى يوما — على عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فقال : أستودعك الله يا أمير المؤمنين قــال : وأين تريد يا أبا ليلى ؟ قــال : ألحق بابلى فأشرب من ألبانها ، فانى منكر لنفسى ، فقال : أتعربا بعد الهجرة يا أبا ليلى ؟ أما علمت أن ذلك مكروه ؟ قال : ما علمته ، وما كنت لأخرج حتى أعلمك . قال فأذن له . وأجل له فى ذلك أجلا(٢) .

وقيل انه عمر حتى عاصر حكم ابن الزبير ووفد عليه عندما أصابته السنة ، وقال فيه شعرا ، فقال ابن الزبير : هون عليك يا أبا ليلى فان الشعر أيسر وسائلك عندنا ، لك فى مال الله حقان ، حق لرؤيتك رسول الله — ﷺ — وحق لشركتك أهل الاسلام فيئهم ، ثم أخذ بيده فدخل به دار النعم ، وأعطاه سبع قلائص ، وجملا وخيلا، وأوقر الركاب برا وتمرا وثيابا ، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صرفا ، فقــال ابن الزبير : ويح أبى ليلى ، لقد بلغ به الجهد ، فقال النابغة أشهد لسمعت رسول الله — ﷺ — يقول : ما وليت قريش فعدلت واسترحمت فرحمت

---

(١) موسوعة الشعر العربى جـ٥ ص٢١٩ ومابعدها ، المرجع السابق
(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٠ المصدر السابق .

وحـــدثت فصـــدقت ، ووعـــدت خيرا فأنجزت ، فأنا والنبيـــون أطر التابعين(١) .

وقد وضعه ابن سلام فى الطبقة الثالثة من طبقات فحول الشعراء الجاهليين مقدما له على أبى ذؤيب الهذلى ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد ابن ربيعة ، لكن ابن سلام الذى يقول عنه ، وكان النابغة قديما شاعرا مفلقا ، ما يلبث أن يقول عنه : « وكان الجعدى مختلف الشعر مغلبا ، فقال الفرزدق « مثله مثل صاحب الخلقان ترى عنده ثوب عصب ، وثوب خز ، والى جنبه سمل كساء » ، ثم يقول [وكان الأصمعى يمدحه بهذا وينسبه الى قلة التكلف ، فيقول : عنـــده خمار بواف ، ومطرف بألف بواف يعنى بدرهم وثلث](٢) .

ونختم جولتنا مع شعراء الفروسية فى الاسلام بشاعر حيكت حوله قصص كثيرة ، بل تضـــاربت روايات المؤرخين فى مـــدى تمثله لتعاليم الاسلام ، ولعلنا نستطيع أن نستشف من خلال هذه الآراء بصيصا من ضوء ، أو بريقا من أمل يجعلنا نضع الرجل فى موضعه المناسب .

انه أبو محجن الثقفى الشاعر المشهور كما يقول عنه ابن حجر : « مختلف فى اســـمه ، فقيل هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن ثقيف ، وقيل اسمه كنيته ، وكنيته أبو عبيد ، وقيل اسمه مالك وقيل اسمه عبد الله ، وأمه كنود بنت عبد الله بن عبد شمس .

---

(١) ابن حجر ، الاصابة جـ ١ ص ١٢٠ ــ ١٢١ والأطر جمع اطار ويطلق على الحلقة من الناس .

(٢) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ٢ ص١٢٣ ــ ١٢٥ وصاحب الخلقان الذى يبيع قديم الثياب ، والعصب من أجود برود اليمن ، والسمل الخلق .

أسلم أبو محجن فى السنة التاسعة للهجرة ، وهو شاعر فارس معدود فى أولى البأس والنجدة ، وعندما حاصر المسلمون الطائف كان أبو محجن مع قومه يحارب ضد المسلمين وقيل انه أصـــاب بســـهمه عبد الله بن أبى بكر فمات متأثرا بتلك الاصابة بعد ثلاث سنين •

وعندما أســـلم أبو محجن اشترك مع المســـلمين فى الفتوحـــات الاسلامية لكن الروايات تتضارب فى موقفه من شرب الخمر • فهل كان أبو محجن من المعاقرين للخمر فعلا ؟ أم أنه كان من أولئك الذين جرى على ألسنتهم وصف الخمر على عادة شـــعراء الجاهلية فلم يستطيعوا التخلى عن ذلك النهج ؟ واذا كان الأمر كذلك فلما لم يدافع عن نفسه أمام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الذى حـــده كما تقول بعض الروايات ، بل غربه ؟ وعندما فر من حراسه ولجأ الى سعد بن أبى وقاص أمر عمر سعدا بحبسه فسجنه وقيـــده ؟ ، وهل يمكن لسعد أن يعطل حـــدا من حـــدود الله حتى وان وجد من مرتكب الحـــد بطولة وفروسية ؟ كل هذهالتساؤلات تحتاج منا الى اجابة شافية عنها ، حتى نتعرف من خلالها على شخصية أبى محجن الثقفى الشـــاعر الفارس الذى أبلى يوم القادسية بلاء حسنا •

فقد روى ابن حجر قال : لما كان يوم القادسية أتى ســـعد بأبى محجن سكران من الخمر ، فقيده ، وكان بســـعد جراحة فاستعمل على الخيل خالد بن عرفطة ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنع الناس فجعل أبو محجن يتمثل :

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا ‏ ‏ ‏ وأترك مشدودا على وثاقيا(١)

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ١٢ ص ٧ المصدر السبق •

ثم قال لامرأة سعد ، وهى بنت أبى حفصة ويلك : خلينى فلك الله على ان سلمت أجيء حتى أضع رجلى فى القيد ، وان قتلت استرحتم منى ، فخلته ، ووثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل فى ناحية الا هزمهم الله ، فجعل الناس يقولون هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء والطفر طفر أبى محجن ، وأبو محجن فى القيد ، فلما هزم العدو رجــع أبو محجن حتى وضع رجله فى القيد ، فأخبرت بنت أبى حفصة سعدا بالذى كان من أمره،فقال لا والله لا أحد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم،قال : فخلى سبيله،فقال أبو محجن لقد كنت أشربها اذ كان يقام على الحد أطهر منها ، فأما اذا بهرجتنى فوالله لا أشربها أبدا(١).

وهذه الرواية لابن حجر تفيد أن سعدا قد وضع أبا محجن فى القيد عندما وجده سكران ، وكأن حــد الشرب قد وجب عليه ، وكان الواجب على سعد والأمر كذلك أن يحده حد الشرب لكن سعدا تركه موثقا دون اقامة الحد عليه ، ثم تأتى الرواية لتثبت أن سعدا قــد عفا عن أبى محجن فى قوله : والله لا أحد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم ، وكأن سعدا قد عطل حدا من حدود الله ، فهــل يقبل من سعد الصحابى أن يجتهد فى أمر معلوم من الدين بالضرورة ؟ وأن يعطل حدا أوجبته الشريعة الاسلامية ؟

علينا — اذن — أن ننظر فى بعض الروايات الأخرى علهــا تكون أقرب الى العقل ، ورواية الأغانى التى يرويها عن ابن الأعرابى فى سبب نفى عمر لأبى محجن تعطينا سببا آخر لهذا النفى يقول : ان أبا محجن هوى امرأة من الأنصار يقال لها شموس ، فحاول النظر اليها بكل حيلة

---

(١) الاصابة جـ ١٢ ص ٨ المصدر السابق .

فلم يقدر عليها فآجر نفسه من عامل يعمل فى حائط الى جانب منزلها ، فأشرف من كوة بالبستان فرآها فقال فيها شعرا فاستعدى زوجها عمر ابن الخطاب عليه فنفاه الى حضوضى(١) .

وهذا خلط من الأغانى أيضا ، لأنه يقول بعد ذلك ، أن أبا محجن تمكن من الفرار من حراسه ، ولحق بسعد بن أبى وقاص ، وكان على أبواب القادسية ، ولما علم عمر خبره كتب الى سعد بن أبى وقاص بحبسه فحبسه . فلما كان يوم أرماث ، واشتد القتال بين المسلمين والفرس فى تلك الليلة ... صعد أبو محجن الى سعد يستعفيه ويستقيله فزبره ورده ، فنزل ، فأتى سلمى بنت أبى حفصة ، فقال يا بنت أبى حفصة هل لك الى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال تخلين عنى وتعيريننى البلقاء،فلله على أن سلمنى الله أن أرجع الى حضرتك حتى تضعى رجلى فى قيدى ، فقالت : وما أنا وذاك ، فرجع يرسف فى قيوده ويقول :

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا على وثاقيا
اذا قمت عنانى الحديد ، وغلقت ... مصاريع من دونى تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة ... فقد تركونى واحدا لا أخاليا
وقد شف جسمى أننى كل شارق ... أعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله درى يوم أترك موثقا ... وتذهل عنى أسرتى ورجاليا
حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت ... واعمال غيرى يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فقالت له سلمى : انى قد استخرت الله (تعالى) ورضيت بعهدك فأطلقته ، وقالت أما الفرس فلا أعيرها ، ورجعت الى بيتها فاقتاد

---

(١) الأغانى ج ٢١ ص ٧٢٢٤ ط الشعب .

أبو محجن الفرس ، وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ، ثم دب عليها حتى اذا كان بحيال الميمنة ، وأضاء النهار ، وتصاف الناس كبر ، ثم حمل على ميسرة القوم ، فلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، ثم رجع من خلف المسلمين الى القلب ، فبدر أمام الناس ، فحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، وكان يقصف الناس ليلتئذ قصفا منكرا ، فعجب الناس منه ، وهم لا يعرفونه ، ولم يروه بالأمس ، فقال بعض القوم : هذا من أوائل أصحاب هاشم(١) بن عتبة ، أو هاشم نفسه ، وقال قوم أن كان الخضر يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء ، وقال آخرون : لولا أن الملائكة لا تباشر القتال ظاهرا لقلنا ، هذا ملاك بيننا ، وجعل سعد يقول ، وهو مشرف ينظر اليه . الطعن طعن أبى محجن ، والضبر ضبر البلقاء ، فلم يزل يقاتل حتى انتصف الليل فتحاجز أهل العسكرين ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع نفسه عن دابته ، وأعاد رجليه فى القيد ، وأنشأ يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات ... وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
وأنا رفدهم فى كل يوم ... فان جحدوا فسل بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بى ... ولم أكره بمخرجى الزحوفا
فان أحبس فقد عرفوا بلائى ... وان أطلق أجرعهم حتوفا

فقالت له سلمى : يا أبا محجن ، فى أى شىء حبسك هذا الرجل ؟

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبى وقاص بن أهيب بن زهرة بن عبد مناف الزهرى الشجاع المعروف بالمرقال ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، وسمى بالمرقال ، لأنه كان يرقل فى الحرب ، أى يسرع . الاصابة جـ ٣ ص ٥٦١ المصدر السابق .

فقال : أما والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فينفثه أحيانا فحبسنى لأنى قلت : :

اذا مت فادفنى الى أصل كرمة
تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فاننى
أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها
ليروى بخمر الحص لحدى فاننى
أسير لها من بعد ما قد أسوقها(١)

ويستطرد الأغانى فى كلام لا يتصل بالموضوع ، ثم يقول : ان امرأة سعد أخبرته خبر أبى محجن ، فدعا به وأطلقه وقال : اذهب فلست مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله ، قال : لا جرم والله انى لا أجبت لسانى الى صفة قبيح أبدا(٢) .

ولعل هذه الرواية تجعل لهذا الصحابى مخرجا ، بل لعلها تجد لسعد — رضى الله عنه — مخرجا ، فهى تثبت أن عمر بن الخطاب لم يغرب أبا محجن فى شرب الخمر ، وانما غربه فى بادرة بدرت منه وهى التشبيب باحدى زوجات المسلمين ، ثم هى فى النهاية تعلمنا أن أبا محجن كان يصف الخمر وصف الشارب لها ، ولكنه وصفها وصفا عاما كما كانت العرب فى الجاهلية تصف المرأة وتصف الخمر ، وقد لا يكون الشاعر لديه أرب النساء أو الخمر ، ولكنها أمور تعارف عليها

---

(١) الأغانى ج ٢١ ص ٧٢٢٩ — ٧٢٣١ المصدر السابق .
(٢) الأغانى ج ٢١ ص ٧٢٣٢ المصدر السابق .

الشعراء فى شعرهم ، ولعلنا نستدل على ذلك — أيضا — برواية ابن حجر عندما قال : وذكر ابن الكلبى عن عوانة قال : دخل عبيد بن أبى محجن على عبد الملك بن مروان فقال : أبوك الذى يقول :

اذا مت فادفنى الى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

ثم يقول : فذكر قصته : وأوردها ابن الأثير بلفظ قيل ان ابنا لأبى محجن دخل على معاوية ، فقال له : أبوك الذى يقول فذكر البيت والبيت التالى له ، فقال عبيد : لو شئت لقلت أحسن من هذا من شعره قال : وما ذاك ؟ قال قوله :

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته
وسائلى الناس عن حزمى وعن خلقى
اليوم أعلم أنى من سراتهم
اذا تطيش يد الرعديدة الفرق
قد أركب الهول مسدولا عساكره
وأكتم السر فيه ضربة العنق
أعطى السنان غداة الروع حصته
وعامل الرمح أرويه من العلق
عف المطالب عما لست نائله
وان طلبت شديد الحقد والحنق
قد يعسر المرء حينا وهو ذو كرم
وقد يثوب سوام العاجز الحمق
سيكثر المال يوما بعد قلته
ويكتسى العود بعد اليبس بالورق

فقال معاوية : لئن أسأنا القول لنحسنن الفعل ، وأجزل صلته ، وقد عاب ابن فتحون أبا عمر على ما ذكره فى قصة أبى محجن أنه كان

منهمكا فى الشراب ، فقال : كان يكفيه ذكره حده عليه ، والسكوت عنه أليق ، والأولى فى أمره ما أخرجه سيف فى الفتوح أن امرأة سعد سألته فيم حبس(١) وساق الخبر السابق الذى أورده الأغانى ، ولعلنا بذلك نكون قد وجدنا بيانا شافيا لموقف سعد بن أبى وقاص ، ثم تبريرا لشعر أبى محجن فى الخمر ، بل ولعلنا نجد ردا على صاحب موسوعة الشعر العربى الذى يقول « وكأنه وجد فى قوله مخرجا — « لقد كان أبومحجن فارسا وشاعرا ، وكان يدمن الخمرة على غرار الفرسان الجاهليين الا أن الدين حده عليها ، فعقدت فى نفســه منها عقدة أخرى ، وشعر معها أنه بات مخلوعا تنبذه الجماعة المؤمنة ، فانعكس ذلك كله على شعره ، وغدت قصائده الخمرية نوعا من المحاجة الدائمة على النفس والدين والســلطة ولم يوف أبو محجن من ذلك الى نظرة وجودية عميقة وشــاملة كما هو شأن طرفة الذى أنزل الخمرة فى اطار فلسفى وجودى ، وانما تراها وقد أقامت فى نفسه على حدود اللذة الحسية ، وليس ما يسوقه بشــأنها ، ووقوفه معارضــا الدين الا نوعا من العصــيان الفردى والاجتماعى ، فأبو محجن ليس من شعراء التأمل والسويداء ، وان خطر منها ببعض ملذات وجدانية عميقة ، وفضلا عن ذلك لا نجده مغرقا فى وصفها اغراقا كليا ، اذ لم يكن من شعراء الوصف ، وقد تؤول قيمة شعره فى النهاية الى الجدة فى الاحساس ، والبكارة فى تلمس بعض التجارب التى ورثها من أتى بعده من شعراء الخمرة»(٢) .

ان هذا الحديث لا يتفق والحــديث عن رجل من رجال الاســلام حمل سيفه للدفاع عن الدعوة الاســلامية ، وهى تجــابه عدوا مغرورا شرسا ، فقد يحين أجله ، ويلقى الله — تعــالى — فى هــذه المعارك ، فكيف يصنع ذلك ؟ بل ان هذا الشعر الذى قاله فى وصف الخمر يمكن

---

(١) ابن حجر ، الاصابة جـ ١٢ ص ١١ ، ١٢ المصدر السابق .

(٢) موسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص ٣٨١ المرجع السابق .

أن يكون قد قيل قبل اسلامه ، والاسلام يجب ما قبله ، ورغم أن هناك روايات كثيرة تؤكد حده فى شرب الخمر الا أن العقل والمنطق يلحان على المرء كثيرا فى طرح هـذه الروايات ، أو الوقوف حيالهـا وقفـة الذى لا يؤيدها ، وانما يميل الى الرواية التى أثبتها الأغانى وابن حجر ، فهى أقرب الى العقل والمنطق ، ولعل من الروايات التى لا يقبلها العقل أيضا رواية الأغانى التى تقـول « حدثنى من مر بقبر أبى محجن الثقفى فى نواحى أذربيجـان ، أو قال فى نواحى جرجان قال : فرأيت قبره ، وقد نبتت عليه ثلاثة أصـول كرم قد طالت وأثمرت وهى معرشـة ، وعلى قبره مكتوب : هذا قبر أبى محجن الثقفى ، فوقفت طويلا أتعجب مما اتفق له حتى صار كأمنية بلغها حيث يقول :

أذا مت فادفنى الى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها(١)

وقد قيل ان أبا محجن مات بأذربيجان ، أو بجرجان سنة ٣٠ للهجرة ولعله كان يجاهد مع المجاهدين الذين توغلوا الى أذربيجان أو جرجان ينشرون دعوة الاسلام ، ويرفعون راية الايمـان ، بل لعـله لقى ربه شهيدا فى هذه المعارك الضارية التى خاضها المسلمون من أجل الدعوة، فان كان قد اقترف بعد اسلامه شيئا فعسى أن يكون ممن غفر لهم بفضل جهادهم ، وان لم يكن قد اقترف اثما فقد ذهب الى ربه راضيا مرضيا عنـه .

هذه لمحات خاطفة عرضنا فيها لسيرة بعض شـعراء الفروسية فى صدر الاسلام ، حتى نتبين منهجهم فى الدفاع عن الدعوة الاسـلامية ، ومن خلال هذا العرض يتضح للقارئ مدى ما قام به هؤلاء الرجال من جهد مضن فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، بألسنتهم وسيوفهم ، ولكن هل يتساوق ذلك الجهد وما بذله عبد الله بن رواحة ، هذا ما سـنعرضه فى الفصل القادم ان شاء الله .

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٦٣٩ ــ ٧٦٤٠ المصدر السابق .

الفصل الخامس

أثر الاسلام فى شعره



أثر الاسلام فى شعره

لابد لنا بعد هذه الجولة التى جلناها فى شعر عبد الله بن رواحة ، وشعر غيره من الشعراء الفرسان من الوقوف مرة أخرى مع عبد الله بن رواحة ومنهجه الشعرى ، وأثر الاســلام فيه حتى يســتطيع القارىء تبين الملامح العامة لشعره وشاعريته ، وخاصة بعد اسلامه ، لأن شعره الجاهلى يستطيع القارىء له أن يعيده الى ذلك العصر الذى قيل فيه ، أما شعره الاســلامى فيحتاج الى وقفة متــأنية نتبين من خلالهــا أثر الاسلام فيه بالمقارنة بشعر الشعراء المعاصرين له ، أولئك الذين تحملوا مسئولية الدفاع عن الدعوة الاســلامية فى طورها الأول أو أولئك الذين اعتنقوا الاسلام بآخرة،وكان لهم دور أيضا فى نصرة الدعوة الاسلامية بسيوفهم وألسنتهم ، ثم نقف مع آراء النقــاد — قدامى ومحدثين — فى شاعرية عبد الله بن رواحة .—

١ — ملامح شعره الجاهلى :

ان المتتبع لشعر عبد الله بن رواحة الذى قيل قبل الاســلام يرى فيه أثر الحضارة لائحــا فلم تكن المدينة المنورة « يثرب » الا حاضرة من حواضر الجزيرة العربية . شــأنها شــأن مكة والطائف والبحرين ، واليمامة ، وهذا ما جعل ابن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشــعراء يفرد الحواضر بحــديث خاص ، حيث وضــع الشــعراء الجــاهليين والمخضرمين فى عشر طبقات ، كل طبقة لها خصائصها التى تفردت بها ، ولها شعراؤها الذين تربوا فى البادية ، ودرجوا فى أفنيتها ورضعوا من ألبان ابلها ، وتنسموا شيحها ، وقيصومها ، فطبعتهم بطابعها ، ووسمتهم بميسمها ، ففرض ذلك على ابن سلام أن يضعهم فى طبقات متفردة،وأن يقدمهم على غيرهم من شعراء الحواضر ، فقال : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهلية ، وأدركوا

الاسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء(١) ثم يقول : « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، فألفنا من تشابه شعره منهم الى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط ، كل طبقة متكافئين معتدلين »(٢) •

فقد وضع ابن سلام شعراء البوادى فى عشر طبقات ، وهم الذين أطلق عليهم المشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها ••• « اذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغنى عن علمه ناظر فى أمر العرب » •

أما شعراء الحواضر فقد وضعهم تحت عنوان : شعراء القرى العربية ، ثم قال : « وهى خمس المدينة ومكة ، والطائف واليمامة والبحرين » • قال « وأشعرهن قرية المدينة »(٣) •

ومعنى افراد ابن سلام للقرى العربية بمبحث خاص ، أو وضعه شعراءها فى طبقة منفردة أن هؤلاء الشعراء لهم لون شعرى تفردوا به عن سائر الشعراء فى العصر الجاهلى ، وصدر الاسلام •

ويبدو أن الحواضر كانت أرق شعرا ، وأعذب لفظا ، وأكثر خبرة بالشعر وصقلا من البادية — حتى وان لم نجد من الحواضر شعراء فحولا يقفون الى جوار شعراء البوادى ، ولعل ذلك الخبر الذى رواه

---

(١) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٣ ، ٢٤ المصدر السابق •

(٢) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٤ المصدر السابق •

(٣) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢١٥ المصدر السابق •

ابن سلام أيضا يكشف لنا عن ذلك ، فقد كان بعض شعراء البادية لا يتنبهون لبعض العيوب التى تقع فى شعرهم فاذا ما أتوا الى الحاضرة ونبهوا الى ذلك أصلحوا من شعرهم ، ولم يعودوا لتلك العيوب التى نبهوا اليها وهذا ما يفسر لنا — أيضا — حرص الشعراء الفحول على القدوم على مكة والمدينة ، وانشـاد شـعرهم فى هذه المجتمعات التى تقدر هذا الفن حق قدره ، وتقوم بنقد هذا الشعر وتثقيفه بتصفيته من الشوائب ليكون عند أهل القرى مرضيا •

حدث أن النابغة الذبيانى كان يقوى فى شعره ، فقدم المدينة فعيب عليه ، فلم يأبه لذلك ، حتى أسمعوه اياه فى غناء ، لقد أوعز سـكان المدينة لجارية فغنت قوله :

أمن آل ميـة رائح أو مغتـــد
عجـــلان ذا زاد وغـير مزود
زعم البـوارح أن رحلتنـا غـدا
وبذاك خبرنا الغـداف الأسـود

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد اسـقاطه
فتنـاولته واتقتنـا باليـــد
بمخضب رخص كأن بنـــانه
عنم يكاد من اللـطافة يعقـــد

يقول ابن سلام : وأهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم من أهل الكتاب فقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فرتلى ، فاما قالت : « الغداف الأسود » و « يعقد » و « باليـــد »

علم وانتبه فلم يعد فيه ، وقال : « قدمت الحجاز ، وفى شعرى ضعة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس »(١) .

ولعنا نستطيع أن نكشف عن بعض الجوانب التى تفرد بها شعراء المدينة فى ضوء دراستنا لشعر عبد الله بن رواحة الذى قاله فى العصر الجاهلى مفاخرا به قيس بن الخطيم .

لقد عرضت فى فصل سابق لتحليل ثلاث قصائد قالها عبد الله بن رواحة ، والحرب دائرة الرحى بين الأوس والخزرج فى يثرب قبل قدوم الاسلام اليها ، ولعل القارىء لهذه القصائد يرى فيها تفردا فى المطلع أو الافتتاحيـــة ، وذلك أن العـــرب فى العصر الجاهلى دأبوا على بدأ قصائدهم بذكر الديار والأطلال ، فعنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعـــد توهم

وامرؤ القيس يقول :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وزهير بن أبى سلمى لم يبعد عن ذلك أيضا فهو يقول :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلمى   بحومانة الدراج فالمتثلم

هؤلاء هم فحول الشعراء فى العصر الجاهلى ، وأصحاب القصائد الطويلات ، ولكن البادية فرضت عليهم ذلك فهم يرحلون من مكان الى مكان التماسا لمصادر الغيث ، وتتبعا لمواطن الكلأ والمرعى ، فقد يستقر بهم المقام فى مكان ، ثم يفارقونه الى غيره ، فيتفرق الجمع ، وتتشعب

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٦٧،٦٨ المصدر السابق .

بهم السبل ، يسيحون فى دروب البادية الكثيرة ، ومناطقها المتباعدة ، وقــد لا يجتمعون مرة أخرى ، لكنهم يخلفون فى هــذه الأماكن قلوبا تعلقت وأرواحا ألف بينها الحب ، وأضناها العشق ، فما تفتأ تتذكر ذلك اللقاء،وتتسلى بما تثيره الذكريات من متعة تارة،أو حسرات تارة أخرى، فاذا ما حدث وعاد الشاعر مرة أخرى الى الأماكن التى غادرها،والديار التى تعلق قلبه بها فان تهييج الذكرى يكون أقوى وأشد فيرسل شعرا يعبر به عن حبه القديم،وعشقه المالك منه أقطار نفسه،فتأتى القصيدة فى افتتاحيتها تحمل هذا المعنى ، وترصد ساعة الوقوف على الديار ، وتحكى قصة الحب الذى نعم بوصله ، وسعد بقربه •

أما عبد الله بن رواحة وشعراء الحواضر فانهم لم يعيشوا هــذه التجربة ، لأنهم حضريون لم يتتبعوا مصادر الكلأ ، ولم يقفــوا على الديار التى خلفوها ورحلوا عنها ، ثم عادوا اليها وانما يحبــون حب الحضر ، أويهيئون أنفســهم لتمثــل مــوقف من مواقف الحضريين يعرضونه على مسامع محبى شعرهم ، فاذا بهم يقدمون لنا افتتاحية تتناسب وما ألفوه من حياة الحاضرة •

يقول عبد الله بن رواحة يتغزل بليلى أخت قيس بن الخطيم

أشاقتك ليلى فى الخليط المجــــانب
نعم : فرشاش الدمع فى الصدر غالب

بكى اثر من شــــطت نواه ولم يقم
لحــاجة محــزون شكا الحب ناصب

لدن غدوة حتى اذا الشمس عارضت
أراحت له من لبــــــه كل غـــــارب

نبين فى الحب يعــلق مـــــــــدبرا
قديما اذاما خــــلة لم تصـــــاقب

كســوت قتودى عرمســا فنصأتها
تخب على مســـتهلكات لواحب
تبــارى مطــايا تتــقى بعيـــونها
مخافة وقع السوط خوص الحواجب

هذه المقدمة الغزلية وان كان الشاعر قد صور لنا محبـــوبته التى ابتعدت عنه ورحلت مع قومها الذين تركوا ديارهم ، وخلفوه محزونا لا يستطيع مغالبة آلامه ، أو مقاومة أشجانه فراح يبكى ، ولم لايبكى وقد فارق من يحب ، وان كان الشاعر صنع ذلك الا أن روح الحاضرة تبدو قوية فى هذه المقدمة،فلم يقف على الديار كما وقف شعراء البادية، ولم يذكر لنا رسم الديار الذى أوحى اليه بساكنيها ، وانمــا اكتفى بالحديث عن لوعة الفراق ، وحسرة البعد ، وبكائه اثر من شطت نواه ، ثم هويصور لنا أنهم رحلوا صباحا ، وتركوه يعانى ما يعانى •

وعندما أراد الحديث عن الراحلة تحدث عنها على أنها من نجائب النوق ، وأنها تصل الى هدفها دون ضرب بسوط ، أو زجر بقدم ، لكنه يبدو تأثره بتلك القصة التى حدثت بين امرىء القيس وعلقمة الفحـــل اللذين وصفا الفرس فأجاد علقمة بينمــا قصر امرؤ القيس ، فنـــاقة ابن رواحة ليست كسائر النوق وانما هى :

تبارى مطايا تتقى بعيونها   مخافة وقع السوط خوص الحواجب

واذا كانت المقـــدمة الطللية مقدمة يعمـــل الخيال فيها عملـــه فان الحقيقة تلوح للقـــارىء فى كثير من زواياهـــا لأن حياة البـــادية تمكن الشاعر — كما قدمت — من عقد علاقات حب فى تلك الفترة التى تتجاور فيها الديار،وتتلاقى الأفئدة ، وتتناغى القلوب،لكن عبد الله بن رواحة لايشك أحد فى أن مقدمته من نسج خياله ، لأن الحـــرب الدائرة بين الأوس والخـــزرج لا تمكن أحـــدا من اقامة مثـــل هذه العـــلاقات ،

وماذا يجدى حب عقيم تحول الخصومات القاتلة بينه وبين من يحب ؟ • ان عبد الله بن رواحة أراد بهذه المقدمة الرد علي قيس بن الخطيم الذى دأب على التغزل بأخت عبدالله نكاية به ، وحطا من قدره ، فكان لابد لعبد الله من أن يصنع صنيع خصمه ، ويعرض بليلى ، حتى يكسر من حدة عدوه •

أما منهج عبد الله فى فخره ، فقد جاء فخرا حضريا لا تبدو عليه سيما البادية التى فرضت ظروفها على قاطنيها الدفاع عن الذمار ، وحماية الديار ، تقوم الدرب بينهم على حب التملك ، والسيطرة على الماء والكلأ فلابد أن يتضح فى فخرهم هذا الجانب بينما لم يتعرض سكان الحواضر لمثل هذه الحياة ، فلابد أن يأتى فخرهم متناسبا مع حياتهم الحضرية المستقرة ، فجاء فخرهم بالأحساب والأنساب ، فالخزرج — فى نظر شعرائهم — ضاربون فى الشرف ، آخذون بأسباب المجد ، لا يستطيع أحد أن ينفس عليهم جاههم ، أو ينال من مجدهم التليد ، وشرفهم الأكيد ، والويل لمن تسول له نفسه النيل منهم :

اذا عيرت أحساب قوم وجدتنا ... ذوى نائل فيها كرام المضارب
نحامى على أحسابنا بتلادنا ... لمفتقر أو سائل الحق واجب

ثم تأتى صورة أخرى من الفخر يلمس القارىء لها أثر الحضارة قويا ، وذلك حيث يقول :

وأعمى هدته للسبيل سيوفنا ... وخصم أقمنا — بعد مالج — ثاءب

فسيوفهم تعيد الخارجين على القانون ، والمتنكبين طريق الحق الى الرشد ، وكم هذبوا بسيوفهم خصوما معاندين ، وهى صورة لا نجدها عند كثير من شعراء الفخر ، حتى عنترة الذى عرف بفخره الشخصى وعفته فى خصومته لم ترد فى شعره مثل هذه الصورة ، لأن

الحرب فى البادية تنشـأ للاغارة ، أو لدفعهـا والفخر لديهم بالغلبـة والسيطرة لا لاعادة الحق الى نصابه •

وهكذا يأتى شعر ابن رواحة متسما بسمات تجعله يتناسب والبيئة التى قيـل فيها ، فقوتهم تتمثل ــ كما أسلفت ــ فى سـيوفهم التى يعالجون بها أعداءهم ، حتى يرجعوهم الى الرشد ، ويعيـدوهم الى الصواب ، ففخره تتمثل فيه القوة المبنية على العقل ، فهم لا يلجأون الى الحرب الا اذا استحكمت الأمور ، وتعقدت الأحداث ، ولا مناص من الحرب •

وهذا فرق كبير يمتاز به هذا الشعر عن شعر البادية وأهله الذين يغيرون ظالمين ، ويأتون الحرب معتدين وهناك ميزة أخرى نلمسها فى شعر ابن رواحة ، فلم يرد فيه ذكر للفخر بشرب الخمر ، أو الحـديث عنها وذلك أمر يثير الانتباه ، فقد تحدث كثير من الشعراء الجاهليين عن الخمر ، واصفين لها وصف المفتخرين بمعاقرتها ، المتلفين أموالهم فى سبيلها ، فطرفة بن العبد ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، حتى قيس ابن الخطيم الذى كان يعارض ابن رواحة تحدث عن الخمر فى فخـره بقومه ومقاتليهم الذين آلوا على أنفسـهم ألا يقربوا الخمـر حتى النصر فقال :

ومنا الذى آلى ثلاثين حجـة	عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
فلما هبطنـا السهل قال أميرنا	حرام علينا الخمر ما لم نضارب
فسـماحة منا رجال أعـزة	فما رجعوا حتى أحلت لشارب(١)

---

(١) أبو زيد القرشى : جمهرة أشـعار العـرب جـ ١ ص ٦٤٩ المصدر السابق •

وهذا أمر ليس له الا افتراضان : فاما أن يكون عبد الله بن رواحة لم يقل شعرا فى الخمر ، فجاء شعره مختلفا عن شعراء بيئته ، متخذا لنفسه منهجا خاصا ، وأما أن يكون قد قال شعرا فى الخمر ، ولكنه رأى بعد اسلامه أن الحديث عنها يذهب بوقار المرء ، ويتنافى مع مبادىء الاسلام فحذفه ، أو أهمله فأهمل •

والمتتبع لمذهبة عبد الله بن رواحة ، والتى أثبتها أبو زيد القرشى لا يجدها تبعد كثيرا عن القصيدة التى أثبت مقدمتها فى هذا الفصل • بداية غزلية ينسب فيها بنجود التى بعدت عنه بعد أن تمكن حبها فى قلبه منذ الصغر ، ثم حديث عن غدرها وخيانتها ، فهى لعوب غايتها أن تجد غرة من شباب فتوقعهم فى حبائلها ، وامرأة هذا شأنها لابد أن يعاملها بجفاء ، فان يبقى عليها طالما أنها لم ترع له عهدا ، ولم تكن له ودا ، ثم يفتخر بقومه ، وعزهم ومنعتهم •

ان القصائد التى أثبتتها مصادر التوثيق سواء منها ما رواه أبو زيد القرشى ، أو ما جاء فى كتب السير لا يمثل المكانة التى وضعه فيها علماء تاريخ الأدب ، فقد قدمت أن ابن سلام الجمحى وضعه ثالث ثلاثة من الشعراء الذين قاموا بعبء الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، وأشار الى أنه كان فى الجاهلية يعارض قيس بن الخطيم ، غير أنه اختلف فى منهجه الشعرى عن قيس بن الخطيم الذى عكف على معاقرة الخمر ، ومعاشرة النساء ، فلم يرد فى شعر عبد الله ذكر لخمر — كما تشير اليه القصائد التى رويت له — بل ان منهجه اختلف عن شعراء البادية أيضا الذين دأبوا على ذكر الخمر ، والتغنى بها ، وهذا ما جعلنا نقرر أن منهج ابن رواحة — فى شعره الجاهلى — اختلف عن غيره من المعاصرين له — فقد عملت الحضارة فيه عملها ، فجاء رائق العبارة ، محكم النسج ، متين البنية عذب الألفاظ ، وهذا ما يجعلنا نختلف مع بعض الباحثين الذى قرر أن شعر عبد الله بن رواحة

ينتمى الى النهج الجاهلى المعروف ، ثم لا يلبث هذا الباحث أن يقول : « مع الاشارة الى ما فى أسلوبه من الشروق والسلاسة ومتانة البناء وسلامة العبارة »(١) .

فكيف ينتمى الى الشعر الجاهلى المعروف مع أنه الشعر الذى تفرد بالشروق والسلاسة ، ومتانة البناء وسلامة العبارة ، ان هذا المنهج الذى التزمه عبدالله بن رواحة يبعده تماما عن النهج الجاهلى فى الشكل والمضمون ، فقد تفرد كما قدمت بمقدمة غزلية قل أن توجد عند كثير من شعراء العصر الجاهلى ، وتفرد بلون من الفخر الهادىء المتعقل الذى يجعله بعيدا عن تلك القضايا التى كان الجاهليون يثيرونها فى فخرهم .

هذا على فرض أن الشعر الذى وصل الينا يمثل كل شعر عبدالله ابن رواحة ، أما على فرض أن شعر ابن رواحة قد ضاع أكثره ، أو أنه تناول شعره بعد الاسلام بالاصلاح والتهذيب والحذف ، حتى يساير الاتجاه العام الذى التزمه ابن رواحة بعد الاسلام ، فقد نقول : انه مثل العصر الجاهلى ، أو سار على نفس النمط الجاهلى ، لكن يبقى هذا الفرض قائما دون امكاننا التدليل عليه بشىء من شعر عبد الله بن رواحة ، اذ ليس فى مقدرونا الحصول على شىء من شعره الواصل الينا يؤيد ما نرمى اليه أو يكون دليلا عليه .

ولقد قدمت عند تحليلى لبعض قصائد ابن رواحة الجاهلية أن نهاية القصائد قد أتت مفاجئة دون التمهيد لها،أو دون أن يلمس القارىء أن هذه هى النهاية الطبيعة لمثل هذا اللون من القصائد ، فلقد اكتفى ابن رواحة بمقدمة غزلية ، ثم نكر جانبا من الفخر لا يمثل مكانته

---

(١) موسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص ١٥٥ المرجع السابق .

الشعرية،أو لا يمكن أن يكون ردا شافيا لهجاء خصمه قيس بن الخطيم، وذكرت هناك أن الأمر يفرض علينا أن نقـول ان ابن رواحة — بعد اسلامه — قد توجه الى شعره بالحذف ، فقد كان عبدالله يقـاوم تلك الأحقاد التى كان اليهود يثيرونها عن عمد ، حتى يشعلوا نار العـداوة من جديد بين الأوس والخزرج ، وذلك برواية تلك الأشعار التى قيلت ابان تلك الحروب ، ولا يمكن لعبدالله ، وهو الرجل الذى قاوم هـذا أن يبقى على شعره كله ليتخذه اليهود ذريعة الى اثارة نار الفتنة بين المسلمين بعد أن وحد الاسلام بينهم ، وجعلهم اخوة متحابين متآلفين .

هذا من جانب ومن جانب آخر فان عبدالله بن رواحة قـد حبس نفسه على الدفاع عن الدعوة الاسـلامية بسيفه ولسـانه ، وهو الى جانب الدفاع بالسيف أميل ، فأضحى مشغولا بذلك الأمر ، وما كان له أن يعود الى شعره الجاهلى بالتقييد والتدوين فضاع شعره مع ما ضاع من كثير من شعر غيره ، بل ان المسلمين عندما هدأت المعركة الكلامية بينهم وبين قريش أهملوا ذلك الشعر الذى قيل فى فترة الصراع الأولى بل انهم لم يهملوا ذلك الشعر عن رضا من بعضهم وانما أهملوه لأنهم رأوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أعرض عنه بعد اسلام من أسلم من شـعراء قريش ، فقد روى أن رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما أسلم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أنت منى وأنا منك،ودعك من قول حسان » ، وقد نهى عمر عن تدوين هذا الشعر منعـا لاثارة الضغائن بين المسلمين ، فقد روى : أن عبدالله بن الزبعرى السهمى ، وضرار بن الخطاب الفهرى أنشدا حسان بن ثابت شعرا مما كانا قالاه قبل الاسلام فثار حسان حتى صار كالمرجل غضبا ، ثم دخل على عمر ابن الخطاب وقص عليه قصتهما ، فأرسل اليهما عمر رسولا فردهمـا اليه ، ثم دعا لهما بحسان — وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله —

صلى الله عليه وسلم — فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما :
فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف ، فقال له عمر
أفرغت ؟ قال : نعم ، فقال : أنشدناك في الخلاء ، أنشدتهما في الملأ
وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وان شئتما فانصرفا ، وقال ان
حضره ، اني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين
شيئا دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فاما اذ أبوا
فاكتبوه ، واحتفظوا به ، فدونوا ذلك عندهم — قال خلاد بن محمد :
فأدركته والله وان الأنصار لتجدده عندها اذ خافت بلاه »(١) •

واذا كان حسان وغيره قد حضرا هذه الأحداث فان عبد الله بن
رواحة كان قد لقى ربه قبل أن يدون ذلك الشعر ، فقد قال ابن سلام
الجمحى تعقيبا على قول عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : « كان
الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » قال ابن سلام « فجاء
الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ،
ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت
العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ،
ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل
فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير »(٢) •

ولعل قائلا يقول : « ان ابن رواحة كان كاتبا ، وكان يكتب لرسول

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٠ — ١٤١ المصدر السابق وانظر :
مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخيه د• ناصر الدين الأسد
ص ١٥٧ — ١٥٨ •

(٢) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٢٥
المصدر السابق •

الله — صلى الله عليه وسلم — فلم لم يكتب شعره الجاهلى ، وما يصدق على شعره الجاهلى يصدق عى شعره الاسلامى ؟

وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى لنا أن نرجع الى ما قدمناه من حياة عبد الله بن رواحة ، فقد كان — كما أسلفنا — مشغولا بأمر الدعوة الاسلامية ، وبما يجد من قضايا — تخدم الاسلام — أكثر من خدمة الشعراء له ، ثم ان هناك أمورا كانت تشغل المسلمين عن كثير من أعمالهم،واذا كان الصحابة كذلك،فان ابن رواحة كان أكثرهم انشغالا بقضايا الاسلام والمسلمين،فهو نقيب تحمل المسئولية ولابد أن يؤديها أداء سديدا ، وكذلك فان ابن رواحة كان كما أسلفت يرتعد فرقا من قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » فقد كان يعتقد أنها قيلت فيه ، ويبدو أنه كان نادما على ذلك الشعر الذى قاله فى الجاهلية مناقضا به قيس بن الخطيم،فهو لم يقل شعرا اسلاميا يخشى منه على نفسه فشعره الاسلامى — كما سنأتى ونقرر — كان فيه صادق النزعة قوى العاطفة بل انه كان يقول الشعر الذى ينم عن عقيدة سليمة وايمان قوى ، أما شعره الجاهلى فحرى به أن يتألم عند سماعه : لأنه كان يتغزل فيه بليلى أخت قيس بن الخطيم غزلا لا يليق به وقد أوتى فكرا سديدا ورأيا رشيدا •

منهج شعره الاسلامى :

أما شعره الاسلامى فان القارىء له يجد تحولا لا يمكن نكرانه ، واختلافا فى المنهج لا يمكن اغفاله ، والتحول فى المنهج ، والاختلاف فى الفكر يأتيان من جملة أمور ، فان تعاليم الاسلام ، ومناهجه فى الدعوة الى الله ، بل ان أساليب القرآن الكريم • واختلاف مناهجها من لين يصل الى درجة الرقة والتلطف فى الخطاب حينا ، وشدة تصل

الى الصواعق أحيانا ، كل ذلك يجعل المتمثل له يغير من اسلوبه،ويقف طويلا قبل أن يقول كلمة ، أو ينشىء قصيدة ، وهذه هى طبيعة الأشياء، لكن الأمر الذى يدعو الى التعجب ، ويلح على المرء كثيرا فى عرضه على القارىء هو أن هذا التحويل عند ابن رواحة لم يتأخر طويلا كما حدث عند كثير من الشعراء المخضرمين ــ كما سنوضح ذلك فيما بعد ــ فقد رأينا عبدالله بن رواحة بعد أن اعتنق الاسلام ، وتفهم تعاليمه حاول التراجع عن قول الشعر ، بالبعد عنه حينا وبالتقليل من قوله فى كثير من الأحيان ، فقد مر بنا أن عبدالله بن رواحة عندما سمع قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون ... الخ » امتنع عن قول الشعر حتى نزل قوله تعالى : «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. الخ » .

ويوم أن طلب منه المشاركة فى الدعوة الى الاسلام بلسانه لم ينزع ــ فى ذلك ــ من منزع جاهلى كما فعل أترابه ، وانما انطلق من منطلق آخر،فبينما كان حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك يذكران مثالب المشركين ، ويعيرانهم بالأحساب والأنساب ، وبالهزائم التى منوا بهـا فى بدر ، وبوقوع رجالهم قتلى ، وأسرى فى أيدى المسلمين اذا بعبدالله ابن رواحة يهجوهم باهدار عقولهم ، وتعطيل مداركهم ، فقد عبدوا أصناما لا تضر ولا تنفع ، انها لا تستطيع نفع نفسها أو دفع الضر عنها ، فكيف تنفع غيرها قال تعالى : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »(١) .

والمتتبع لقصائده التى قيلت فى الفترة الأولى من اسلامه يتبين منها كثيرا من الدلائل الواضحة على تمكن الاسلام من قلبه فى وقت مبكر ،

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

ففى قصيدته التى قالها فى غزوة أحد ، ورد كثير من ملامح الاسلام التى تنم عن تمثل مبكر لتعاليمه،واسمعه يقول فيها :

أصيب المسلمون به جميعا ... هناك وقد أصيب به الرسول
عليك ســلام ربك فى جنان ... مخـــالطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبرا ... فكل فعـــالكم حسن جميــل
رسول الله مصــطبر كريم ... بأمر الله ينطق اذ يقــول

فقد استخدم الكلمات التى استخدمها القرآن الكريم فى وصف أتباع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقد أصيب « المسلمون » بفقد حمزة ، وقد أصــيب بفقده « الرســول » ــ والمسلمون والرســول » مصطلحان لم يردا فى حديث العرب عن هذه الجماعة ، وانما ورد ذلك فى القرآن الكريم قال تعالى : «وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكــم ابراهيم • هو ســماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرســول شهيدا عليكم ، وتــكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم(١) ثم استخدم كلمة « سلام ربك » وكلمة « فى جنان » وهما مصطلحان اسلاميان أيضا ، وكذلك كلمة « الصبر » •

قال تعالى : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يمــوت ، ويوم يبعث حيا»(٢) وقال تعالى «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا»(٣) وقال تعالى : « وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون »(٤) ، ثم استخدم المصطلح الذى عمقه الله فى

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الحج •
(٢) الآية ١٥ من سورة مريم •
(٣) الآية ٦٣ من سورة مريم •
(٤) الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة •

قلوب المسلمين وهو أن الرســول موحى اليــه من ربه قال تعــالى :
« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى »(١) •

هذا ما تعطيه الكلمات ، ودلالالتها اللغوية ، أما المعنى العام فانه يصــور لنا مدى تفاعل الشاعر مع هذا الحــدث الجليل ، ففقد حمزة أسد الله هول أصاب المسلمين جميعا ، فقــد دافع حمزة عن الدعــوة الاسلامية فى مكة دفاع الأبطال الأشاوس ، وقــاوم طغيان الشرك فى معقله ، ثم هو الذى أبلى بلاء حسنا فى غزوة بدر ، وقد كان له دور رائد فيها،فكان أول المبارزين،بل أول من قتــل مبارزه ، ثم كر عــلى مبارز ابن أخيه عبــيدة بن الحارث(٢) فقتله « لكن هذا الخطب الجلل لا يسوغ أن ينسيهم التسليم المطلق لله — سبحانه وتعالى — ولا يبيح لأهله من بنى هاشم أن يجزعوا لهــذا المصاب ، ولهــذا فان الله — سبحانه وتعالى — أنزل على رسوله اثر هذا الخطب الفادح قوله تعالى « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صــبرتم لهو خــير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»(٣) •

ويختم قوله بتذكير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالصبر ولكن فى رقة وأدب : فلم يقل لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — « واصبر واحتسب ، وانما ساق ذلك فى أسلوب خبرى جميل حيث قال: « رسول الله مصطبر » •

فالصبر من سماته — صلى الله عليه وسلم — ألم يصبر من قبل

---

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سور النجم •

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٦٢٥ المصدر السابق •

(٣) الآيات من ١٢٦ — ١٢٨ من سورة النحل •

على ايذاء المشركين ؟ ألم يحـاول أبو جهـل قتله ؟ حتى ان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قص للمشركين حالهم مع رسوله فى صورة ما حـدث لموسى من فرعون ، واعتراض الرجل المؤمن بقوله : « أتقتلون رجـلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم »(١) .

هذا المنهج من عبدالله بن رواحة يجعلنا نقرر أنه تمثل الاسـلام وتعاليمه ، وأساليبه فى وقت مبكر وهو دليل حى على تمكن الايمان من قلبه تمكنا فاق كل وصف ، وهذا ما قررناه ـ أيضا ـ فى حديثنا عن عبد الله بن رواحة ـ سيرة حياة ـ أما ما يجب أن ننبه اليه ـ أيضا ـ فان القارىء لشعره وشعر صاحبيه حسان بن ثابت ـ وكعب بن مالك يرى الفرق واضحا ، ذلك أن حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك اللذين كانا يعارضان المشركين بمثل قولهم،ويدافعان عن الدعوة الاسلامية ، وعن أعراض المسلمين بمثل ما يقوم به المشركون من تجريح الأعراض وغمزها لم تتضح فى شعرهما تعاليم الاسلام ، ولا أساليب القـرآن الا فى مرحلة متأخرة ، أما القصائد التى قيلت فى غزوة بدر ، وغزوة أحـد فقلما نجد فيها أثرا لألفاظ القرآن وتعاليمه فجاءت جاهلية فى نسجها جاهلية فى معانيها .

يقول حسان بن ثابت يهجو الحـارث بن هشام ، ويذكر هزيمتـه فى بدر :

تبلت فؤادك فى المنـام خريدة ... تسقى الضجيع ببارد بسام(٢)
كالمسك تخلطـه بماء سـحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مـدام

---

(١) الآية ٢٨ من سورة غافر .

(٢) الخريدة : الحبيبة الساكتة ، وجمعها خرد وخرائد . ببارد : أراد باردا فأقحم الباء .

نفج الحقيبـــة بوصها متنضد ... بلهاء غير وشيكة الأقسام(١)
بنيت عــلى قطن أجــم كأنه ... فضلا اذا قعدت مداك رخام(٢)
وتكاد تكســل أن تقــوم لحاجة ... فى جسم خرعبة وحسن قوام
أما النهــار فلا أفتر ذكرهــــا ... والليل توزعنى بها أحــلامى
أقسمت أنساها وأتــرك ذكرها ... حتى تغيب فى الضريح عظامى
يا من لعــــاذلة تلوم ســفاهة ... ولقد عصيت على الهوى لوامى
بكرت على بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حــــادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومــــه ... عدم لمعتكــــر من الأصرام
ان كنت كاذبة الذى حــــدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبــة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام(٣)
تذر العناجيج الجياد بقفــرة ... مر الدموك بمحصد دورجام(٤)
ملأت به الفرجين فارفــدت به ... وثوى أحبته بشر مقــام(٥)
وبنو أبيه ، ورهطه فى معــرك ... نصر الاله به ذوى الاســـلام

---

(١) نفج الحقيبة : ضخمة الأرداف ،البوص : العجيزة ، المتنضد : أى الكفل الذى يعلو بعضه بعضا ، والأقسام : الأيمان ، البلهاء : العفيفة الغفول عن الشر ، غير وشيكة الأقسام : غير سريعة اليمين ٠

(٢) القطن : مابين الوركين ، أجم ممتلىء باللحم غائب العظــام ، المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب ، وفضلا : أى قعدت متفضلة فى ثــوب واحد ٠

(٣) الطمرة : الفرس الكثيرة الجرى ٠

(٤) العنــاجيج : السراع ، الدموك ، البكرة ، المحصــد : الحبل الشديد الفتل ، الرجام : عود البكرة ، والمعنى أن الفرس سريعة سرعة البكرة التى يستقى بها البئر ٠

(٥) ارفدت : أسرعت ، ومثله أربدت ، وأرفد : مضى على وجهــه وأســـرع ٠

من كل مأســور بشد وثاقــه ... صقر اذا لاقى الكتيبة حـام
ومزج فيـه الأســنة شرعـا ... كالجفر غير مقابل الأعمام(١)
من صلب خندف ماجد أعراقه ... نجلت به بيضاء ذات تمام(٢)
ومجدل لا يستجيب لدعــوة ... حتى تزول شوامخ الأعـلام
طحنتهم والله ينفــذ أمـره ... حرب يشب سـعيرها بضرام
لولا الاله وركضــها لتركته ... جزر السباع ودسنه بحوام(٣)

فقد جاءت قصيدة حسان جاهلية لحما ودما ، فنصف القصـيدة ، أو أقل قليلا فى المقدمة الطللية التى جلب لها ألفاظا جاهلية ، أو قـل بدوية ضاربةفى البداوة ، بل ان كثيرا من شعراء البادية لم يستخدموا هذا القاموس اللغوى فى مقـدماتهم الطللية ، فقوله فى وصـف تلك الخريدة التى جعلهـا تتبل فؤاده « نفج الحقيبة بوصها متنضـد » ، وقوله « بنيت على قطن أجم » ، وقوله « مـداك رخـام » وكثير من هذه الألفاظ التى لم ترد فى الشعر الجاهلى لعبد الله •

أما القسم الثانى فقد أفرده لهجاء الحارث بن هشام الذى فر من موقعة بدر ، وترك قومه يعـانون مرارة القتل والأسر ، ولكنه فى ذلك أيضا يأتى بالألفاظ الضاربة فى البداوة كقوله « برأس طمرة » وقـوله « العناجيج » ، وقوله « مر الدموك » ، وقوله « بمحصد ورجـام » وقوله « ملأت به الفرجين فارفدت به » الى آخر تلك الكلمات والأبيات التى هجا بها الحارث بن هشام ، لنجاته وترك قومه يعانون ما لحق بهم من قتل وأسر •

---

(١) الجفر الجدى ، والجفرة : أنثى الماعز ، والجفر من أولاد المعز مابلغ أربعة أشهر ، واتسع جنباه وفصل عن أمه •

(٢) نجلت به : ولدته ، والبيضاء : النقية العرض •

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٧ ـ ١١٠ المصدر السـابق ، وابن هشام جـ ٢ ص ١٦ ـ ١٨ المصدر السابق •

ولحسان بن ثابت قصيدة أخرى قالها يوم الخندق ، ولكنك لا تجد فيها أثرا لأحداث الخندق وما من الله به على المسلمين من ارســـاله ريحــا باردة كفأت قدورهم ، وقلعت خيامهم ، وأحــدثت ذعرا بين صفوفهم فلاذوا بالفرار ، لكن حسانا يترك هذا الحدث وتصويره ، وكان جديرا به أن يبرز لنا ما قامت به القدرة الالهية فى هذه الغزوة ، بل انه لم يصور التفاف المسلمين حول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، وحفرهم الخندق وهو أمر لابد أن يثير شاعرية الشــعراء ، فتتقـــد عواطفهم ــ ليعود بالذاكرة الى ما حدث المشركين يوم بدر : فيذكرهم بما حل بهم فى ذلك اليوم ، انك لا تلمس فيها الروح الاسلامية الا فى الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة فقد جاءت فى قسمين بارزين ــ أيضا ــ قسم خاص بالغزل كما صنع فى قصيدته السابقة ، وقسم خاص بالفخر على المشركين فى بدر ، وكلاهما لا ترى فيه أثرا لروح الاسلام ، أو أسلوب القرآن الكريم ، وأستميح القــارىء عذرا فى اثبــات هذه القصيدة ــ أيضــا ــ حتى يرى فيها منهج حسان الشــعرى ، أو قل أسلوبه وهو يتحــدث عن ذلك النصر الذى انتصره المســلمون يقول حســان :

عــرفت ديــار زينب بالكثيب	كخط الوحى فى الورق القشيب
تعــاودها الرياح ، وكل جون	من الوسمى منهمر ســـكوب
فأمسى رســـمها خلقا وأمست	يبابا بعــــد ساكنها الحبيب
فدع عنــك التذكــر كل يــوم	ورد حرارة الصــدر الكئيب
وخبــــر بالذى لاعيب فيــه	بصــادق غير اخبــار الكذوب
بما صنع المليك غـــداة بــدر	لنا فى المشركين من النصــيب
غــداة كأن جمعهم حـــراء	بدت أركانه جنح الغـــروب
فلاقينــاهم منــا بجمـــع	كأسد الغاب من مــرد وشيب
أمــام محمــــد قــد آزروه	على الأعداء فى وهج الحــروب

بأيديهم صوارم مرهفات وكل مجرب خاظى الكعوب
بنو الأوس الغطارف آزرتهاى بنو النجار فى الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعا وعتبة قد تركنا بالجبوب
وشيبة قد تركنا فى رجال ذوى حسب اذا انتسبوا حسيب
ينـاديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب فى القليب
ألم تجدوا حديثى كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأى مصيب(١)

وهذه القصيدة لا تقل عن سابقتها بداوة ، وايغالا فى النهج الجاهلى فى المقدمة وفى الفخر — أيضا — فقد عرف ديار محبوبته بعد أن كادت الرياح تمحو آثارها ، فقد تعاودت عليها الرياح ، وتداولت عليها الأمطار — ثم ينتقل انتقالا لا ينم عن تعلقه بأساليب الجاهلية قائلا «فدع عنك التذكر كل يوم» وهو منهج لا يتناسب مع ما سار عليه عبد الله بن رواحة حتى فى شعره قبل الاسلام ثم اننا الآن فى العام الخامس الهجرى ، وقد تأثر المسلمون بأسلوب القرآن الكريم المكى منه والمدنى لكن حسانا مازال مرتبطا بطريقة الشعر الجاهلى فانتقل من النسيب الى الفخر بقوله « فدع عنك التذكر » .

أما فخره فى هذه القصيدة فلم يأخذ خطا مغايرا لقصيدته السابقة ، وانما سار على نفس النمط حتى عندما أراد التعبير عن صنع الله بالمشركين أتى بكلمة المليك فقال « بما صنع المليك غداة بدر »، والقرآن الكريم قد استعملها فى مقام تنعيم المتقين فى الجنة حيث قال تعالى « ان المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »(٢)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٤ — ١٣٦ المصدر السابق .
(٢) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .

واذا أراد وصف المشركين بالكثرة وصفهم بجبل حراء الذى تبدو أركانه ساعة الغروب، واذا أراد وصف المسلمين بالكثرة وصفهم بأسد الغاب، وهو تعبير جاهلى قد لا يستحسن فى وصف المسلمين الذين انضووا تحت راية الاسلام ، فقد يلمس فى أسد الغاب الفوضى والطغيان أما المسلمون فقد خرجوا لاعلاء كلمة الله ، وكذلك صنع عندما أراد الحديث عن الأنصار وصفهم بالغطاريف جمع غطريف السيد العظيم ، وهو من ألقاب الجاهلية أيضا .

ان هذه القصيدة — أيضا — لم تبد فيها ملامح الدعوة الى الله ، أو تل أسلوب القرآن الكريم الا فى قوله « يناديهم رسول الله » الى آخر القصيدة ، وهى ثلاثة أبيات لا تمثل كما معتبرا فى بنيان القصيدة.

أما كعب بن مالك فقد كان ألصق برسول الله — صلى الله عليه وسلم — من حسان، لأنه كان شاعرا وفارسا، والصحبة القتالية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — جعلته أكثر معايشة لصاحب الدعوة ولما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم لكنك اذا ذهبت تفتش عن ذلك فى قصائده فى السنوات الأولى من الدعوة الاسلامية وجدت ذلك متفرقا فى ثنايا قصائده ، فهو يركز على ناحية القتال والغلبة ، لذلك جاء شعره فى السنوات الأولى موزعا بين اتجاهين :

١ — اتجاه برز فيه الجانب الاسلامى ، والدفاع عن الدعوة بأسلوب ينم عن تمثل صاحبه لمنهج القرآن الكريم ، وذلك فى قصيدته التى يرد فيها على ضرار بن الخطاب بن مرداس الذى أراد التقليل من نصر المسلمين فى بدر فقال :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر   عليهم غدا والدهر فيه بصائر

فرد عليه كعب بقوله :

عجبت لأمر الله والله قـادر على ما أراد ليس لله قـاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا بغوا وسبيل البغى بالناس جائر

ثم تكلم عن حشد المشركين لجموعهم فقابلوهم برسول الله وجمع بنى النجار فيقول :

شـهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظـاهر

ثم يتحدث عما فعلوه بالمشركين فى بدر حتى يختم قصيدته بقوله :

وكان رسول الله قد قال أقبلوا فولوا وقالوا انما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكـوا به وليس لأمر حمه الله زاجر(١)

٢ ــ أما المنهج الثانى وهو الذى خفت فيه حدة التأثر بتعـاليم الاسلام،وبرزت فيه الروح الجاهلية ــ الا قليلا ــ فيتمثل فى قصيدته التى قالها يستغيث بالغساسنة عقب غزوة أحد فهو يقول :

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم من الأرض خرق سيره متتعتع
صحار وأعـلام كأن قتـامها من البعد نقع هامد متقطـع
تظل به البزل العراميس رزحا ويخلو به غيث السنين فيمرع
به جيف الحسرى يلوح صليبها كما لاح كتان النجار الموضع
به العـين والآرام يمشين خلفة وبيض نعـام قيضـه يتقلع

فقد أنشأ هذه القصـيدة يطلب بهـا العون من أبناء عمـومتهم الغساسنة ، ويذكر وقائع غزوة أحد ، وما أصاب المسلمين،وأن الحرب سجال بين الاسلام والكفر ، لكنه لم يشر فيها الى المبادىء الاسلامية الا فى قـوله :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص ١٤ ، ١٥ المصدر السابق

وفينـــا رسول الله نتبــع أمره اذا قال فينا القول لا نتطلــع
تدلى عليه الوحى من عند ربه ينزل من جــو السماء ويرفع

وفى قوله ــ بعد اصلاح رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لــه :

نجالد عن ديننا كل فخمة مدربة فيها القوانس تلمــع

فقد قاله هكذا .. نجالد عن جذمنا .. فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألا يمكن أن يقال نجالد عن ديننا ؟ فقال : بلى . فأتى كما تقدم .

وهناك قصيدة لكعب قالها فى رثاء حمزة بن عبد المطلب وشــهداء أحد اقترب فيها من المنهج الاسلامى ، فهو يقول :

نشجت وهــل لك من منشــج وكنت متى تذكر تلجـــج(١)
تذكــر قـــوم أتانى لهــم أحاديث فى الزمن الأعـــوج
فقلبك من ذكـــرهم خـــافق من الشوق والحــزن المنضج
وقتـــلاهم فى جنـــان النعيم كـــرام المدخـل والمخرج
بما صبروا تحت ظـــل اللواء لواء الرسول بذى الأضوج(٢)
غـــداة أجـــابت بأسيافها جميعا بنـــو الأوس والخزرج
وأشــياع أحمد اذ شــايعوا على الحق ذى النور والمنهج(٣)
فمـــا برحوا يضربون الكماة ويمضون فى القسطل المرهج(٤)
كذلك حتى دعـــاهم مليــك الى جنة دوحـــة المولــج(٥)

---

(١) نشــجت : بكيت ، تلجج : من اللجج وهو الاقامة على الشىء والتمادى فيه .

(٢) الأضوج : جمع ضوج ، وهو جانب الوادى ، والأضوج بفتح الواو اسم مكان .

(٣) شايعوا : تابعوا ، المنهج : الطريق الواضح .

(٤) الـكماة : الشــجعان . القســطل : الغبــار ، المرهج : الذى علا فى الجو .

(٥) الدوحة : شجرة كثيرة الأفنان ، المولج : المدخل .

فكلهم مات حـــــر البـــلاء على ملة الله لم يخــرج(٦)
كحمزة لمـــا وفى صـــــادقا بذى هبة صـــارم سلجج(٧)
فلاقـــاة عـــبد بنى نوفـــل يبربر كالجمل الأدعـــج(٨)
فأوجره حـــربة كالشـــهاب تلهب فى اللهب الموهـــج(٩)
ونعمـــان أوفى بميثـــاقه وحنظلـــة الخير لم يحنـــج(١٠)
عن الحق حتى غدت روحـــه الى منزل فاخـــر الزبـــرج(١١)
أولئـــك لا من ثـــوى منـــكم من النار فى الدرك المرتج(١٢،١٣)

هذه القصيدة ـــ كما يراها القارىء ـــ قريبة الى الروح الاسلامية منها الى الشعر الذى قيل فى الرد على المشركين ، وابطال حججهم فى الـــنصر الذى ظفروا به ، ولكنه هنا يعمد الى ألفاظ قوية قد لا تتناسب والرثاء الذى أراد ، فكل ألفاظ القافية ألفاظ قوية جزلة تحتـــاج الى ـــمعاجم لغوية للتعرف على معانيها ، فالكلمات : تلجج ، والأضوج ـــ المرهج ـــ سلجج ـــ الأدعج ـــ الموهج ـــ لم يحنج ـــ الزبرج ـــ المرتج كلها كلمات تحتاج فى بيان معانيها الى جهد كبير ، أما معـــانى كعب ـــ

(٦) حر البلاء : خالص الاختبار ٠

(٧) بذى هبة : يعنى سيفا ٠ وهبة السيف : وقوعه بالعظـــم ٠ الصارم : القاطع ، وسلجج : مرهف ٠

(٨) عبـــد بنى نوفل : وحشى قاتل حمزة ، يبربر : يصـــيح ، الجمل الأدعج : الأسود ٠

(٩) أوجره : طعنه فى ،الشهاب : القطعة من النار ،الموهج : الموقد

(١٠) لم يحنج : لم يصرف عن وجهه الذى أراده من الحق ٠

(١١) الزبرج : الوشى ٠

(١٢) الدرك ما كان الى أسفل ، وعكسه الدرج ٠

(١٣) ابن هشـــام : السيرة النبـــوية ق٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ المصدر السابق ٠

فى هذه القصيدة فتتمثل فى البكاء على هـؤلاء القتلى الذين أصيبوا فى أحد ، وأنهم فى جنان النعيم ، وذلك لأنهم كانوا تحت لواء رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — من المهاجرين كانوا أو من الأنصـار الذين شـايعوا أحمد — صلى الله عليـه وسلم — على الحق ، وما برحـوا يضربون الكماة ويمضون فى الغبار المتكاثف •

أما حمزة بن عبد المطلب — رضى الله عنه ، فقد تمكن منه حبشى عبد بنى نوفل ، فأوجره حربة قاتلة،هؤلاء الرجال الذين استشهدوا فى سبيل الله مأواهم الجنة ، أما قتلى المشركين فانهم فى الدرك الأسفل من النار وبئس القرار •

أما عبد الله بن رواحة فاننا نراه يقتفى أثر الاسلام فى كثير من شعره ، بل فى شعره المبكر — كما أسلفت ففى حديثه عن استشهاد حمزة ترى كثيرا من معانى القرآن الكريم متمثلة فى الصبر ، وما أعده الله للشهداء من أجر ، وتبليغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ربه ، ووصفه له بالصبر وقوة الاحتمال ، مما يجعل عبد الله بن رواحة فى مكانة أسمى من مكانة صاحبيه من حيث تمثـله القرآن الكـريم ، ولمبادىء الاسلام التى بلغها رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — حقيقة أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك قاما بدور رائد فى خـدمة الدعوة الاسلامية ،والدفاع عن أعراض المسلمين ، لكنهما انطلقـا من منطلق يختلف عن منطلق ابن رواحة •

فاذا تتبعنا أبيات ابن رواحة التى قالها فى مناسـبات مختلفة ، وأرجعناها الى مصادرها التى أخذت منها فاننا نجدها تمتد بسبب قوى الى القرآن الكريم ، والى سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمن أولى مقطوعاته تلك التى يقول فيها :

شهدنا بأن وعـــد الله حـــق وأن النـــار مثوى الكافرينـــا
وأن العرش فـــوق الماء طاف وفوق العـــرش رب العالمينا
وتحمـــله ملائكة كـــرام ملائكة الاله مقربينـــا

فالبيت الأول يتضمن معانى كثيرة مستقاة من القرآن الكريم منها الشهادة ، والشهادة لا تتمثل فقط فى قوله تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم »(١) ولا تتمثل فقط فى قوله — صلى الله عليه وسـلم — بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وانما تعنى الاقرار اليقينى بأن كل ما وعد الله به حق ، وخاصة ما غيب عنا ، فالجنة حق والنار حق •••• ووعد الله — لا يعنى — فقـط — وعـده بالجنـة للطـائعين ، ووعيـده بالنـار للعاصين وانما يتمثـل فى وعـده المؤمنـين بتمكينـهم فى الأرض ، واسـتخلافهم فيهـا : قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما اسـتخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»(٢) •

والآيات القرآنية كثيرة فى ذلك بحيث لا تخلو سـورة من سور القرآن الكريم لا تذكر ذلك الأمر الذى وصل عند عبد الله بن رواحة — مبكرا — الى درجة المسلمات اليقينية ، ولذلك نراه يستخدم أسلوب التوكيد فى قوله : « بأن وعد الله حق » وفى قوله : « وأن النـار مثوى الكافرينا » ، ولا يعوز القارىء الدليل على ما جاء فى البيت الأول من نصوص قرآنية •

---

(١) الآية ١٨ من سورة آل عمران •
(٢) الآية ٥٥ من سورة النور •

أما البيت الثانى والثالث فيسيران — أيضا — فى مجال المسلمات بالغيب . قال تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » وقال تعالى « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »(١) .

وقال تعالى « الرحمن على العرش استوى »(٢) ، وقال تعالى : «والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»(٣) .

ان الايمان بالغيب أجل مراحل الايمان ، فالناس فى مراحلهم الايمانية يحتاجون الى مشاهدات تجعلهم يذعنون لله الواحد الأحد ، فهو القادر الذى خلق السموات والأرض ، وقدر فيها أقواتها ، ووضع لها نظاما تسير عليه لا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة علمية أن يصلوا اليه ، ثم تأتى المراحل التالية لذلك وهى الايمان بالمغيبات التى لا تدرك بالعقل المجرد ، وانما تحتاج الى تسليم مطلق ، ويقين بأن وعد الله لا يتخلف .

ويأتى وفق ذلك ايمان عبد الله بن رواحة ، فهو الايمان الذى لا تشوبه شائبة فى كل ما أرشد اليه الله — سبحانه وتعالى — وأخبر رسوله — صلى الله عليه وسلم — ان الشاعر يظهر مكنون نفسه ، ومخبوء قلبه ، ويعلن للناس جميعا انه لا ايمان الا اذا كان قلب المؤمن مفعما بهذه المعانى ، عامرا بالتسليم بها .

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ١٧ من سورة الحاقة

وهناك قصيدة أخرى قالها عبدالله بن رواحة — أيضا — تتضح فيها معانى القرآن الكريم ، فقد قال عبد الله فى بدر الموعد :

عصيتم رسول الله أف لدينكم	وأمركم السىء الذى كان غاويا
فاننى وان عنفتمونى لقـائل	فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره	شهابا لنا فى ظلمة الليل هـاديا

فقد لمس فيها كثيرا من معانى القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعصيان الكفار لرسول الله أمر أكـده القرآن الكريم كثيرا قال تعالى : «ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعـلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »(١) ، ولقد نعى القرآن الكـريم على المشركين عبادتهم الأصنام والأوثـان وهى لا تملك لنفسها نفعـا ولا ضرا ، انها لا تستطيع دفـع العدوان عليها ، فكيف تنفع غيرها ، قال تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شـيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قـدره ان الله لقوى عزيز »(٢) .

ثم يلمس عبدالله بن رواحة فى البيت الثانى معنى قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من ماله وولده » وقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

---

(١) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٧٣ — ٧٤ من سورة الحج .

أما البيت الثالث فقد لمس فيه معنى قوله تعـالى : « يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيـا الى الله باذنه وسراجا منـيرا »(١) .

واذا ذهبنا نتابع أناشيده التى كان يرددها خلفه صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاننا نجدها أناشيد مستمدة من القرآن الكريم فقوله فى نشيد بناء مسجد قباء :

أفلح من يعالج المسـاجدا ويقرأ القرآن راكعا وساجدا
ولا يبيت الليل عنه راقدا

مستمد أيضا من القـرآن الكريم ففى الشطر الأول يلمس قوله تعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقـام الصلاة ، وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتـدين »(٢) .

وفى الشطر الثانى يلمس قوله تعالى «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين»(٣)

وفى الشطر الأخير يلمس قوله تعالى فى عباده المؤمنين : « تتجافى جنو بهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»(٤) .

وفى نشيده فى غزوة الخندق :

لا هم ان العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

---

(١) الآيتان ٤٥ — ٤٦ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف .
(٤) الآيتان ١٦ — ١٧ من سورة السجدة .

نلمس قوله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »(١) ، وقوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »(٢) .

وكذلك نشيده الذى قاله وهو ممسك بزمام ناقته — صلى الله عليه وسلم — وهم يؤدون عمرة القضاء :

خلوا بنى الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله	فى صحف تتلى على رسوله
بأن خير القتل فى سبيله	يا رب انى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله	نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله	ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله	أو يرجع الحق الى سبيله

فكل هذه المعانى يمكن ردها الى آيات القرآن الكريم ، قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »(٣) ، وقوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٤) .

---

(١) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٨٣ من سورة القصص .
(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ١٦٩ — ١٧٠ من سورة آل عمران .

وقوله « نحن قتلناكم على تأويله فيه اشارة الى قوله تعالى : « هل ينظرون الا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون »(١) .

واذا ذهبت تتصفح شعره الذى قاله فى موقعة مؤتة تجده كثيرا ما يضع القرآن الكريم أمام ناظريه ، وكذلك أحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وكل تعاليم الاسلام ، ويتضح هذا من قوله يخاطب ناقته :

اذا أديتنى وحملت رحلى   مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم وخلاك ذم   ولا أرجع الى أهلى ورائى
وجاء المسلمون وغادرونى   بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب   الى الرحمن منقطع الاخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل   ولا نخل أسافلها رواء

لقد أثرت تعاليم الاسلام فى شاعرية ابن رواحة ، حتى جعلته رقيق الشعور مرهف الحس يجزى كل من أسدى اليه معروفا الجزاء الأوفى ، ولو كان حيوانا ، وهذا هو المنهج الاسلامى الذى يرحم الطير والحيوان كما يرحم الانسان ، لقد طلب عبدالله من ناقته أن توصله الى هدفه الذى يسعى اليه وهو خوض المعركة والاستشهاد فيها ، ويومها سيكون شكرها واجبا عليه ، وقد وضع عبدالله بذلك منهجا رائدا فى معاملة الحيوان ، قال المبرد فى الكامل : « ولله در ابن رواحة — رضى الله عنه — وما أحسن قوله لناقته حيث دعا لها ، وقد اقتفى أثره فى ذلك داود بن سلم فى قوله يمدح قثم بن العباس — رضى الله عنه —

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

نجوت من حل ومن رحلـة يا ناق ان قربتنى من قثـم

وقد عيب على الشماخ قوله فى مدح عرابة الأوسى :

اذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

حيث دعا على ناقته بأن تذبح على خلاف قول عبدالله بن رواحة — رضى الله عنه — « قالوا كان ينبغى له أن ينظر لها عند استغنائه عنها ، ولعل عبد الله بن رواحة نظر فى ذلك الى قول رســول الله — صلى الله عليه وسلم — لامرأة الغفارى التى أسرت يوم ذى قرد ، ثم نجت على ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت انى نذرت أن أنحرها يا رسول الله ان نجانى الله عليها — بئس ما جزيتهــا ان حملك الله عليهــا ، ونجــاك بها ثم تنحــرينها انه لا نذر فى معصية ، ولا نذر فيما لا تملكين ، انما هى ناقة من ابلى فارجعى الى أهلك » ولم يتأثر ذو الرمة بالمنهج الاسلامى فقال متابعا الشماخ بن ضرار :

اذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جاذر(١)

ان القارىء لشعر عبد الله بن رواحة الاسلامى يجد فيه ملامح القرآن والسنة النبوية لائحة ، فى كل بيت من أبيــاته ، وفى كل معنى من معانيه ، واذا كنت قد قدمت حديثا عن تمثله المبكر لتعاليم الاسلام ومنهج القرآن الكريم فانذلك أمر لاينكره عليه أحد،لأن عبدالله بنرواحة كان ملاصقا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حله وترحاله ، وهذه الملاصقة تولد تأثرا ذا كيفية خاصة بصاحب الدعوة تختلف عن تأثر غيره به فيما يكون من أعمال وأقوال .

---

(١) علىّ شاكر فهمى حابى زاده : حسن الصحابة فى شرح أشــعار الصحابة جـ ١ ص ٣٧ ط الآستانة ١٣٢٤ هـ .

ولا ريب فى أنه قد تميز كل من ثلاثة الشعراء : عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك بما قدمه من خير للدعوة وصاحبها ، كما تميزوا مجتمعين عن غيرهم فى ذلك ليكون ثلاثتهم مثلا مضروبا فى الناس للتكامل من عناصر ومعادن اختصها الله بالحسن والنفاسة والصدق والأمانة وجودة الأداء فى كل ما صدر منهم وظهر دليلا على سلامة الصدور ، واخلاص النية فى الدين ، وحسن الاستماع وتمام الاتباع للرسول — صلى الله عليه وسلم — .

والله — جلت حكمته — يظهر نوره الذى أحله قلوب عباده المؤمنين من صحابة رسوله — صلى الله عليه وسلم — فى أشكال وأساليب دفاعهم عن الاسلام ودعوته ، كما يظهره كذلك فى أنماط حياتهم التى يعيشونها بمقادير وكيفيات مقدرة ، ففريق من جنده — فى الدفاع عن عقيدته قد قدر له أن يحمل السيف ينازل به الأقران غير هياب ولا وجل ، واذا هتف بشىء من القول فمن خلال المعارك الدائرة ، والحروب الثائرة ، قد ربط الله على قلبه ، وثبت قدمه ، وبارك همته وسيفه وعزمته ، وتمام اطمئنانه يكون فى زحفه مع الزاحفين مجاهدا ومجالدا ، ساحاته ساحات نفوس تفتدى التوحيد بالدماء والشهادة ، وهذا الفريق من الجند يقل كلامه ، وهو قادر عليه مالك لنواصيه ، لأن شهوده الحرب ، واستعداده لها ، وانفعاله بها قد شغله،واستحوذ عليه وتمكن منه ، وملأ عليه أقطار نفسه ، وفريق من الجند فى هذا السبيل قد قدر له أن يكون لسانه وكلامه أسبق من نزاله وقرانه،فصاغ القول ونسجه ، وأحكم منه البناء يؤذن بالحق ويهتف به مادحا له مثنيا عليه ، مرغبا فيه مرهبا به ومنه ، استعمله الله فى ذلك وهيأه له، تفيض المعانى على قلبه فيصنع منها الدراب والسهام والصوارم يوجهها الى القوم تصعق منهم الآذان ، وتزلزل منهم قواعد الأمان ، تفتت أكباد الأفهام ، وتخمد لهيب الانتقام ، تنزل الرعب والفزع ، وتبنى

سدود اليأس والجزع ، تهزم اللذات وتفرق الجماعات،وتقضى بالممات، قولتهللعدو صاعقة وشهاب وللولى نور يهتك فى الظلام كل حجاب،وكلامه فى الترهيب ككلامه فى الترغيب يؤتى أكله باذن ربه ، وكان له ذلك لأن الله استعمله فيه وييسره له وأعانه عليه وشغله به وألهمه من المعانى ما كان مشرقا فى المبانى ، وروح القدس معـــه ، وان منهم من لسانه يحـــلق الشعر ويفلق الصخر ، وهو مع هذا ان دعى الى النزال نز لـ قادرا عليه خبيرا به ـــ لكنه لا ينزل من ذاته اذ هو مشغول بغيره مســتعمل فيه • والصحابة ـــ رضوان الله عنهم ـــ مع رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أمرهم طاعة ، يعقلون عن الله أمره فيهم ونهيه ويحبون رســوله ويحفظــونه وينصرونه ، وهو ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فى قلوبهم داعى الله وخاتم المرسلين وشفيعهم يوم الدين يفنون أعمارهم دفاعا عن الحق الذى جاء به تقربا الى الله ورغبة فى رضاه ، يبـــذلون مهجهم وأرواحهم وأموالهم وأغلى ما عندهم من مواهب الله فى سبيل الله ، كل قد عرف من رسول الله مهمته وعلم تكليفه ، فهذا فى المعركة سيف وسنان ، وغيره فيها قريض رنان ، وكل ميسر لما خلق له ، وهم بعد رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قدوة وأسوة ـــ «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتـــديتم اهتـــديتم » ، ـــ رضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم تحت لواء الحبيب محمد قائد الغر المحجلين ومن له الشـــفاعة يوم الدين • واذا كان الثلاثة قد أسهموا اسهاما رائدا فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية فان عبدالله بن رواحة يأتى المجلى فى ميدان الفروسية الايمانية ، حتى وان كان مقلا فى عطائه الشعرى ، ولقد سبق أن ذكرنا رأى صاحب الأغانى الذى أوضح فيه أن عبدالله بن رواحة كان أقوى الثلاثة أثرا ، وأشـــدهم ايلاما للمشركين يوم أن اعتنقوا الاســـلام ، وتمثلوا تعاليمه ، لأنهم عندئذ فهموا ما كانوا يصدرون عنه من عمـــاية جهل ، وتيه بصيرة وتعطيل فكر ، وهو الجانب الذى عالجه ابن رواحة •

لقد كان عبد الله بن رواحة أحد الفرسان الثلاثة فى حلبة الصراع بين الحق والباطل فى معارك المؤمنين والكفار ، والذين هيـأ الله لهم أن يكونوا الأداة الضـاربة بسيف الله فى رقاب المشركين ، وعلى مقربة من رسول الله الكريم — صلى الله عليه وسلم ، ويحملون بين ضلوعهم قلوبا تنبض بالايمان العميق مما كان يجعلهم فى الصفوف الأولى للمقـاتلين شجعانا غير هيابين »(١) •

واذا جاز لنا أن نجعـل عبد الله بن رواحة ثالث ثلاثة فى ميـدان الدفاع عن الاسلام بالكلمة والحجة والبيان فجدير بنا أن نجعله ثانى اثنين فى ميدان الدفاع عن الاسلام بالفروسية والسنان ، بل انه الأول اذا عد الذين دافعـوا عن الاسـلام ، وجادوا بأرواحهم فى ميـدان البطولة والجهاد •

واذا كان عبد الله بن رواحـة قد أدى دوره الرائد فى الدفاع عن الدعوة الاسلامية ، واذا كان قد أسهم بسهم وافر فى الدفاع بلسـانه وسيفه ، واذا كان صاحباه : حسـان وكعب قد قاما بجهد عظيم فى هذا المجـال فان ثلاثتهم لا يمكن لنـا أن نجعلهم يقفون الى جـوار أولئك الشـعراء الفرسـان الذين اعتنقوا الاسـلام بآخرة ، والذين قاموا بدورهم المنوط بهم فى نصرة الدعوة الاسلامية •

ذلك أن هؤلاء الشعراء دخلوا الاسلام وقد عمت دعوته الجزيرة العربية الا قليلا منها ، بل ان دعوته بلغت مشارف الشام فى مؤتة ، بل ان رسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد بلغوا الدعوة الاسلامية الى سائر الملوك والأمراء فى بلاد العالم التى كانت معروفة وقتذاك ،

---

(١) د• عبد الحليم محمود زلط : التأثير النفسى للاسلام فى الشعر ص ٣٢٦ ط دار اللواء للنشر والتوزيع — الرياض — السعودية •

ولا يمكن لهؤلاء أن يرقى دورهم الى ذلك الدور الذى قام به السابقون والاســلام مازال يتحسس طريقه الى الدنيا ، ومازالت دعوته تواجه تحديات لا طاقة لهم بهــا الا طاقة الايمــان الثابت واليقين الراســخ والعقيدة التى لا تزعزعها أعتى الأعاصير •

لقد سبق أن قدمت نماذج من شعر أولئك الشــعراء الذين دخلوا الاسلام وقد أخذ طريق العودة مرة أخرى الى مكة المكرمة ، ولا بد أن تكون شوكة الاسلام قد قويت ، ودعوته يحرسها رجال أشداء يدافعون عن عقيدتهم ، وقد أصبح سلاح المبادءة فى أيديهم بعد أن كانت المدينة هدفا لهجمات المشركين •

فاذا كان العباس بن مرداس ، أو النابغة الجعدى ، أو أبو محجن الثقفى قد أسهموا فى نصرة الاسلام فانما صنعوا ذلك فى الوقت الذى خفت فيه حدة الصراع بين المســلمين والمشركين ، بل فى الوقت الذى أسلم فيه كثير من شــعراء المشركين ، فأبو ســفيان بن الحــارث بن عبد المطلب يعتنق الاسلام ، ويهــاجر الى المدينة ليلتقى برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويقول فيه قصائد يعتذر بها عما قاله فى الهجوم على الاسلام والمسلمين واليك قصيدة من قصائده التى دونتها له كتب السيرة ، يقول ابن هشام : وأنشــد أبو ســفيان بن الحارث قوله فى اسلامه ، واعتذر اليه ــ أى الى رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما كان مضى منه فقال :

لعمــرك انى يوم أحمــل راية
لتغلب خيــل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليــله
فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هــدانى هاد غير نفسى ونالنى
مع الله من طــردت كل مطــرد

أصـد وأنأى جاهدا عن محمد
وأدعى ـ وان لم أنتسب ـ من محمد
هم ما هم من لم يقل بهـواهم
وان كان ذا رأى يلم ويفنـد
أريد لأرضيهم ولست بلائط
مع القوم ما لم أهد فى كل مقعد(١)

وعمرو بن العاص يهاجر الى المدينة معلنا اسـلامه قبل الفتح ، وعبدالله بن الزبعرى يعلن اسلامه بعد فتح مكة ، ويعفو عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ، فقد سقط اذا سـلاح الكلمة على أيدى فرسان الاسلام الأوائل ، وأصبح دور الآتين بعدهم محصورا فى الدفاع عن الاسلام بأسنتهم ، ولكن الشاعر الفارس لا يستطيع القاء سـلاح الكلمة ، لأنه يصف المعارك التى خاضها ، والأحداث التى عاصرها ، وهذا جانب لا ينتهى بانتهاء الصراع بين المسـلمين ومشركى مكة ، وانما هو ممتد طالما بقى صراع بين حق يجب أن يعم العالم نوره ، وبين باطل يجب أن يزول ويمحى أثره ، ولعلنـا نلمس ذلك السـلاح فى معاركنا المعاصرة بيننا وبين اليهود •

ولكن طبيعة البحث تفرض علينا القاء نظرة فاحصة لهذا الشـعر الذى قاله أولئـك الشـعراء فى فتح مكة ، وما تلاها من فتوحات لنرى أثر الاسلام فى هذا الشعر ، ولنتبين منهج أولئك الشعراء فى شـعرهم حتى نقف على مدى تمثلهم لتعاليم الاسلام ، وبروزها فى هذا الشعر •

يأتى فى مقدمة هؤلاء الشـاعر الفارس العباس بن مرداس الذى سبق أن ذكرت عنه أنه اعتنق الاسلام والرسول فى طريقه الى مكـة

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق٢ ص ٤٠١ المصدر السابق •

المكرمة فاتحا لها ، ولقد قيل ان العباس بن مرداس اشترك فى فتح مكة ومعه آلف فارس من بنى سليم ، ثم خاض المعارك التالية : حنين والطائف بهذا العدد من الجند الذى حرص فى شعره على أن يبرز قوة قومه وعددهم،وأنهم دافعوا عن الدعوة الاسلامية ، وحاربوا فى صفوف المسلمين يتقدمهم الضحاك بن سفيان الكلابى الذى أبلى فى هذه المعارك بلاء حسنا •

والقارىء لشعر العباس يرى فيه جانبين : الجانب الأول • تبرز فيه بعض الكلمات الاسلامية التى شاعت فى ذلك العصر ، والتى وردت فى بعض آيات القرآن الكريم كقوله فى مدح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأنه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل بالحق ، ويهدى للتى هى أقوم ، ثم ان الله آلقى عليه محبة فى خلقه ، وسماه محمدا وهى كلمات جاء بها القرآن الكريم ، قد يشتم القارىء منها تأثر العباس بما جاء فى القرآن الكريم ، غير أنه استخدم فى أول القصيدة نداءه لرسول الله بقوله « يا خاتم النبآء جمع « نبىء » وهذه الكلمة فى النفس منها شىء، لأنه ورد النهى عن نبر النبى فالأولى أن يجمع على أنبياء ، فهل قال العباس هذه الكلمة قبل النهى عن النبر أو أنه لم يصل اليه ما قاله — صلى الله عليه وسلم ، يقول العباس :

يا خاتم النبآء انك مرسل	بالحق كل هدى السبيل هداكا
ان الاله بنى عليك محبة	فى خلقه ومحمدا سماكا

والى هنا ينتهى الجانب الأول من قصيدة العباس بن مرداس ذلك الجانب الذى يستشف منه القارىء روح الاسلام متمثلة فى تلك الكلمات التى أوردها العباس فى وصف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم يأتى الجانب الثانى الذى تطل علينا من خلاله روح العصر الجاهلى لتحيل ذلك الشعر الى لون من آلوان الفخر القبلى الذى رأينا ملامحه

عند عمرو بن كلثوم والحـارث بن حلزة ، وغيرهما من شـعراء الفخر القبـلى •

فجنود بنى سليم « الألف » قد وفوا بعهدهم لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، فتقدموا لخوض المعارك يتقدمهم الضحاك ، ثم يصف الضحاك بأنه رجل ذرب السلاح لا يرعى فى ذلك قرابة ، لأنه لا يرجو الا رضـا الرحمن ، ثم رضا رسوله ، ثم يعطينا صورة توضـح أنه اشـترك مع الضحاك فى هذه الموقعـة ، فقد رأى مكره تحت العجـاج طورا يعانق عدوه بيديه ، وتارة يفرى الجماجم بسيفه ، ثم بنو سـليم أولئك الذين أسرعوا الى ساحة القتال يضربون ويطعنون كأنهم أسد العرين تشابكت فى عراك مرير •

فاذا ما اتجه بالحديث فى نهاية القصيدة الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معلنا له أن هؤلاء الجنود لا يريدون من معاركهم هـذه الا طاعة الله وهدى رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانه ما يلبث أن يعود سيرته الأولى فيقول :

هذى مشاهدنا التى كانت لنا   معروفة وولينـا مولاكا

ان هذا اللون من الشعر يمكن للقارىء رده الى مصدره الأول وهو الشعر الجاهلى الذى افتخر فيه الشعراء بقومهم ، وخوضهم للمعارك ، وقوة بأسهم ، واليك قطاعا من قصيدته الكافية تتبين فيه ما ألمحنا اليه يقول العباس متحدثا عن موقعة حنين وموقف الضحاك فيها :

أنبيـك أنى قـد رأيت مكـره
تحت العجاجة يدفع الاشراكا
طورا يعـانق باليدين وتارة
يفرى الجماجم صارما بتاكا

يغشى به هام الكماة ولو ترى
منـه الذى عاينت كان شـفاكا
وبنو سـليم معنقون أمامه
ضربا وطعنـا فى العـدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم
أسـد العـرين أردن ثم عراكا

فأين يقع هذا من قول عبد الله بن رواحة يوم عمرة القضـاء وهو ممسك بزمام ناقة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ؟

وهكذا يأتى شـعر العباس بن مرداس حاملا لنا ملامح البادية ، أو قل ملامح الشـعر الجاهلى الذى لم يتأثر بمنهج القرآن الكريم ، وهناك قصيدة أخرى للعباس بن مرداس يقول فى مقدمتها :

يأيهـا الرجل الذى تهـوى به
وجناء مجمرة المناسم عرمس
اما أتيت على النبى فقـل له
حقـا عليك اذا اطمأن المجلس
يا خير من ركب المطى ومن مشى
فوق التراب اذا تعـد الأنفس

أبيات ثلاثة يمدح بها رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لكنه ما يلبث أن يتحدث عن قومه فيصـفهم بالقوة والشـجاعة والاقدام ، والقصيدة عرضت لتحليلها فى الفصـل الثالث من هـذا البحث ، فارجع اليها ، وتدبر معانيها فانك لن تخرج منها الا بذلك الجانب الفخرى بقومه وما بذلوه فى فتح مكة ، وما تلاها من فتوح .

وهذا ما يجعلنا نقرر ــ مطمئنين أن الرعيل الأول : حسانا وكعبا

وعبد الله ــ قد تمثلوا تعاليم الاسـلام وعملوا على نشرها ، بل تمثلوا عبير القرآن الكريم فى ألفاظهم وأسـاليبهم ، حتى فى فخرهم ، فقد افتخروا ، وخاصة عبد الله بن رواحة ــ بأنهم حملوا رسالة الاسلام ، وعملوا على تبليغها ، والدفاع عنها ضد تلك الهجمات الشرسة التى قام بها أعداؤها ، ثم انهم افتخروا بوجود رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بينهم ينعمون به ، ويسعدون بصحبته .

واذا ذهبنا نستوضح هذا الاتجاه عند النابغة الجعدى فاننا نجده أكثر نزوعا الى البادية ، فقصيدته التى قالها فى حضرة رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جاهلية لحمـا ودما ، وليس فيهـا من مبادىء الاسلام وتعاليمه الا قوله :

تبعت رسول الله اذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

وقوله الذى أعجب به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم .

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له
بوادر تحمى صـفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن له
حليم اذا ما أورده الأمر أصدرا
ففى الحلم خير من أمور كثيرة
وفى الجهل أحيانا اذا ما تعذرا

فهذه معان سامية ورد بها القرآن الـكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، أما افتتاحية القصيدة ، وخاتمتها فجاهليتان ، لأن الافتتاحية بدأها بقوله :

خليلى غضا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أوذرا

وهى افتتاحية تعبر عن تلك الأحداث التى مر بها النابغة الجعدى فى سنى عمره الطويلة ، أما الخاتمة فقد حذا فيها حذو زهير بن أبى سلمى فى حكمه المتلاحقة بداية بقوله :

كذاك لعمرى الدهر يومان فاعرفوا   شرور وخـير لا بل الشر أكثرا

ونهاية بقوله :

أقيم على التقوى ، وأرضى بفعـله   وكنت من النار المخوفة أوجرا

ولو أخذنا جانبا من شعر أبى محجن الثقفى ، والذى قاله فى موقعة القادسية لرأيناه ينزع فيه من منزع قبلى ، فقد افتخر أبو محجن عندما اشترك فى هذه المعركة بقومه ثقيف حيث يقول :

لقد علمت ثقيف غـير فخـر
بأنا نحن أكرمهم سـيوفا
وأكثرهم دروعا سـابغات
وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا

فهذا جانب من الشعر سار فيه هذا الشاعر على نظام الفخر القبلى الذى رأيناه عند العبـاس بن مرداس من قبل : وقد كان أبو محجن فى بعض مايروى عنه من مواقف متصلة بالحرب والشراب صورة للفارس الجاهلى الذى لم يتأثر — كثيرا — بروح الاسلام(١) .

نحن — اذا — أمام شعراء قد اعتنقوا الاسـلام ، ودافعوا عنه بسيوفهم ، وحاولوا وصف المعارك التى خاضوها من منطلق قبلى ، لا من

---

(١) د. عبد القادر القط : فى الشـعر الاسـلامى والأموى . دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت — لبنان .

منطلق اسلامى ، فقد طغى الفخر بالقبيلة على الفخر بالاسلام ولميقولوا كما قال القائل :

أبى الاسلام لا أب لى ســـواه   اذا افتخـــروا بقيس أو تميم

وانما افتخروا بقبائل بنى سليم أو بنى جعده ، أو ثقيف ، وهى نزعة يرفضـــها الاسلام ، أو قـــل يرفضها أولئك الذين أشربوا بروح الاسلام ، وتمثلوا تعاليمه ومبادئه ، فأضـــحى ســـلطانه أقوى عليهم من أى سلطان .

واذا كنا قد رأينا هذه النزعة عند كعب بن مالك فى أول الأمر فانه مالبث أن تخلى عنها ، وأصبح لسانه لا ينطق الا بقوة الاسلاموالمسلمين أما عبد الله بن رواحة الذى تمثل تعاليم الاســـلام وتعمقها وأصـــبحت الدعوة الاسلامية شغله الشاغل ، فان النزعة القبلية لم ترد فى شعره ، وانما دافع عن الاسلام ، لأنه مسلم وكفى .

لكن الملاحظ أن هؤلاء الشـــعراء الذين اعتنقوا الاســـلام بآخرة أكثرهم من البوادى ، « وشعراء البادية كثيرون كثرة ملحوظة،والكثير منهم لم تكن له بالاسلام صـــلة فى الفترة الأولى ، ومن اتصـــل منهم بحياة المسلمين يختلف حظهم من التأثر بالدين ، فمنهم من مس الايمان قلبه ، فكان مسلما صحيح الاســـلام ، وظهر أثر الاسلام فى شـــعره واضحا،ومنهم من كانت صلته بالدين قليلة ضعيفة وكذلك كان أثر الدين فى شعرهم قليلا ضعيفا يظهر فى أبيات ضمن القصـــيدة ، ويكون المعنى الدينى لديهم بسيطا ساذجا »(١) .

---

(١) د. يحيى الجبورى : شـــعر المخضرمين وأثر الاســـلام فيه ص٢٥٤ ط مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان .

ويستمر الكاتب قائلا : « ويمتاز شعر البادية المتأثر بالاسلام بأنه شغل بطرق فنون غير التى طرقها شعر مكة والمدينة ، فشعر المدينتين كانت النقائض محوره ،أما شعر البادية فقد ازدهر فى جو مختلف عن جو الخصومات السياسية بين المسلمين والمشركين ، لأنه كان متأخرا عن تلك الفترة ، ولأنه استمر معزولا عن الحياة الاسلامية ، ولذلك فقد كان شعرهم هو شعر الوفود ومدح الخلفاء،ورثائهم ، ثم ان هذا الشعر ذاع واستمر بعد زمن الرسول الكريم ، فانتقل الى بيئات أخرى غير بيئة الحجاز ، فقد ازدهر فى الأمصار الاسلامية ، وأثناء الفتوح ، ولو أن طابع الاسلام فى شعر الفتوح لم يكن واضحا كل الوضوح ، فعلى الرغم من أنه قيل فى مناسبة دينية هى الجهاد فى سبيل الله فان الشعر كان يتغنى ببطولات فردية ، أو جماعة قبلية لا بطولات دينية تمثل جماعة المسلمين »(١) ٠

آراء النقاد فى شعر عبد الله بن رواحة :

ولعله من المناسب أن نختم جولتنا مع عبد الله بن رواحة بذكر بعض الآراء التى أدلى بها النقاد — قدامى ، ومحدثين فى شعره وشاعريته ٠

١ — يأتى فى مقدمة هؤلاء النقاد الراوية الناقد محمد بن سلام الجمحى ، فقد وضع ابن سلام عبد الله بن رواحة ثالث ثلاثة كان لهم دور بارز فى شعر القرى العربية ، قال ابن سلام : « وعبد الله بن رواحة عظيم القدر فى قومه ، سيد فى الجاهلية ، ليس فى طبقته التى ذكرنا أسود منه ، شهد بدرا ، وكان فى حروبهم فى الجاهلية يناقض

---

(١) د٠ يحيى الجبورى : شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه ص ٢٥٠ المرجع السابق ٠

قيس بن الخطيم ، وكان عظيم القدر والمكانة عند رسول ــ صلى الله عليه وسلم »(١) ٠

واذا كان ابن سلام قد وضع عبدالله بن رواحــة ثالث ثلاثة فانه قد شهد له بجملة أمور فقد كان عظيم القدر فى قومه مطاعا فيهم ، وهو يفضل رجال طبقته فى المجد والسؤدد ، ثم انه شهد بدرا ، وهو أمــر يجعله فى مقدمة شعراء الفروسية ، أما فى الاسلام فكان عظيم القدر والمكانة عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : وشهادة ابن سلام لعبد الله بن رواحة تضعه فى الذروة من المجد والشــاعرية ، وهذا ما ألمحت اليه عند حديثى عن شاعريته ٠

٢ ــ وقد وضعه أبو زيد القرشى ، وهو سابق على ابن سلام ثانى أصحاب المذهبات ، وأثبت له قصيدته التى بدأها بقوله :

تذكر بعدما شطت نجودا   وكانت تيمت قلبى وليدا

ثم ذكر ترجمة له ، ووضع أبى زيد القرشى لعبد الله بن رواحــة ثانى أصحاب المذهبات يعطينا دلالة قوية على تنبه علماء عصر التدوين لشــعر عبد الله بن رواحــة وشاعريته ، وان كانت هذه المصــادر قد أهملت كثيرا من شعره فضاع ، وذهبت به الأيام ٠

٣ ــ أما صاحب الأغانى فلم يفرد عبدالله بترجمة خاصة وانمــا أتى بالحديث عنه فى معرض حديثه عن حسان بن ثابت غير أنه أنصف عبدالله بن رواحة عندما قال : « فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصــار ، حسنان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان

---

(١) حمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص٢٢٣ المصدر السابق ٠

عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر قال : فكـان فى ذلك الزمان أشـد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا ، وتفهموا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحـة ، فلعل ذلك لذاك »(١) .

ولعل فى ملمح صاحب الأغانى ما يشير الى شاعرية عبد الله بن رواحة ، وأغراض شعره الاسلامى ، فلم يلجأ عبدالله بن رواحة الى معارضة المشركين بالوقائع والأحداث فهذا جانب قد حمل تبعته صاحباه حسان وكعب ، ولم يلجأ الى تعييرهم بالمثالب فهذا جانب لا يطمئن اليه، ولم يعود لسانه عليه ، وهو متروك لغيره ، ثم ان حسان بن ثابت قد كفى الاثنين مسئولية هذا الجـانب ، فقـد كان ذا لسان حاد طـويل لو وضعه على شعر لحلقه،أو على صخر لفلقه،لقد تفرد عبدالله بن رواحة بالجانب الايمانى الذى رأى أن العقـل البشرى جدير بأن يتفهمـه ، فلينظر الانسان مم خلق ، ومن خلقـه ، ولينظر الانسان الى طعـامه ومن أوجده ؟ ان جانب التفكير الذى أهمله المشركون ، وعبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر هو الذى جعله عبد الله الغرض الأسمى فى شعره ، فكان يلح عليه كثيرا ، ويعيب على المشركين عدم تفهمهم له ، فكان شعره فى أول الأمر لا يأبه له المشركون ، لكنهم عنـدما أسلموا ، وعلموا ما كانوا عليـه من جهـالة أثر فيهم شـعر عبد الله فـكان قوله أشـد القول عليهم .

٤ — ولعبد الله بن رواحة أخبار فى جميع كتب السير والتاريخ فله أخبار كثيرة فى ابن هشام أوردت جانبا منها عند حديثى عن سيرته ، وله أخبار فى البداية والنهاية ، وله أخبار فى الكامل فى التاريخ ، وقال

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٤ ص ١٣٨ طبعة مصـورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

عنه صاحب الاصابة بعد أن أثبت نسبه : « من السابقين الأولين من الأنصار ، وكان أحد النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدرا وما بعدها الى أن أستشهد بمؤتة ، ثم يروى ابن حجر قول المرزبانى فى معجم الشعراء ، «كان عظيم القدر فى الجاهلية والاسلام ، وكان يناقض قيس بن الخطيم فى حروبهم ، ومن أحسن ما مدح به النبى — صلى الله عليه وسلم — قــوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبيك بالخبر(١)

وهذا غرض أتى جليا فى شعر عبدالله بن رواحة ، فقد كان يمدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — بل انه كان ملازما لرسول الله فى كل تحركاته ، ولم يكن من الذين يمدحون فقط ، وانما كان من أولئــك الذين أتى مدحهم معبرا عما يجيش فى قلوبهم من حب ملك عليهم كل أحاسيسهم •

واذا ذهبنا نستوضح آراء النقاد والكتاب المحدثين ، والتى أتت عبر حديثهم عن رجال هذه الفترة وشعرائها فاننا نجد كل من كتب عن هذه الحقبة الزمنية قد ألمح الى صحبة عبدالله بن رواحة وشاعريته ، فقد ألمح الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — الى دور عبد الله بن رواحــة الريادى فى الدعوة الاسلامية ، وموقفه يوم مؤتة » •

أما الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه • رجال حول الرسول • فقد قال عند حديثه عن عبدالله بن رواحة : « وبعد هجرة الرسول وأصحابه الى المدينة واستقرارهم بها كان عبد الله بن رواحة من أكثر الأنصار

---

(١) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٦ ص ٧٧ — ٨٠
المصدر السابق •

عملا لنصرة الدين ودعم بنائه ، وكان من أكثرهم يقظة لمكايد عبدالله ابن أبى الذى كان أهل المدينة يتهيأون لتتويجه ملكا عليها قبل ان يهاجر الاسلام اليها،والذى لم تبارح حلقومه مرارة الغصة الضائعة فمضى يستعمل دهاءه فى الكيد للاسلام ، بينما مضى عبدالله يتعقب هذا الدهاء ببصيرة منيرة أفسدت على ابن أبى أكثر مناوراته،وشلت حركة دهائه .

ثم يقول : وكان ابن رواحة رضى الله عنه كاتبا فى بيئة لا عهد لها بالكتابة الا يسيرا .

« وكان شاعرا ينطلق الشعر من بين ثناياه عذبا قويا » .

« ومنذ أسلم وضع مقدرته الشعرية فى خدمة الاسلام » .

« وكان الرسول يحب شعره ، ويستزيده منه »(١) .

أما الدكتور يحيى الجبورى فى كتابه شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه فانه يفرد حديثا — أيضا — عن عبدالله بن رواحة فيقول عنه : « وكان مؤمنا خالص الايمان لم يشب ايمـانه شىء مما شاب ايمـان صاحبيه » ، ثم يقول : « ولايمان عبدالله هذا كان مقربا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أثيرا عنده يحنو عليه » ، ثم يقول : « ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليرى أن عبدالله تقى شـديد التقى ، فكان يحبـه لأنه صـادق الايمـان كأنه خلق فى الاسـلام خلقا جديدا .

ثم يقول « وكان من اكرام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — له أنه كان يقربه ويستنشده » ، ثم يقول عن شعره « ان شعر عبدالله ابن رواحة يمتاز بسهولته ، وشيوع المعانى الدينية فيه ، ويلاحظ أن شعر عبد الله قليل ، فعلى الرغـم من اشارة ابن سـلام من أنه كان

---

(١) خالد محمـد خالد : رجال حول الرسـول . ط دار الفـكر ـ بيروت ـ لبنان .

ناقض قيس بن الخطيم فى حروبهم فى الجاهلية ، وعلى الرغــم من أنه معدود فى الشعراء الذين دفعوا الأذى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهاجموا قريشا ، مع كل ذلك فما تبقى من شعره قليل، وكتب السيرة والأدب لم تنقل الينا الا مقطوعات من شعره »(١) .

أما صاحبا موسوعة الشعر العربى فقد قدما لشــعر عبد الله بن رواحة ببحث عن شخصيته نجتزىء منه ما يلى :

يقولان بعد ذكر نسبه : « وبهذا كان عريق المحتد من أبويه فنشأ تنشئة السادة فى بيت كــرم منذ أيام الجاهلية ، وقد تعلم القــراءة والكتابة وقرض الشعر منذ صغره ، ولم يلبث أن أصبح شاعر الخزرج المفوه ، المدافع عن شمائلهم ، ومكارم فضائلهم ، فكانت له نقــائض مشهورة عارض فيها شاعر الأوس قيس بن الخطيم .

ثم يقولان : « غير أن الشاعر السيد من أهــل المدينة لم تتبلــر شخصيته الفنية والاجتماعية الا بعد دخوله الاسلام ، ومشاركته فى جميع أحداثه الكبرى منذ أن وفد من يثرب جمع الوافدين على رسول الله فى مكة ، وأعلنوا اسلامهم فجعله الرسول واحدا من النقباء المقيمين على أمور المؤمنين الأوائل من قومه .

ثم يقولان : « ولم يبلغ عبد لله بن رواحــة مرتبته فى الشــعر والصحابة الا بعد هجرة الرسول الى يثرب ، اذ عرف سريعا بكــونه شاعر النبوة ، كما صار كاتبا بين يدى الرسول أمينا على آيات الوحى يسجلها بخطه .

ثم يقولان : « وهكذا تواتر حضــور هذا الصحابى فى مشــاهد

---

(١) د. يحيى الجبورى : شعر المخضرمين وأثر الاســلام فيه من ص ٨٥ ـ ٨٨ المرجع السابق .

السيرة كلها ، ورويت له وعنه الأحاديث ، وأخبار المواقع العظيمة ، فعرف عنه أنه كان أحد من أدلوا برأيهم فى أسرى قريش عشية بدر ، كما شارك فى وقعة أحد ، وكان له رثاء متفجع لحمزة عم النبى — صلى الله عليه وسلم — ، كما اشترك فى وقعة الخندق ، واستخلفه النبى — صلى الله عليه وسلم — على المدينة حين صدر عنها بجيش لمحاربة القرشيين •

وعند حديثهما عن شعره يقولان : « ان المتتبع لأخبار ابن رواحة عبر تلك الفصول الأولى فى الدعوة والكفاح يكتشف فيه شخصية فكرية فذة الى جانب الموهبة الشعرية التى لا نملك من ثمارها الا القليل، لذهاب أكثر ديوانه ، فقد كان عمدة لتأصيل الايمان فى النفوس ، وداعية للعقيدة الجديدة فى مآثر أيامه وعلاقاته مع أنداده ، كما كان شديدا على نفسه فى اتباعه لأوامر الدين ، وشديدا على ذوى السلوك المتناقض الفكر ممن كانوا يسمون آنذاك بالمنافقين ، وله معهم وقائع رائعة سجلتها كتب السيرة •

« وبالرغم من أن الشعر القليل المتناثر الذى حفظته لنا كتب التدوين لابن رواحة لا يكاد يعيننا على استجلاء المواهبة الابداعية لديه الا أن أدواره القيادية الأخرى فى ميدان الثقافة الصانعة لأحداث التاريخ تبين عن تفرد شخصية ريادية أتيح لها أن تتعدى دور الشعر الى دور الصحبة فى دور الحاجة العظمى لتحقيق الحياة المطابقة للآيات التى هى غاية النمو الفكرى الذى يقصد تغيير الواقع ، وليس مجرد تصويره بفن القول » •

ويقولان فى معرض التعليل لقلة شعره ، أو ضياع ديوانه الشعرى « فما لنا — اذن — ادعاء الكشف عن مزايا هذه الشخصية المتعددة المواهب والأدوار العامة من خلال هذه المقاطع القليلة المتبقية من

أشعاره التى ما عنى هو — أولا — بتثبيتها ، وقد ساهم الشـــاعر هو ذاته حتما فى اهمال ديوانه الجاهلى ، كما أنه لم يكن ليأبه بالابقـــاء على أشعاره المقولةدفاعا عنالنبى — صلى لله عليه وسلم — وضد قريش فى مرحلة الشرك بعد انقضاء هذه المرحلـــة ، واضطلاع قريش ذاتهـــا بأعباء الدين الجديد ، وسلطاته السياسية » .

« ومع ذلك فلو لم يبق الكثير من شعره خـــلال العصور الأولى لما استطاع أبو زيد القرشى أن يعده م نأصحاب المذهبات فى الجمهرة، كما أن ابن سلام الجمحى اعتبره فى (طبقات الشعراء) أحد الشعراء الثلاثة الفحول من شعراء القرى أى المدن العربية ، ولكن المجمـــوعة المتأخرة أهملت ذكر ابن رواحة ، أو ذكر شعره كما فى حماسة أبى تمام ومفضليات الضبى.

أما منهجه الشعرى فيقولان عنه : « ومن ذكره أشار الى فحولته أى انتماء شعره الى النهج الجاهلى المعروف مع الاشارة الى ما فى أسلوبه من الشروق والسلاسة ، ومتانة البناء ، وسلامة العبارة،ونحن يمكننا بدورنا ملاحظة هذه الخصـــائص عبر المقطوعات القليلـــة التى سنوردها مع التنبيه بخاصة الى التطابق الكامل بين شعره هذا القليل والنهج الجاهلى بالصورة والاسلوب ، وان كانت المعانى الاسلامية قد حلت محل المعانى المعهودة فى الفخر والنقائض ، ولكنها لبست لبوس التأدية التقليدية ، وصالت صولاتها فى سياق الحماس ، والذود بعنف عن العقيدة الجديدة ، والتعصب لها ، وعلى أعدائها(١) .

ولعلنا قد قدمنا عند حديثنا عن شـــاعرية عبدالله بن رواحـــة — خلال هذا الفصل — ما يناقض هذا القول لأن عبدالله بن رواحة الذى

---

(١) مطاع صفدى — ايليا حاوى : موسوعة الشعر العربى جـ ٥ ص ١٥٣ — ١٥٥ المصدر السابق .

تعمق الاسلام فى مراحله الأولى لابد وأن يكون قد ابتعد عن النهج الجاهلى فى شعره ، وجميع المقطوعات التى تحققت نسبتها لابن رواحة لا يرى فيها أثر للنهج الجاهلى ، ولعــل الباحثين قد أرادا بحــديثهما شعر عبد الله بن رواحــة الجــاهلى الذى قاله مناقضــا به قيس بن الخطيم ، وحتى هذا الشعر فقد تفرد فيه عبد الله بخصائص خــالف فيها كثيرا من نهج البادية فى العصر الجاهلى •

أما الدكتور عبد الرحيم محمود زلط مؤلف كتاب التــأثير النفسى للاسلام فى الشعر ودوره فى عهد النبوة فقد ألمح الى ما ألمحت اليــه موسوعة الشعر العربى فى الحــديث عن شخصية عبد الله بن رواحــة وشعره ، ونقل جانبا من حديث موسوعة الشعر العربى عنــدما قال : « لقد كانت شخصية عبدالله بن رواحــة هى الأصالة الأولى لجملــة مواهبه فى دوره الاجتماعى والتاريخى فهو من أول الشعراء التاريخيين الكبار المؤسسين لصفحات التاريخ الاسلامى بفضل ما حفظته لنا كتب السيرة عن مجهوده الذى ضاع أغلبه فى مراحل الكفــاح بين المؤمنين والمشركين ، وبين العرب والروم ، وما حواه ذلك عن فكر وثقافة وذوق عربى آنذاك ، والمتتبع له عبر الفصــول الأولى من الكفاح والدعــوة يكتشف فيه شخصية فكرية فذة الى جانب الموهبة الشعرية التى لا نملك من ثمارها الا القليل لذهاب أكثــر ديوانه ، فقد كان عمدة لتأصــيل الايمان فى النفوس ، وداعية العقيدة الجديدة فى مآثر أيامه،وعلاقاته مع أنداده ، كما كان شديدا على نفسه فى اتباعه لأوامر الدين،وشديدا على ذوى السلوك المتناقض الفكر ممن كانوا يسمون آنذاك بالمنافقين، وله وقائع رائعة سجلتها كتب السيرة •

ثم يتحدث الدكتــور زلط عن دور ابن رواحة الريادى فى ســبيل الدعوة الاسلامية فيقول : «ولقد استطاع عبد الله بن رواحة أن يؤدى دوره الايمانى بمهارة منقطعة النظير ، فكان مقداما فى الحروب ، يدافع

عن المؤمنين ويقتـــل الكفار والمشركين ، وكان لسانا للايمـــان على من عاداه ، وحاضا للدعوة الايمانية للدخول فيها لانقاذ البشرية من هوة الضلال ، وكان أمينا على تسجيل الوحى ، ورواية الحديث الشريف ، فاستحق أن تكون له منزلته التى حسده عليها شعراء عصره ، وتمناها العديدون من بعده ، فشخصية ريادية أتيح لها أن تتعدى دور الشعر الى دور الصحبة فى دور الحاجة العظمى لتحقيق الحياة المطابقة للآيات التى هى غاية النمو الفكرى الذى يقصد تغيير الواقع ، وليس مجرد تصويره بفن القول لذلك لا نعجب اذا قيل لنا أن عبد الله بن رواحـــة صار مقلا فى شعره بعد الاسلام ، وأنه كان يتحرج من الشـــعر وهو الذى ملأت عليه العقيدة الجديدة خياله وفؤاده »(١) •

هذا هو عبد الله بن رواحة الشاعر الشهيد الذى قدم للشـــعراء جميعا مثالا حيا ، ونموذجا يقتدى به فى ميدان الشعر الصادق الذى دافع بصدق عن عقيدته وايمانه ، والذى قدم للفـــدائيين فى مختلف العصور أسوة حسنة فى بذل أرواحهم خالصـــة لربهم فى سبيل رفعـــة العقيدة ، وتحقيق المبادىء الفاضلة ، والذى قدم لهؤلاء وأولئك صورة مشرقة من صور البطولة والتضحية •

رحم الله عبد الله بن رواحـــة رحمة واسعة ، وجزاه عنـــا وعن الاسلام الجزاء الأوفى ، وسلام عليه فى الأولين ، وسلام عليـــه فى الآخرين ، وسلام عليه فى الملأ الأعلى الى يوم الدين •

---

(١) د• عبد الرحيم محمود زلط : التأثير النفسى للاســـلام فى الشعر ودوره فى عهد النبوة ــ المصدر السابق •

الخـــاتمة

لقد شاء الله — سبحانه وتعالى أن يكون الصـحابى الجليل — عبد الله بن رواحة — رضى الله عنه — أحد أولئك الشـعراء الذين أسهموا بدور رائد فى خدمة الدعوة الاسلامية ابان انتقالها الى المدينة المنورة ، وشاء الله له أن يسهم بسيفه — أيضا فى تلك المعـارك التى دارت رحاها حول المدينة وخارجها ، فقد كان ثالث ثلاثة بين الشعراء ناضلوا بألسنتهم ، كمـا كان ثالث ثلاثة جـادوا بأرواحهم فى موقعـة مؤتة ، لكن هذا الصحابى الذى تفرد بكثير من الصفات شاء الله له أن تنتهى حيـاته — فى الدنيا — دون أن يكون له عقب ، فـلم يقيض له ذلك ، وهذا أمر قد يولد فى قلوب البعض ألما ، أو ضيقا وضجرا ، ولكنه ولد فى قلب عبد الله رضـا وحبا لجميع المسلمين ، فقـد كانت الدعوة شغله الشاغل ، وكأن الله — سبحانه وتعالى — قد عوضه خيرا عندما اختير أحد النقباء الذين تولوا مسئولية الدعوة والرسول لم يهاجر بعد الى المدينة ، أو عندما وضع فى قلبه ايمانا جعله يتصدى لكل ما يدبره المنافقون ، وما يخططه المرجفون ، أو عندما من عليه بالاستشهاد فى ساحة الشرف والجهاد •

وجميع الكتب التى تناولت سيرة عبد الله بن رواحة ، بل والتى أرخت لدوره الرائد فى سبيل الدعوة الاسلامية تضعه فى مكانة شعرية مرموقة ، ولكنها لا تقدم لنا من نتاجه الشعرى الا قصائد قليلة قالها فى تلك المعارك التى دارت بين الأوس والخزرج قبل أن يمن الله عليهم بالاسلام ، أو مقطوعات من شعره الاسلامى الذى قاله سواء فى معارك المسلمين مع مشركى مكة ، أو فى دفاعه عن الدعوة الاسلامية بالمنهج

الذى ارتضاه لهذا الدفاع ، أو فى مسيره الى مؤتة حاثا الجند ، ذائدا عن حومة الاسلام والمسلمين •

وهذا الأمر جعل النقاد المحدثين يفترضون افتراضات كثيرة لقـلة هذا الشعر ، فمن قائل بضياعه لأن علماء الأدب فى الفترة الأخيرة من عصر التدوين أهملوا شعر ابن رواحة ، فلم ترد له قصائد فى حماسة أبى تمام أو فى مفضليات الضبى بينما أورد له أبو زيد القرشى مذهبته التى نقدم الحديث عنها ، ولعل هؤلاء العلماء قد وجدوا شعرا مدونا لشعراء الأنصار آلوا اليه بينما لم يجدوا فيه شعرا لعبدالله بن رواحة — رضى الله عنه — ولقد قدمت قصة كتابة شعر الأنصار على عهـد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ولكن يبدو أن كتبة الشعر الذين كتبوا لم يجدوا من ينبههم الى شعر ابن رواحة •

ومن قائل ان شعر ابن رواحة قد قل بعد الاسلام ، لأنه كان يتأثم من قول الشعر ، وهذا الفرض — أيضا — يحتاج الى وقفة ، فقـد تأثم عبد الله بن رواحة من قول الشعر أول الأمر ، ثم لبى دعوة النبى — صلى الله عليه وسلم — عندما طلب منه ذلك ، فقال شعرا وصف بأنه كان أهون على المشركين أول الأمر ، ثم انهم عندما أسلموا وفقهوا كان قوله أشد عليهم من قول حسان وكعب •

افتراضات كثيرة تلتقى حينا ، وتتضـارب أحيانا حول شـعر عبد الله بن رواحة ، ولكن الأمر الذى يجمع عليه المؤرخون أن عبدالله ابن رواحة كان له دور ملحوظ فى الدفاع عن الدعوة بلسانه وسنانه ، ولم يحدث قط أن تخلف عن أمر نيط به ، أو تقاعس عن واجب حمله ، وانما كان سباقا الى نصرة الدعوة بلســانه وسنانه ، واذا كان نتـاج لسانه قد عبث به من عبث ، أو لم يهتم به لأنه لقى ربه كما اهتم بشعر

صاحبيه اللذين تقدمت بهما الأيام ، فأدركوا جانبا من تلك المحاولات الأولية فى التدوين فان عبد الله بن رواحة سيبقى ذكره دائما ، وذكراه تفرض نفسها على الجميع ، وذلك لأن جمال التضحية ، وجلال الهدف وروعة الاستشهاد مثل عليا تجعل عبد الله بن رواحة فى أعلى عليين •

د• عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
فرع المنوفية
والأستاذ المشارك بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

مصـــادر البحث ومراجعه

أولا : المصادر :

١ ـ ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصرى ـ الطبقات الكبرى ـ ط دار صادر بيروت ـ لبنان ٠

٢ ـ ابن سلام الجمحى : محمد بن ســـلام الجمحى ـ طبقات فحـــول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى القاهرة ٠

٣ ـ ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ـ ط دار المعرفة بيروت لبنان ٠

٤ ـ ابن هشام : عبد الملك بن هشـــام ـ السيرة النبوية ـ تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيـــارى ، عبد الحفيظ شلبى ـ ط مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ٠ الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥ م ٠

٥ ـ أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى : جمهرة أشـــعار العرب فى الجاهلية والاسلام ـ حقق وعلق عليه د٠ محمد على الهاشمى مطـــابع جامعة الامام محمد بن ســـعود الاسلامية ـ الرياض ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ٠

٦ ـ أبو ســـعيد عبـــد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصـــمعى ـ الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر ـ عبد السلام هارون ٠ ط دار المعارف ٠ الطبعة الخامسة ٠

٧ ـ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ـ تحقيق د٠ طه الزينى ، مكتبة الكليـــات الأزهرية ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ٠

٨ ـ أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى . طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة دار احيـــاء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنـــان .

٩ ـ أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبـلاذرى : فتوح البلدان . نشره وحققه صـلاح الدين المنجد مكتبة النهضة المصرية وطبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان .

١٠ ـ اسماعيل بن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ـ تحقيق محمد عبد العزيز النجار مطبعة الفجالة الجديدة ـ القاهرة .

١١ ـ حسان بن ثابت : ديوان حســـان بن ثابت ـ تحقيق د. سيد حنفى حسنين : ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م

١٢ ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى : الامام الذهبى ـ سيرة أعـــلام النبلاء ـ ط مؤسسة الرسالة بيروت ـ لبنـــان ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١ م .

١٣ ـ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العســـقلانى . الاصابة فى تمييز الصـــحابة ـ تحقيق د. طه الزينى . مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

١٤ ـ عبد الرحمن السهيلى الامام المحدث : الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

١٥ ـ عبد القادر بن عمر البغدادى : خزانة الأدب ، ولب لباب لسان العرب،تحقيق وشرح عبدالسلام هارون مكتبةالخانجى ـ القاهرة

١٦ ـ عز الدين أبو الحسن على بن عبد الكريم المعـروف بابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ط دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

ثانيا : المراجع الحديثة :

١٧ ـ السـيد أبو الحسـن على الحسـنى الندوى : السـيرة النبوية ط دار الشروق ـ جدة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٩م

١٨ ـ أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ط دار الفكر العربى القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٥م

١٩ ـ أحمد حسن الباقورى : أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ط دار المعارف ٠ القاهرة ١٩٦٩م

٢٠ ـ أحمد فؤاد الغول : الشعر فى الاسلام ، الطبعة الأولى دار لوران للطباعة والنشر الاسكندرية ٠

٢١ ـ خالد محمد خالد : رجال حول الرسـول ، ط دار الفكر بيروت ـ لبنـان ٠

٢٢ ـ خير الدين الزركلى : الأعلام ، ط دار العلم للملايين ، بيروت لبنان

٢٣ ـ زكى المحاسنى : شعر الحرب فى أدب العـرب ، ط دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ٠

٢٤ ـ د٠ شـوقى ضيف : الشـعر والغناء فى المدينـه ومكة ط دار المعارف ـ مصر ٠

٢٥ ـ د٠ شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ط دار المعارف مصر ـ الطبعة التاسعة ٠

٢٦ ـ د٠ شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الاسلامى ط دار المعارف مصر ـ الطبعة السابعة ٠

٢٧ ـ د٠ شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشـعر العـربى ، ط دار المعارف مصر ـ الطبعة العاشرة ٠

٢٨ ـ د٠ صـادق عبد الحليم محمد : الشـعر فى موكب الدعـوة الاسلامية ، مطبعة النهضة العربية ، الفجالة مصر ١٩٧٩م ٠

٢٩ ـ عبد الدايم أبو العطا البقرى الأنصارى : شعر الأنصار ، مطبعة دار الشرق ،القاهرة ١٩٤٧ م

٣٠ ـ د٠ عبد الرحمن عميرة : رجال أنزل الله فيهم قـرآنا ، ط دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الرياض ٠

٣١ ـ د٠ عبد الرحيم زلط : التأثير النفسى للاسلام فى شعره ، ودوره فى عهد النبوة ، ط دار اللواء للنشر والتوزيع ـ لرباض ٠

٣٢ ـ د٠ عبد العزيز عتيق : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان ٠

٣٣ ـ د٠ عبد القادر القط : فى الشعر الاسلامى والأموى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ٠

٣٤ ـ د٠ عبد الله بن حامد الحامد : شعر الدعوة الاسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ط الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية الرياض ١٩٧٢م

٣٥ ـ على بن برهان الدين الحلبى : السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون (انسان العيون) ط بيروت ـ لبنان ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٣٦ ـ على شاكر فهمى جابى زادة : حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ط الآستانة ١٣٢٤هـ ٠

٣٧ ـ عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، ط دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ٠

٣٨ ـ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ، ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ٠

٣٩ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف ـ القاهرة ٠

٤٠ ـ محمد ابراهيم نصر : النقد الأدبى فى العصر الجاهلى ، وصدر الاسلام ، ط دار الفكر العربى ١٣٩٨هـ ٠

٤١ ـ د٠ محمد بن سعد بن حسين : من شعراء الاسلام ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤

٤٢ ـ محمد حسين هيكل : حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٦٨م ٠

٤٣ ـ د٠ محمد زغلول سلام : أثر القـــرآن فى تطور النقد العربى ٠
ط دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٣م

٤٤ ـ د٠ محمد مصطفى هداره : دراسات فى الشعر العربى ، ط دار
المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٣م

٤٥ ـ محمد يوسف الكاند هلوى : حياة الصحابة ، دار المعرفة للطباعة
والنشر ، بيروت ـ لبنان ٠

٤٦ ـ مطاع صفدى ـ ايليا حاوى : موسوعة الشعر العربى ، ط شركة
خياط للكتب والنشر ، بيروت ـ لبنان ٠

٤٧ ـ د٠ ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية
ط دار المعارف ـ القاهرة ٠

٤٨ ـ د٠ يحيى الجبورى : شـــعر المخضرمين وأثـر الاســـلام فيه ٠
منشورات مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤م وطبعة مؤسسة الرسالة
بيروت لبنان ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ٠

فهرس الموضوعات

ـ الأخبار الواردة فى ذلك كثيرة ـ ملازمته برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمق التضحية لديه • استخلافه على المدينة فى غزوة بدر الموعد• شعره فى عمرة القضاء • عبد الله ابن رواحة يضع نفسه فى حالة استعداد • خبر عبد الله مع أسير بن رازم اليهودى • عبد الله يخرص على أهل خيبر • كان عبد الله غيورا على دينه • عبد الله يخاف الله ويخشى الآخرة •

الفصل الثاني : ثالث الأمراء **من ص ٥٣ الى ٨٩**

شخصية عبد الله القتالية • المسلمون ينقلون الحرب خارج المدينة• المسلمون يؤمنون مدينتهم من الشمال • تهيئة الرسول لغزو خيبر • مفاجأته لأهل خيبر • دعوة الملوك والأمراء لدخول الاسلام • الدعوة تأخذ طريقها الى المناطق المتاخمة للجزيرة • شرحبيل بن عمرو الغسامى يقتل رسول رسول الله • اشعار العرب بقوة المسلمين • الغساسنة يتنكرون للروابط التى كانت تربطهم بأهل يثرب ، اعلان النفير العام للخروج الى مؤتة • اختيار الأمراء • يهودى يتنبأ باستشهاد الأمراء الثلاثة • خبر ذلك • وصية الرسول الجند السائرين الى مؤتة • علم العدو بمسير المسلمين اليهم • استعداده لهم • بعض المحدثين يشكك فى عدد جنود الروم ، وتفنيد رأيه • علم المسلمين بعدد جنود الروم وتشاورهم فى المضى أو الانتظار • تحميس عبد الله بن رواحة لهم • محمد حسين هيكل وحديث عن مؤتة • شاهد عيان يروى ماحدث • أخبار عبد الله فى هذه الموقعة • بكاؤه ساعة خروجه من المدينة وأسبابه • شعره ساعة خروجه من المدينة • تعلق نفسه برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شجاعته وحرصه على خوض المعركة • كلمات ابن رواحة فى تحميس الجند • شعره فى ذلك • نفس تواقة للشهادة • المسلمون يلتقون بالروم عند مؤتة • استشهاد زيد وجعفر • تقدم بعد تردد • شعر حسان وكعب فى رثاء مؤتة •

اختـلاف منهجه بعد اسـلامه ـ تأثره المبكر بتعاليم الاسـلام ـ قصيدته فى رثاء شهداء أحد ودلالتها على تأثره المبكر بالاسلام ـ شـعر حسان فى بدر جاء جاهليا ـ قصيدة حسان فى هجاء الحارث بن هشام جاءت جاهلية ـ قصيدته كذلك فى يوم الخندق ـ كعب بن مالك ينحو هذا النحو ،ولكنه يتحول سريعا ـ قصائد كعب فى بدر وأحد ودلالتها على منهجه ـ عبد الله بن رواحة يقتفى أثر الاسلام فى شعره ـ ورود كثير من معانى القرآن فى شعره ـ وضع القرآن أمام عينيه ـ حسـان وكعب وعبد الله أدوا دورهم ومازالت الدعوة فى طورها الأول ٠

الشعراء الفرسان الآخرون جاءوا على آخرة ـ خفت ـ فى عهدهم ـ حدة الصراع بين مكة والمدينة اسلام كثير من شـعراء المشركين ـ اسلام أبى سفيان بن الحـارث بن عبد المطلب ـ منهج العبـاس بن مرداس فى شعره ـ افتخاره برجاله الألف من بنى سـليم ـ العباس يبدأ قصيدته بمدح الرسول ، ثم يتحدث عن قومه ـ النـابغة الجعدى ينزع الى البادية فى شعره ـ أبو محجن يحذو حذو سابقيه ٠

آراء النقاد فى شعر عبد الله بن رواحة ٠

رأى ابن سـلام الجمحى فى شعره وضعه أبو زيد القرشى ثانى أصحاب المذهبات ـ لم يفرد الأغانى ترجمة لعبد الله ولكنه يندر شعره ـ لعبد الله بن رواحة أخبار فى جميع كتب السير والتـاريخ ٠ محمد حسين هيكل يلمح الى دور عبد الله الريادى فى الدعـوة الاسـلامية ـ حديث الأستاذ خالد محمـد خالد عن عبـد الله بن رواحة ـ د٠ يحيى الجبورى يفرد حديثا لعبد الله بن رواحة ـ صـاحبا موسوعة الشـعر العربى يقدمان لشعر عبد الله بمقدمة ضافية عن حياته وشعره ـ رد على ماجاء فى حديثهما عن شـاعريته د / عبد الرحيم زلط يسير مـع صاحبي الموسوعة ٠

ثبت بتصويب أهم الأغلاط

ص	س	الخطأ	صوابه	ص	س	الخطأ	صوابه
٥	١٢	يعارضهم	يعارضانهم	١٨٣	٩	فلما	فلم
١٤	٣	تعيه	تبعه	١٩٠	١	قتله	قبله
١٤	١٥	بالزاعة	بالزراعة	٢٠٠	٢٠	فسماحة	فسامحه
٢٠	١٤	الحمحى	الجمحى	٢٠١	٢٠	التقصائد	القصائد
٢٥	٣	باللهم	بالهم	٢٠٢	٢١	الطبيعة	الطبعية
٣٢	٣	مونذر	ومنذر	٢٠٤	٣	أنشدتهما	وأنشدتهما
٣٧	٢	ككفلة	ككفالة	٢٠٥	٢	عى	على
٣٩	٣	يجازوه	يجاوزه	٢٠٥	٨	والمسمين	والمسلمين
٦٥	هامش٢	وبعدالاسلام	وعهدالرسول	٢١٠	١١	دورجام	ورجام
٦٧	٢	غللبهم	غلبهم	٢١١	٢	ومزج	ومرنح
٧٤	٧	رشول	رسول	٢١٣	٢	آزر تهاى	آزرتها
٨٤	٣	القبيلة	القلة	٢١٤	٢	أرثاد	أراد
١٠٨	١	الشائنين	الشانئين	٢١٨	٦	حببشى	حبشى
١١٥	١٧	قليلا	الا قليلا	٢٢١	١٤	يسليهم	يسلبهم
١٢٤	آخرسطر	يتبددا	يتبدد	٢٢٣	١٣	فل	فكل
١٤٩	٥	كثرير	كثير	٢٢٧	٣	الرتغيب	الترغيب
١٦٣	١٨	يخشى	يخشى بأسها كل	٢٣٨	٢٠	حسنان	حسان
١٧٥	١٨	دامئا	دائما				

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٥٠/١٩٨٩